فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

إعداد

خميس بن ماجد بن خميس الصباري

منشورات مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي
للدراسات العربية
سلسلة : الأدب
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

الإهـــداء

إلى هؤلاء الأحبّاء :

روحِ أمّي الغالية عسى أن يمن الله – تبارك وتعالى– عليها بالرحمة ! .

والدي الكريم عسى أن يطيل الله عمره ! .

زوجتي أم مصطفى .

أبنائي ؛ مصطفى ، محمد ، علي ، أحمد ، ماجد .

أمهات الشهداء اللواتي يحتسبن أولادهن عند الله تعالى .

كلَّ مَن ينشِد الصدق في الكلمة .

تـــصـــــديـــــر

إن البحث العلمي في جامعة نزوى الفتية هدف من الأهداف السامية التي تقوم عليها إستراتيجيتها و خطتها المستقبلية التي التي تأبى أن تقتصر مهمة النشاط الجماعي على التكوين المعرفي وحده بل تريد أن تتعداه إلى إعداد الطالب لخوض غمار البحث العلمي و أن تهيئ له من أسبابه وتيسر له من و سائله ما يرغبه في الانخراط في مجال البحث و الطموح إلـــى المـــساهمة في الجهود الإنسانية مكن أجل الارتقاء بالمعرفة و الالتحاق بمصاف الشعوب الفاعلة فـي تطـور الحضارة البشرية .

و على هذا الأساس , و بدعم متواصل من الأستاذ الدكتور أحمد بن خلفان الرواحـــي, رئيس الجامعة,حرصت الجامعة على إيلاء البحث العلمي المكانة التي هو بها جدير في لوائحهـــا و هياكلها و مشاريعها فكان أن أوجدت من بين مؤسساتها الجامعية جملة من مراكز البحـث و يمثل مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي للدراسات العربية لبنة من أهم اللبنـــات التـــي وضعتها الجامعة لدعم البحث العلمي في مجال العلوم العربية على اختلاف مشاربها في تحقيق التراث العماني و العربي و المساهمة من خلال أعمال الجامعيين في التقدم بالمباحث العربية مع التعهد برعايتها على مستويي الإنجاز و النشر .

و في هذا السياق يسعد مركز الخليل بن أحمد للدراسات العربية أن يقدم للقـــارئ الكريم باكورة منجزاته في مجال نشر البحوث العلمية الصادرة عن قسم العربية بكلية العلوم و الآداب وهو بحث جامعي للأستاذ

خميس بن ماجد بن خميس الصباري يحمل عنوان"فـن الرثـاء عنـد شاعرات الجاهلية" وهو بحث قيم يتولى التعريف بالشاعرات العربيات و بنصوصهن الرثائية واصفا الأشكال التي ورد عليها إبداعهن و مختلـف المعـاني التـي تـضمنها و مختلف الأساليب الفنية التي قام عليها . و هذا مرجع مفيد , دون ريب, مثـر للبحـوث العربيـة ومنير لزاوية مهمة من زوايا النظر في أدبنا العربي .

و بهذا يفتتح مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي للدراسات العربية سلسلة منشوراته العلمية شاكرا للجامعة عنايتها الفائقة بالبحث العلمي و واعدا المضي قدما بمشيئة اللـه تعالـى لتكريس عملية النشر و الحرص على انتظامه و ضمان جودته خدمة للعلم و مساهمة في التعريف بجهود الباحثين في الدراسات العربية و ربط أواصر التعاون العلمي و التبادل المعرفـي بين البـاحثين العرب في مختلف الجامعات العربية .

و الله نسأل أن يوفقنا و يسدد خطانا .

أ.د. الهادي الجطلاوي

مدير مركز الخليل بن أحمد

نزوى في 2009/05/13

فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

إعداد
خميس بن ماجد بن خميس الصباري

الملخص

سعت هذه الدراسة إلى جمع ما أمكنها من شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية، ودراستها دراسة استقرائية تحليلية، تعتمد على قراءة الخصائص والسمات الجزئية الخاصة وصولاً إلى العموميات، التي تنتظم هذا اللون من الشعر لفظاً ومعنى وصورة.

واقتضت الدراسة أن تكون في مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة؛ عرضت المقدمة أهمية الموضوع، ومصادره، ومنهجه، وتناول التمهيد تعريف الرثاء لغة واصطلاحاً، وما يتصل به من ألفاظ تدل على بكاء الميت، والحزن عليه، والسلو عنه.

أما الباب الأول؛ فقد اشتمل على خمسة فصول، تناول كل فصل منها اتجاهاً من اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية، وهي رثاء الآباء والأعمام، رثاء الأبناء، رثاء الاخوان، رثاء الأزواج، الرثاء القبلي.أما الباب الثاني، فاشتمل على خمسة فصول أيضاً؛ تناولت بنية المرثية، وخصائصها اللفظية، والمعنوية، وصدقها في الرثاء، وصورتها الشعرية.وفي الخاتمة نتائج ما توصلت إليه الدراسة، وأهمها أولاً انحصر شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية في خمسة اتجاهات لرثاء الرجال دون النساء. ثانياً يغلب الوضوح والسهولة على بنية المراثي، وتستوحي صورها من واقع البيئة المحيطة بها.ثالثاً نقل إلينا هذا اللون من الشعر جانباً من واقع الحياة الحربية الجاهلية. رابعاً صدق العاطفة من أهم ما يميز هذا الفن. خامساً جسدت الراثية في شعرها صورة فقيدها بأجمل صفاته الأخلاقية، كما صورت حالها بعده بمعاني الأسى والحرمان.

المقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإنّ فنّ الرّثاء من أكثر فنون الشعر تعبيرا عن صدق العواطف ، لا سيما إذا كان صادرا عن شاعرة قد أصاب الموت قريبا حبيبا لها ، فذاقت مرارة الثكل ، وعاشت مشقة الحرمان ؛ فذهبت مذهب الحمام في النوح والبكاء ، بكلام مسكون بالآلام والأحزان ، مضبوط بالقوافي والأوزان .

ولقد حظي هذا اللون من الشعر باهتمامي ، وإعجابي ؛ لأنه يمثل قيمة إنسانية فضلى ، فنهدتُ إلى جمْع ما أمكنني جمعُه من شعر الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، وآثرت دراسته باتجاهاته المختلفة ، على أنّ هناك دراساتٍ حديثةً سبقني بها آخرون في هذا الحقل ،وقد باينتُ دراستي دراساتهم بنظري في النصوص الشعرية واتجاهاتها ، ومن هذه الدراسات التي أمكنني الوقوف عليها :

ـ رثاء الأبناء في الشعر العربي ، إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، للدكتور مخيمر صالح موسى يحيى ؛ درس فيها اتجاها واحدا للرثاء ، لشعراء وشاعرات ، منذ الجاهلية حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، وقد ركّز في دراسته على التحليل الموضوعي للرثاء ومتغيرات هذه الظاهرة ، كما ركّز على التحليل الفنيّ لها .

ـ رثاء الأبناء في الشعر العربي ، حتى العصر الأموي ، للدكتور محمد إبراهيم حور ، الذي تناول نفس الاتجاه السابق ، باختلاف وجيز في الحدّ الزمني للدراسة ، عرض لهذا الغرض بالتحليل والتعليق ، وبيان أهم الخصائص الفنية عند الشعراء والشاعرات .

ـ الشعر النسائي في أدبنا القديم ، تأليف الدكتورة مي يوسف خليف ، درست فيه نماذج من معظم الأغراض الشعرية النسائية في العصر الجاهلي حتى الأندلسي .

ـ شواعر الجاهلية ، دراسة نقدية ، لرغداء ماريني ، تناولت فيها جلّ فنون شواعر الجاهلية ، من مديح ورثاء وفخر وغزل وحنين إلى الأوطان وهجاء.

أما دراستي هذه فقد حدّدت منهجا خاصّا بها يُعنى أولا بالإطار الزمني ، موقتا بالعصر الجاهلي . ويُعنى ثانيا بجنْس الراثي ، ممثلا

بالشاعرات . ويعنى أخيرا بالاتجاه محـددا برثـاء الآبـاء والأعمـام ، والأبناء ، والإخـوان ، والأزواج ، والقبيلة ، وآخريـن . مع الإحالة إلـى كثيـر مـن المصادر الأصيلة ؛ توثيقا للمادة ، وترجيحا لأهـم الروايـات بأدلة عقلية ونقلية ، وتفسيرا للغريب ، وإضفاء للصبغة الشخصية ، بـالنظر إلى فهم المعاني ، واستقرائها ووصفها وتحليلها .

وقد واجهتني خلالَها صعوبات ؛ أهمها : اختلاف الروايات في نسبة الرثاء إلى الراثي والمرثـي ، واختلافها أيضا في مبانيها ومعانيهـا ، وقـد تغلبت على هذه الصعوبة بتقديـم الروايات السابقة علـى اللاحقـة منهـا ، والتمييز بين ما أشكل من معانيها واتجاهاتها ، ببعض ما حضرني من أدلـة عقليـة .

وقد بُنيتْ هذه الدراسة على تمهيد ، وبابين ، وخاتمة . تناول التمهيد المعنيين اللغوي والاصطلاحي للرثاء ، والألفاظ المتصلة بمعنى الرثاء .

وتناول البـاب الأول اتجاهـات فـنّ الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، مقسّما إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : رثاء الآبـاء والأعـمـام .

الفصل الثاني : رثـــــاء الأبنـــاء .

الفصل الثالث : رثاء الإخوان .

الفصل الرابع : رثاء الأزواج .

الفصل الخامس : الرثاء القبلي والفـــردي .

وتناول الباب الثاني الدراسة الفنية لشعر الرثاء وتكون مـــن خمـــسة فصول ، هي:

الفصل الأول : بنيـــة المرثيـــــــة .

الفصل الثاني : الخصائص المعنوية .

الفصل الثالث : الخصائص اللفظـــية .

الفصل الرابع : الصدق في الرثـــاء .

الفصل الخامس : الصورة الشعرية .

ثم انتهت الدراسة بخاتمة ؛ فيها أهم ما توصلت إليها من نتائج .

وأمـــا أهـــم المصادر التي نهـــلتْ منها هـــذه الدراسة مادَّتهـــا الأمَّ فهي : ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان ، وأيام العرب قبل الإســـلام لأبـــي عبيدة ، والتعازي والمراثي للمبرد ، والبيان والتبيين للجـــاحظ ، وشـــــرح أشعـــار الهذليين للسكري ، والأغاني للأصفهاني ، وديوان حماسة أبي تمام بشرحيه ؛ المرزوقي والتبريزي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه .

وختاما ؛ حسبي من هذه الدراسة أنني اجتهدت فيها ، داعيا الله تبارك وتعالى أن يوفقني إلى ما يحبّه لي ويرضاه .

الباحث

التمهيد

المدخل اللُّغوي لكلمة الرِّثاء :

يقول الخليل [1] : " رَثَى فلانٌ فلاناً ، يَرثيهِ رَثْياً ومَرثِيَةً ، أيْ يَبكيهِ ويَمدَحُهُ ، ولا يَرثي فلانٌ لفلانٍ ، أيْ لا يَتوجّعُ إذا وقعَ في مكروهٍ " .

أمّا ابنُ فارسٍ فيقول في معنى الرِّثاء [2] : " الرَّاءُ والثّاءُ والحرف المُعتلُّ أصيلٌ يدلُّ على رِقَّةٍ وإشفاقٍ . يُقالُ : رَثيتُ لفلانٍ : رَقَقْتُ . ومِنَ البابِ قولُهم : رَثَى الميّتَ بشِعْرٍ " .

وتوسّع ابن منظور في إيراد التصريفات التي تتصل بلفظ الرثاء فقال [3] : " رَثَأْتُ الرَّجلَ رَثْأً : مدحتُهُ بعدَ موتِهِ ، لغةٌ في رثيتُهُ ، ورَثَأْتِ المرأةُ زوجَها كذلك ، وهي المُرْثِئَةُ . قالتِ امرأةٌ مِن العرب : رَثَأْتُ زوجي بأبياتٍ ، وهمَزَتْ ، أرادتْ رثيتُهُ . ورَثَيْتُ الْميِّتَ رَثْياً ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيَةً

1- الخليل الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، (ت175هـ) : العين ، ط1، تحقيق : مهدي المخزومي ، و إبراهيم السامرائي ، انتشارات أسوة ، قم ـ إيران ، 1414هـ ، مادة (رثي) .

2- ابن فارس، أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت395هـ) : مقاييس اللغة ، ط2 ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي ، 1389هـ ـ 1969م ، مادة (رثى) .

3- ابن منظور ، أبو الفضل ، جمال الدين بن مكرم ، (ت711هـ) : لسان العرب، ط2 ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1300هـ ، مادة (رثو) .

، ورثيتُهُ مدحتُهُ بعدَ الموتِ ، وبكيتُهُ ، ورثوْتُ الميّتَ أيضا ، إذا بكيتُهُ ، وعدّدتُ محاسنَهُ ، وكذلك إذا نظمتُ فيه شِعراً ، ورثتِ المرأةُ بعلَها تَرثيهِ تَرثيةً ، ورثيْتُهُ تَرثاهُ رِثايةً فيهما ، وامرأةٌ رثّاءةٌ ، ورثّايَةٌ : كثيرةُ الرّثاءِ لِبعلِها ، أو لغيرِهِ مِمَّنْ يُكْرَمُ عندَها : تَنُوحُ نِياحةً " .

وممّا يُلاحَظُ على الأصل اللُّغوي لكلمة (رِثاء) أنها تصدُر عن ثلاثة جذور هي : (رَثأ ، ورَثَوَ ، ورَثِيَ) . وكُلُّها تتضمّن معانيَ الرّثاء .

المعنى الاصطلاحي للرّثاء :

يقول النُّوَيْريُّ [1] : " وبابُ الرّثاءِ فهو بابٌ فسيحُ الرِّحاب ، والنَّوادي ، فصيحُ اللِّسانِ في إجابة الْمُنادي ، ذي القلبِ الصّادي ، مُتباينُ الأسلوب ، مُختلفُ الأطراف ، مُتباعدُ الشّعوب منه ما يُصمي القلوبَ بنبالِهِ ، ومنه ما يُسلِّيها بلطيفِ مقالِهِ ، ومنه ما يَبعثُها على الأسف ، ومنه ما يَصرفها عن موارِدِ التّلَف . وقد أكثر الشعراء القولَ في هذا الباب وارْتَقَوْا الذّروةَ العلياءَ من هذه الهِضاب ، ووجدوا مكانَ القول ذا سعَةٍ فقالوا ، وأصابهم هجيرُ

1- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، (ت733هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، د.ط ، تحقيق : يحيى الشامي ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ـ لبنان ، 1424هـ ـ 2004م ، مج3 ، ج5 ، ص161 .

اللّوعة فمالوا إلى ظِلِّهِ وقالوا . قال الأصمعيُّ : قلت لأعرابيٍّ : ما بالُ المراثي أشرفَ أشعارِكم ؟ قال : لأنّا نقولُها وقلوبُنا مُحترقةٌ " .

ويُعرِّف الدكتور شوقي ضيف الرثاء فيقول [1] : " هو بكاء يتعمَّق في القِدَم منذ وُجِدَ الإنسان ، وَوُجِدَ أمامَهُ هذا المصيرُ المُحزِنُ ؛ مصيرُ الموت والفناء الذي لا بدّ أنْ يصيرَ إليه ، فيصبح أثَراً بعد عيْن ...؛ فيئِنُّ الشاعر ويتفجّع ، إذ يشعر بلطمة مُروِّعة تُصوّب إلى قلبه ، فقد أصابه القدَرُ في ابنه أو أبيه أو أخيه ، وهو يترنّح من هول الإصابة ترنّحَ الذّبيح فيبكي بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار ، يبثّ فيها لوعة قلبه ، وحرقتَه ، وقد ينظر فيرى الموت مُطِلاً نصْبَ عينيه وهو ينحدر راغماً إلى حُفرته ، ولا ناصر له ولا مُعين ، ويصيح ، ولا ينفعه صياحه ، فَفَم الهاوية يقترب منه ، ويوشك أن يلتقمه ، فيبكيه ويلحَن بكاءه على قيثارة شعره تلحينًا مُشجيا ، كلُّه آلام وحسرات " .

ومن المستشرقين الذين تناولوا موضوع الرثاء بلاشير الذي يقول [2] : " كانت موضوعات التفجع التي وسعها الشعراء السابقون في شعر الرثاء

1- شوقي ضيف : الرثاء ، د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، ص5 .

2- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، د.ط ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر العربي المعاصر ، دمشق ــ سورية ، 1419هـ ــ 1998م ، ص491 .

ذات استيحاء غنائي ومدحي ، وهي متصلة أيــضا بمجمــوع الارتــدادات النفسية " .

الألفاظ المتصلة بمعنى الرثاء :

ترتبط بالرثاء ألفاظ ذوات علاقة به منها البكاء والنواح والعويــل ، والنعي والندْب والتأبين والعزاء ، ولكل لفظ منها دلالــة خاصــة يؤديهــا ؛ ليصيب بها معنى مقصودا بعينه ولذاته ، في منظومة دلالات هــذا الحقــل اللغوي .

أولا : البكاء :

يقول ابن منظور [1] : " البكاء يقصر ويمدّ ؛ قال الفرّاء وغيــره ، إذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء ، وإذا قــصرت أردت الــدموع وخروجها ، وقد بكى يبكي بكاء وبكا . قال الخليل : من قصره ذهب به إلــى معنى الحزن ، ومن مده ذهب به إلى معنى الصوت . قال الأصمعي : بكيت الرجل وبكيته ، بالتشديد كلاهما إذا بكيت عليه ، وأبكيتــه إذا صنعــت بــه ما يبكيه . وقال ابن الأعرابي : التبكاء ، بالفتح ، كثرة البكاء وأنشد :

1- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بكا) .

وأقـــرح عـــيـــنـــي تبـــكـــاؤه وأحـــدث في السمـــع مني صمـــم

وباكيت فلانا فبكيته إذا كنت أكثر بكاء منه . وتباكى تكلف البكـــاء . والبكي الكثير البكاء ، على فعيل ، ورجل باك ، والجمع بكاة وبكي " .

ويقول الفيروز آبادي[1] : " وأبكاه : فعل به ما يوجب بكـــاءه وبكـــاه على الميت تبكية : هيّجه للبكاء ، وبكاه بكاء ، وبكاه بكى عليه ورثاه " .

ويجعل أبو منصور الثعالبي للبكاء ترتيبا تصاعديا ، ذا قدرة تعبيرية نفسية متطورة للباكي فيقول [2] : " إذا تهيأ للبكاء قيل أجهش ، فـــإذا امـــتلأت عينه دموعا ، قيل : اغرورقت عينه وترقرقت ، فإذا سالت قيل : دمعـــت ، فإذا حاكت دموعها المطر قيل : همعـــت ، فإذا كان لبكائه صـــوت قيـــل : نحب ونشـــج ، فإذا صاح مـــع بكائه قيل : أعول " .

1- الفيروز آبادي ، مجـــد الديـــن ، محمد بن يعقوب ، (ت817هـــ) : القامـــوس المحيط ، ط4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــ لبنان ، 1415هـــ ـــ 1994م ، مادة (بكى) .

2- الثعالبي ، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت429هـــ) : فقـــه اللغة وسر العربية ، د.ط ، مؤسسة مطبوعات ، قم ـــ إيران ، د.ت ، ص101 .

ثانيا : النواح :

يقول الخليل : [1] " النوح مصدر ناح ينوح نوحا . ويقال : نائحة ذات نياحة ، ونواحة ذات مناحة ، والمناحة أيضا الاسم ، ويجمع على المناحات والمناوح .

والنوائح : اسم يقع على النساء يجتمعن في مناحة ، ويجمع على هذا المعنى على الأنواح " .

ويتوسع ابن منظور في اشتقاقات النواح المتعلقة بالرثاء فقال : [2] " وناحت المرأة تنوح نوحا ونواحا ونياحا ونياحة ومناحة وناحته وناحت عليه . والمناحة والنوح النساء يجتمعن للحزن . ونوح الحمامة ما تبديه من سجعها على شكل النوح ، وحمامة نائحة ونواحة . واستناح الرجل : بكى حتى استبكى غيره . والتناوح التقابل ومنه تناوح الجبلين وتناوح الرياح ، ومنه سميت النساء النوائح نوائح ؛ لأن بعضهن يقابل بعضا إذا نُحْن ، وكذلك الرياح إذا تقابلت في المهبّ ؛ لأن بعضها يناوح بعضا ويناسج " .

1- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (نوح) .

2- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نوح) .

ثالثا : العويل :

" العولة من العويل ،وهو البكاء ، أعولت المرأة إعوالا ، وهو شدة صياحها عن بكاء ، أو مكروه نزل بها [1] " . و " أعول الرجل والمرأة وعوّلا : رفعا صوتهما بالبكاء والصياح ، والاسم العول والعويل والعولة ، وقد تكون العولة حرارة وجْد الحزين والمحبّ من غير نداء ولا بكاء . وأعول عليه : بكى . وعال عوْلُهُ وعيل عوْلُهُ : ثكلته أمه . الفراء : عال الرجل يعول إذا شقّ عليه الأمر . وعالني الشيء يعولني عولا : غلبني وثقل علي . وعيل صبري ، فهو مَعُول : غُلِب [2] " .

رابعا : النَّعي :

وله أربعة مصادر ، الأول عن الخليل : " نعى ينعى نُعياً [3] " ، والثاني والثالث عن ابن منظور : " .. نَعيا ونُعيانا [4] " ، والأخير عن الفيروز آبادي : " نعيّا [5] " . وهي كلها تعني : " الدعاء بموت الميت

1- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (عول) .
2- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عول) .
3- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (نعي) .
4- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .
5- الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (نعي) .

والإشعار به [1] " ، و " كانت العرب إذا مات منهم ميت له قدر ركب راكب فرسا وجعل يسير في الناس ويقول : نعاء [2] فلانا [3] " .

خامسا : الندب :

يرد معنى (الندب) بمعان متباينة أولاها الأثر ، وثانيها الخطر ، وثالثها الدعوة ، وآخرها الصفة ؛ بين ذلك الخليل الفراهيدي حين يقول [4] : الندب أثر جرح قد أجلب ، وجرح نديب أي ذو ندَب ، ورجل ندْب : أريب لبيب متيقظ ، وندب ندابة نقيض بلد بلادة ، والندب الفرس الماضي ، والنادبة تندب بالميت بحسن الثناء : وافلاناه واهناه ، والندبة الاسم ، والندب أن تندب إنسانا أو قوما إلى أمر في حرب تدعوهم إليه وإلى غيره فينتدبون أي يتسارعون وانتدبوا له من قبل أنفسهم من غير أن يندبوا .

ويفسّر ابن منظور العلاقة بين الندب بمعنى أثر الجرْح وبين الندب بمعنى بكاء الميت حكاية عن ابن سيدة فيقول [5] : " وندب الميت بعد موته وهو من الندب للجراح ؛ لأنه احتراق ولذع من الحزن " .

1- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .

2- نعاء : أي انعَه وأظهر خبر وفاته ، مبنية على الكسر . المصدر السابق ، مادة (نعا)

3- المصدر نفسه ، مادة (نعا) .

4- الخليل الفراهيدي : العين ، مادة (ندب) .

5- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ندب) .

سادسا : التأبين :

وفعله : أبّن . و " الهمزة والباء والنون يدل على الـذكر ، وعلـى العُقَدِ ، وقَفْوِ الشيء . والتأبين مدح الرجل بعد موته " [1] .

وفي لسان العـرب : " وأبن الرجـل تأبينا ، و أبلـه : مدحـه بعد موته وبكاه ؛ قال متمم بن نويرة [2] :

لعمري ! وما دهري بتأبين هالك ولا جزعـا مما أصاب فأوجعـا

ويقول الفيروز آبادي[3] : " التأبين الثناء على الشخص بعد موته واقتفاء أثر الشيء " . ولا يقتصر التأبين أن يكون مدحا للميت حسب ، بل يمكـن أن يكون مدحا للحيّ الذي سيؤول أمرُه إلى المـوت ، يذكـر ذلـك ابـنُ منظـور في كـلام يرفعـه إلى شمر : [4] " التأبين الثناء على الرجل فـي الموت والحياة " .

1- ابن فارس : مقاييس اللغة ، مادة (أبن) .

2- المفضل الضبي ، أبو العباس ، المفضل بن محمد (ت168هـ) : المفضليات ، ط8 ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، 1993م ، ص265 .

3- الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (أبن) .

4- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أبن) .

سابعا : العزاء :

أصله الانتماء والاتصال ؛ يقول ابن فارس [1] : " العين والزاء والحرف المعتل أصيل صحيح ، يدل على الانتماء والاتصال . يقول الخليل : الاعتزاء : الاتصال في الدعوى إذا كانت الحرب ، فكلّ من ادّعى في شعاره أنا فلان بن فلان أو فلان الفلاني ، فقد اعتزى إليه ".

ويقول ابن منظور عن العزاء بما يخصّ الرثاء [2] : " العزاء : الصبر عن كل ما فقدت ، وقيل : حسنه ، عزي يعزى عزاء ، ممدود ، فهو عزٍ ، ويقال : إنه لعزي صبور إذا كان حسن العزاء على المصائب ، وعزيت فلانا أعزيه تعزية أسيته وضربت له الأُسى ، وأمرته بالعزاء فتعزى تعزيا أي : تصبر تصبرا " .

ويظهر من هذا التعريف أن التأسي والاعتبار من معاني العزاء ، الذي يتجلّى فيه موقف العقل إزاء حدَث الموت ، كيف يضبط الانفعال والأعصاب ، ويسوس الإحساس والشعور في وقت ذروة المصاب ، وهول الفجيعة ، فيرى أن الصبر خير من الشكو ، والجلَد أولى من الجزَع ؛ لأنّ المصير بين الناس جميعا مشترك ، ودربَهم فيه واحد .

1- ابن فارس : مقاييس اللغة ، مادة (عزوى) .

2- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عزا) .

وينهد المبرد إلى تسمية أحد كتبه بـ (التعازي والمراثي) وهو زاخر فياض بالحديث عن العزاء وفضائله ، ومن ذلك قوله [1] : " والعزاء هو السلوّ ، وحسن الصبر على المصاب ، وخير من المصيبة العِوَض منها ، والرضى بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، تنجّزا لما وعد من حسن الثواب ، وجعل للصابرين من الصلاة عليهم الرحمة ، فإنه يقول تبارك وتعالى [2] : (وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

1- المبرد ، أبو العباس ، محمد بن يزيد ، (ت286هـ) : التعازي والمراثي ، ط2 ، تحقيق : محمد الديباجي ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1412هـ ـ 1992م ، ص8 .

2- سورة البقرة ، الآية 155 ـ 157 .

الباب الأول

اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية

يعد فنّ الرثاء من أقدم الأغراض الشعرية ؛ لأنه بوح يلازم الطبيعة الإنسانية في التعبير عما تشعر به تجاه فقد عزيز غال عليها هذا من ناحية، ولِما تنتظره من مواجهة محتومة لنفس المصير الذي آل إليه المرثي ، من ناحية أخرى ، منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، واستطاع أن يطوّع لغته لتكون وسيلته الإبداعية في الإبانة والإفصاح عما في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، أو في عقله من أفكار ورؤى .

وللشاعرة الجاهلية في هذا الميدان سابقة القول ؛ فقد قالت في معظم اتجاهاته ، فرثت الأب ، والعم ، والابن ، والأخ ، والزوج ، وبعض من أفراد قبيلتها وخرين ، واستطاعت أن تنقل إلينا صورة عن تجاربها ومواقفها في معمعان الحروب ، إذ " كان الرثاء الجاهلي يقوم على استنهاض الرجولة ابتغاء الثأر للقتيل ، الأمر الذي قد يعني أن من كانت أرواحهم لا تسيل على حدود السيف ، لم يكونوا ينالون رثاء في المراحل السحيقة من الجاهلية . وأيا ما كان الشأن ، فإن استنهاض الرجولة للثأر أمر قد تجيده الأنوثة أكثر مما تجيده الذكورة ، وذلك نظرا لقابلية الرجل للاستفزاز والاستثفار على يد المرأة التي يجد فيها إحياء وإيقاظا لقدراته [1] " . وقد اهتمت أغلب المصادر

1- يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، ط4 ، دار الحقائق ، بيروت ــ لبنان ، 1985م ، ص333 .

بنقل جلّ ما للشاعرة الجاهلية من شعر في غرض الرثاء ؛ لقدرتها الفطرية على التفجّع والبكاء ، قال ابن قتيبة [1] : " الشعراء أيضا بالطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ، ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثيس" . فأكثر ما تيسر للمرأة الجاهلية من شعر هو الرثاء ؛ لتلك الصفات المعدودة لها ؛ فنقلت لنا صورة لأحداث حربية قبَليّة ، يزخر بها التاريخ الجاهلي ، وقدمت لنا وثائق سجلت فيها مآثر قومها ؛ ذودَهم عن حياضهم وتغنيَهم ببطولاتهم ، وتباهيَهم بمكارم أخلاقهم ، ومواقفهم الرجولية في سلمهم وحربهم ، " ولا نجد في رثائهم من التفجع والتوجع للقتيل إلا ما جاء على ألسنة النوائح ، أو نسوة القتيل من أهله كزوجه أو أمه أو شقيقته [2] " .

ويتناول هذا الباب اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية ؛ فيبدأ بالأقرب نسبا إلى الشاعرة وهو رثاء الآباء ، حتى ينتهي بأبعدهم صلة بها وهم الأفراد الذين تجمعهم بالشاعرة آصرة القبيلة ؛ فتؤبّن فيهم صفاتٍ خاصةً تراها حريّة بالذكْر والتشهير

1- ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، (ت276هـ) : الشعر والشعراء ، د.ط ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ـ مصر ، 1423هـ ـ 2003م ، ج1 ، ص94 .

2- اعفيف عبد الرحمن : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ط1 ، دار الأندلس ، بيروت ـ لبنان ، 1404هـ ـ 1984م ، ص281 .

الفصل الأول

رثاء الآباء والأعمام

ينطلق رثاء الشاعرة أباها من منطلق عاطفي ، تظهر فيه فداحة الثكل ، ومرارة الحرمان ، فبعْدَ أن كانت ناعمة بالحنان والأمان والرعاية ، في كنَف والدها الذي يعطيها ذلك منه تجد نفسها فجأة منبتَّةً عنه ، محرومة منه ، فتبكي فقدها إياه تارة ، وتبكي خسارتها مما اعتادته منه تارة أخرى ، ولا ترى مَن يقوم مقام والدها ، من قريب أو بعيد ، لا سيما إذا كان الوالد قد جمع بين صفات الأبوة ، وصفات السيادة ؛ فنهلت الشاعرة من مشارب الأولى ، وزهت ببحبوحة الأخرى ؛ فهذه حارثة بنت كلمن [1] ترثي أباها ، وكان ملكاً على مَدْيَن [2] ، ثم قضى الله عليه وعلى قومه بعذاب يوم الظُلّة [3]

1- لم أعثر لها على ترجمة .

2- مدين : مدينة قوم شعيب ــ عليه السلام ــ بين وادي القرى والشام وقيل مدين : اسم القبيلة ؛ ولهذا قال الله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) . [الأعراف ، الآية 85] . الحموي ، ياقوت ، شهاب الدين ، أبو عبدالله ، ياقوت بن عبدالله ، (ت 626هـ) : معجم البلدان ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، مج4 ، ج8 ، ص224 .

3- يوم الظلة : على قوم شعيب ــ عليه السلام ــ وهي سحابة أظلتهم فلجؤوا إلى ظلها من شدة الحر ، فأطبقت عليهم وأهلكتهم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ظلل) .

فما ملكت ابنته عندما وصلها الخبر إلا أن تصرخ باسمه من أول بيت في المقطعة ناعية له ، تقول [1] :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الـــــــحتف نارا تحت ظله

كونت نارا وأضحت دار قومي مضمحله

تصرخ باسمه ؛ لتلفت الأسماع بأن الخبر الذي يقترن باسم الملك لذو خطر ، وأن الأمر لا يخصها وحدَها ، بل يتجاوزها إلى عموم القوم ؛ فقدمت الاسم المشهور ، ثم اتبعته بذكر الخطْب الجليل ، الذي هدّم ركنها ، وزلزل عرشها ، في مكان ليس بعيدا عنها ، إنما هو قريب " وسط المحلّة " أي في كبد الدولة وعزها ، فأضحت " مضمحلة " بسبب موت الوالد الملك بحادثة السحابة العجيبة التي تحولّت إلى نار محرقة .

صرخت الشاعرة بالثلاثة الأبيات السابقة ، ولم تزد شيئا عليها ، ولم تقل شيئا عن صفات والدها ، وكأن الحزن قد بلغ بها حدّا وجمها فذهلت

1- المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي ، (ت346هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط4 ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1384هـ ــ 1964م ، ج2 ، ص149 ــ 150 .

لذلك المصير ، لكن خالدة [1] بنت هاشم بن عبد مناف ، وهي ترثي أباها سيد قريش ، تنادي عينها عسى أن تسفح بالدموع فتغسل عنها حزنها الحادث بسبب وفاة أبيها ؛ فتستهل قصيدتها بقولها [2] :

عين جودي بعبرة وسجوم واسفحي الدمع للجواد الكريم

عين واستعبري وسحّي وجمّي لأبيك المسوّد المعلوم

ثم تمضي في تعداد مناقبه ، فتقول :

هاشم الخير ذي الجلال والحمد وذي الباع و الندى والصميم

وربيع للمجتدين وحرز ولزاز [3] لكل أمر جسيم

شمري [4] نماه للعز صقر شامخ البيت من سراة الأديم

1- هي : " خالدة بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر " . ابن هشام ، أبو محمد ، عبدالملك بن هشام الحميري ، (ت218هـ أو 213هـ) : السيرة النبوية ، ط1 ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، دار الخير ، بيروت ـ لبنان ، 1417هـ ـ 1996م ، مج1 ، ج1 ، ص3 .

2- ابن طيفور ، أبو الفضل ، أحمد بن أبي طاهر ، (ت280هـ) : بلاغات النساء ، ط1 ، تحقيق : يوسف البقاعي ، دار الأضواء ، بيروت ـ لبنان ، 1999م ، ص233 ـ 234 .

3- لزاز : لزّ الشيء بالشيء يلزه لزا وألزه : ألزمه إياه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لزز) .

4- شمري : ماض في الأمور والحوائج مجرب . المصدر السابق ، مادة (شمر) .

شيظمـــي [1] مهـذب ذي فـضـــول أبطحـــي مـــثـــل القنـــاة وسيـــم

صادق البأس في المواطـــن شهـــم ماجـــد الجد غيـــر نكـــس ذميـــم

غالـــبـــي مشـــمـــر أحـــــوذي [2] باســـق المجد مصرخيّ [3] حليـــم

ثم تقول أبياتا أخر ، ترثيه بها ، وكأن الأولى على ما أغدقت فيهـــا عليه من صفات ونعوت جميلة من علو نسب ، وجزيل عطـــاء ، ومـــضاء موقف ، وسداد رأي ، لم تنصف مقام والدها نسل الـــشرف[4] ؛ لـــذلك رأتـــه حريّا أن تقول فيه أيضا [5] :

بكـــتْ عينـــي وحـــقّ لها بكاهـــا وعـــاودهـــا إذا تمســـي قـــذاهـــا

أبكّـــي خيـــر مـــن ركـــب المطايا ومن لبس النعال ومـــن حـــذاهـــا

أبكـــي هاشمـــا وبـــنـــي أبـــيـــه فعيل الصبـــر إذ منعـــت كـــراهـــا

وكـــنـــت غـــداة أذكرهـــم أراهـــا شديـــدا سقمهـــا بـــاد جـــواهـــا

فلو كانت نفـــوس القـــوم تفـــدى فديتهـــم وحـــقّ لـــهـــا فـــداهـــا

1- شيظمي : الطويل الجسيم الفتيّ من الناس . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شظم)

2- أحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه . المصدر السابق ، مادة (حوذ) .

3- مصرخي : المصرّخ : المغيث والمعيد . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (صرخ) .

4- ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ــ خليـــل الرحمن ــ عليهما السلام . ابن هشام : السيرة النبوية ، مج1 ، ج1 ، ص4 .

5- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 ــ 234 .

تقول : " وعاودها إذا تمسي قذاها " دليل على تواصل حزنها على والدها الشريف نسبا ومركبا ولباسا ، ثم تختم أبياتها بتقديم روحها فداء لروحه . والظاهر أنها قالت هذه الأبيات بعد مدّة من قولها للأولى بعد أن تبع موت والدها موت أعمامها بدليل قولها : " وبني أبيه " أي : إخوانه ؛ فعيل صبرها ، ومنعت نومها لتتابع موت أهلها الواحد تلو الآخر .

وفي مرثية عَمْرَة [1] بنت دُرَيْد لأبيها سيد بني جُشَم تظهر لنا مزايا السيد البطولية التي جعلت منه حقيقا بالسيادة ، فتقسم قائلة [2] :

لعمرك ما خشيت على دريد ببطن سُمَيرة [3] جيش العَناق [4]

1- هي عمرة بنت دريد بن الصِّمّة بن جشم ، كان أبوها سيد قومه ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة مظاهرا للمشركين ، ولا فضل فيه للحرب ، وإنما أخرجوه تيمنا برأيه ، فقتله ربيعة بن رفيع السلمي . ابن هشام : السيرة النبوية ، مج2 ، ج4 ، ص63 — 75 . وانظر : القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ص117 .

2- المصدر السابق ، مج2 ، ج4 ، ص75 .

انظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص224 . الأصفهاني : الأغاني ، ج10 ، ص27

3- سمَيرة : واد قرب حنين قتل فيه دريد بن الصمة . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج3 ، ج5 ، ص75 .

4- العناق : الداهية أو الخيبة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنق) .

وتنفي خشيتها عليه من جيش العناق ؛ لما خبرته من صلابته عند المواجهة ، ثم تدعو على بني سُلَيْم ؛ لأنهم قتلوه شيخا كبير السنّ ، ولم يرقّوا لشيبته ، ولم يرعَوْا صنيع يديه عليهم في سابق الأيام ، تقول :

جزى عنه الإله بني سليم ... وعقتهم بما فعلوا عقاق [1]

وأسقانا إذا قدنا إليهم ... دماء خيارهم عند التلاقي

فرب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقي

ورب كريمة أعتقت منهم ... وأخرى قد فككت من الوثاق

ورب منوّه بك من سُليم ... أجبت وقد دعاك بلا رماق

فكان جزاؤنا منهم عقوقا ... وهمّا ماع منه مخّ ساقي

فهو الفارس الذي دافع عن بني سليم سابقا في ذلك الحين الذي بلغت فيه نفوسهم من الخوف التراقي ، وهو الذي أعتق كريماتهم من الأسر والهوان ، وهو ذو النجدة في ساعة العسرة ، فجزوا أهله عقوقا ، وأورثوا ابنته همّا ماع لشدته مُخُّ ساقها . وبقتل والدها يتغير المكان على الشاعرة ، ويتنكر لها ما عهدته من مرابع الصبا ومدارج الشباب في أين ويذي بقر إلى فيف النهاق :

1- عقاق : مبنية على الكسر مثل حذام ورقاش . المصدر السابق ، مادة (عقق) .

عفت آثـــار خيلـــك بعـــد أيـــن [1] بذي بقـــر [2] إلى فَيـــف النهـــاق [3]

ثـــم تردف أبياتها هذه أبياتا أخر تصدق فيها واقعة قتل أبيها الـــذي بات مشهورا لشهرته ، ومن لم يسمع به وهو من فرسان العرب المعـــروفين ، تقول [4] :

قالوا : قتلنا دريدا قلت قد صدقـــوا فظل دمعي على السربـــال ينحـــدر

فالخبر صادق ؛ مما أعقبها دمعا متواليَ العبـــرات ينحـــدر لكثرتـــه انحدارا يصل إلى قميصها ولولا الموت الذي يقهر الجميع لرآه أعداؤه علـــى رأس جحفل شاكي السلاح لا يدع لهم فرصة يفرون منه :

لولا الـــذي قهـــر الأقـــوام كلهـــم رأت سليم وكعـــب كيـــف تأتمـــر

إذن لصبحهـــم غبا [5] وظاهـــرة [6] حيث استقرت نواهم جحفل ذفـــر [7]

1- أين : قرية بين مكة والمدينة . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج1 ، ج1 ، ص234 .

2- ذي بقر : قرية في ديار بني أسد . البكري ، أبو عبيد ، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي ، (ت 487هـ) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط3 ، تحقيـق : مصطفى السقـا ، مكتبة الخانجـي ، 1417هـ ـ 1996م ، مج1 ، ج1 ، ص263 .

3- فيف النهاق : موضع في ديار بني كنانة . المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص1036

4- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج2 ، ج3 ، ص 75 ـ 76 .

5- غبا : ورد يوم وظمء آخر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غبب) .

6- ظاهرة : أن ترد الإبل كل يوم نصف النهار . المصدر السابق ، مادة (ظهر) .

7- ذفر : الذفر ، بالتحريك : شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن . المصدر نفسه. مادة (ذفر)

وفي رثاء دختنوس [1] بنت لقيط أباها سيد بني فهم تبدأ قصيدتها بإعلان خبر الموت الذي يصبّحها باكرا بعد هجوع فتقول [2] :

بكر النعي [3] بخير خِنْدف [4] كهلها وشبابها

وبخيرها نسبا إذا عدت إلى أنسابها

وأضرها لعدوها وأفكها لرقابها

و قريعها و نجيبها في المطبقات و نابها

ورئيسها عند الملوك وزين يوم خطابها

تبكي فقده وافتقادها للعديد من الصفات الحميدة ، التي كان يتجمّل بها ، حتى يصل بها إعجابها بمناقبه إلى أن ترفعه إلى الأفق الأعلى ، تشبيها له بالكواكب اللامعة :

1- هي دختنوس بنت لقيط بن زرارة ، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عُدُس . قتل أبوها لقيط يوم شعب جبلة وهو يوم لعامر وعبس على ذبيان وتميم . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص583 .

2- أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، (ت 209هـ) : أيام العرب قبل الإسلام ، ط1 ، جمع وتحقيق ودراسة : عادل جاسم البياتي ،مكتبة النهضة العربية ، 1407هـ ـ 1987م ، ج2 ، ص251 ـ 252 . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص232 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص143 ـ 144 . الأصفهاني : الأغاني ، ج11 ، ص102 .

3- النعي : خبر الموت . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نعا) .

4- خندف : ليلى بنت حلوان ، غلبت على نسب أولادها ؛ فذهب لها اسما ولأولادها نسبا ، وسميت بها القبيلة . المصدر السابق ، مادة (خندف) .

كـــالـــكوكـــــب الـــــدريّ فـــي ســـيـــمـــــاء لا يـــخـــفـــــى بـــهـــــا

ثم تمضي ؛ لتبين السبب الذي أوقع أباها بين يدي القدر المحتوم :

عـــبـــــث الأغـــــرُّ بـــــه وكـــــلُّ مـــــنـــــيـــّـــة لـــكـــتـــــابهـــــا

فعثـــور الفرس (الأغرّ) هو السبـــب في مـــوت الفـــــارس ، وفـــــرار الحليف في المعركة هو السبب الآخر :

فـــــرّت بـــنـــو أســـــد حـــــرود [1] الـــطـــيـــــر عـــن أربـــــابـــهـــــا

ثم تصفع بني هوازن بالبيت الأخير من قصيدتها تحقيرا لهم ، ولأصـــحابهم بني أسد ؛ فتشبههم بالفئران العالقة بالأذناب ، كناية عن دونيّتهم وتبعيّـــتهم ، وعدم نديتهم لرؤوس القوم أولي الصفات التي وجدتها في أبيها :

وهـــــوازن أصـــحـــــابـــــهـــــم كـــالـــــفـــــأر فـــي أذنـــابـــــهـــــا

وتتفجـــر الراثيـــة غضبـــا عندما تعلم أن عبْـــسا ضـــربت أباهـــا ميتـــا ؛ فتتوعدهم بالويلات ، فتقول [2] :

ألا يا لها الويلات ويلات من بكـــى لضرب بني عبس لقيطا وقد قضى

1- حرود : حرد يحرد حرودا : إذا ترك قومه وتحول عنهم . ابـــن منظـــور : لـــسان العرب ، مادة (حرد) .

2- أبو عبيـــدة : أيـــام العـــرب قبـــل الإســـلام ، ج1 ، ص250 ــ 251 . وانظـــر : الأصفهـــاني : الأغـــــاني ، ج11 ، ص101 .

وتشنّـــع عليهـــم الغـــدْر بوالدهـــا فتصفهـــم بـــ " الخُضَّب ": النعام ؛ لتلصق بهم صفة الجبن :

غدرتـــم ولكـــن كنتم مثـــل خضب أصاب لها القناص من جانب الشرى [1]

ثم تتربص النوازل من قادم الأيام ببنـــي عـــامر بـــن صعـــصعة ؛ لتجزيهم بالقتل قتلا ، يشفي غليلها من قتلهم عمها مَعْبِد بن زُرارة ســـابقا [2] ، وأباها لقيطا لاحقا :

فإن تعقب الأيام من عامـــر يكـــن عليهـــم حريقـــا لا يـــرام إذا سمـــا

ليجزيهـــم بالقتـــل قتـــلا مضعّفـــا ومافي دماء الحُمْس [3] يا مال من بوا [4]

وناهيك بكلمة " مضعّفا " من مبالغة في الانتقام ؛ فهي لا تريد لهـــم قتلا واحدا ، بل أكثر من ذلك ؛ لأنهم تجاوزا قتل الواحد ؛ فالعدل أن يكـــون كما قالت .

1- الشـــرى : والشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، يقال للشجعان : ما هـــم إلا أســـود الشرى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شري) .

2- انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص583 .

3- الحمس : رجل حمس وحميس وأحمس : شجاع . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حمس) .

4- بوا : البواء بالهمز : السواء . وفلان بواء فلان : أي كفؤه . المصدر السابق ، مادة (بوأ) .

أما ابنة مالك بن بدر [1] ، فترثي أباها يوم الهَباءة [2] فترى أن أباها قد قتله أكفاؤه بمالك بن زهير [3] قتلا يناسب مكانة الشريف ، وإن تمنّت السلامة له ، وآثرت ألا يغيب عنها ، ولكنّ ساجعة بالرقمتين ، أو الرسّ ستملأ ذلك الوادي بكاء يحيي بطولات فارس (الكتفان) . تقول [4] :

ولله عينا من رأى مثل مالك عقيرة [5] قوم إن جرى فرسان

فليتهما لم يشربا قطُّ شربة وليتهما لم يرسلا لرهان

1- هي ابنة مالك بن بدر شاعرة جاهلية مقلة ، وكان " بنو بدر بن عدي بن فزارة ، وعظماؤهم في الجاهلية يرأسون جميع غطفان ، وتدين لهم قبائل قيس " . الأندلسي ، ابن سعيد ، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد ابن عبدالملك ، بن سعيد ، (ت685هـ) : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ط1 ، تحقيق : نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ـ الأردن ، 1402هـ ـ 1982م ، ج2 ، ص552 .

2- يوم الهباءة : يوم لعبس على ذبيان . ابن عبد ربه ، أبو عمر ، أحمد بن محمد الأندلسي ، (327هـ) : العقد الفريد ، د.ط ، شرح وتحقيق وضبط : أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العرب ، بيروت ـ لبنان ، 1403هـ ـ 1983م ، ج5 ، ص156

3- مالك بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس . ابن حزم ، أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، (ت456هـ) : جمهرة أنساب العرب ، ط6 ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت ، ص251 .

4- الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص145 . وانظر : أبا طالب ، المفضل بن سلمة : الفاخر ، ص228 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج4 ، ص402 .

5- عقيرة : يقال : ما رأيتك اليوم عقيرة وسط قوم ، للرجل الشريف يقتل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عقر) .

أحــلّ بـــه أمـــسِ جُنيـــدب [1] نذرَهُ فـــأي قتيـــل كـــان في غطفـــان

إذا سجعـــت بالرقمتيـــن [2] حمامة أو الرس [3] تبكي فارس الكتفـــان [4]

ويلاحظ على هذه الأبيات ظهور الندية بـــين الفارســـين ؛ فمالـــك بمالـــك ، وفارس بفارس ، وشريف بشريف ، ثم تكشف الأبيات عـــن خطـــة مبيتـــة للانتقام من أبيها سمتها الشاعرة " نذرا " قام بها جنـــدب ، الـــذي صـــغرته تحقيرا له " أحل به أمس جنيدب نذره " ، ثم رفعت منزلة والـــدها فـــورا ؛ باستخدام فاء التعقيب ، عن منزلة المصغَّر تعظيما لمقام والدها " فأي قتيـــل كان في غطفان " .

وترثي ابنة قيس بن جابر أباها يوم عاقل [5] ؛ فتذكر فداحـــة همـــوم واقعة عليها ، تطاول ليلهـــا وامتـــدّ ليتسع لكثرتهـــا ، غير أن مـــا شـــيّب

1- جنيدب : جندب ، أحد بني رواحة ، قاتل مالك بن بدر . الأصـــفهاني : الأغـــاني ، ج17 ، ص145 .

2- بالرقمتين : رقمتا فلج ، وهما خبروان : خبراء ماوية وخبراء البيسوعة ، والرقمتان : روضتان : إحداهما قريب من البصرة ، والأخرى بنجد ، والرقمتان في أطراف اليمامة . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج1 ، ج2 ، ص667 .

3- الرس : واد بنجد . المصدر السابق ، مج1 ، ج2 ، ص652 .

4- الكتفان : فرس لمالك بن بدر . الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص145 .

5- يوم عاقل : " هو يوم لبني زيد بن عمرو ، على بني أسد ، وفيه مقتل قيس بن جابر الأسدي ، قتله عباد بن عامر التغلبي " . الشمشاطي ، أبو الحسن ، علي بن محمـــد بـــن المطهر العدوي ، (القرن الرابع الهجري) : الأنوار ومحاسن الأشعار ، د.ط ، تحقيق :

رأسها هو يوم مقتل والدهـــا ، وكأنها تقول : إن الهموم الناتجة مـــن غيـــر مقتل أبيها شيء ، وأن همّ مقتله شيء آخر ، هو الأثقـــل وطئـــا ، والأكثـــر حزنا ؛ مما حدا بها أن تعبّر عنه بصيغة " شيّب رأسي " ؛ ولا يشيب الرأس إلا لهول عظيم أو أمر جسيم ، تقول [1] :

تطـــاول ليلـــي للهمـــوم الحواضـــر وشيب رأسي يوم قيس بـــن جابـــر

ثم تتماسك ، فتعزي نفسها بما لأبيها من مواقف بطولية مشهورة بين الأحياء والقبائل في السنين الغوابر :

فإن تكن الأحـــداث أودت بفـــارس عظيم المساعي في السنين الغوابر

فقد علمت أحياء زيـــد وكاهـــل [2] وعمـــرو وودّان قبيل الغواضـــر [3]

بأن أبي قد كان فـــارس قومـــه به تتقي حـــدّ الرمـــاح الشواجـــر

ثم تنتهي إلى الدعاء على (حيّ الأراقم)، مذكرة لهم بأنهم سيردون نفس المورد الذي ورده والدها :

السيد محمد يوسف ، راجعه وزاد في حواشيه : عبد الستار أحمد فراج ، التراث العربي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، 1977م ، ج1 ، ص239 .

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص241 ــ 242 .

2- كاهل : جاء في الأنوار ومحاسن الأشعار : " ... قيس بن جابر ، وكان فـــارس بنـــي كاهل " . ج1 ، ص239 .

3- الغواضر : قبيلة في بني أسد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غضر) .

فلا يهنئن حـــيَّ الأراقـــمِ [1] فقْـــدُه فكلٌّ امرئ رهن لريـــب المقـــادر .

وفي يوم أبايض [2] يقتل أبو الجَدْعاء [3] ؛ فتتبري ابنته لرثائه باكيـــة ، ومبكية عليه صنفين من الناس ، هما : ضيف مُعيّل ، وأرملة ؛ فتقول [4] :

ليبك أبا الجدعـــاء ضيـــف مُعيَّـــل وأرملـــة تغشـــى النَّـــديَ فترمـــل

ولا يخفى أنها بدأت البيت بـــ (لام الأمر) طالبـــة ممـــن ذكَـــرت مشاركتها البكاء ؛ ليخفَّ عليها ثقل الحزن ، ولات حين وقت للتلطـــف فـــي القول ، لاستخدام مالا يكون أمرا من أساليب الكلام ، لعظم فاجعتها ، ثم أنها تصرّح أن سبب النجاة من القتل ، وقد حمي وطيس الحرب كان مهيئا لأبيها ؛ فما كان عليه إلا أن يأذن لفرسه أن ينجوَ به عن معمعان القتـــال ، دون أن يستخدم سوطه لحثّه على ذلك :

ولو شاء نجّاه من الخيـــل سابـــح جموم[5] على الساقين والسوط مفضل

ولكن هربه عار ، لا يليق بفارس القبيلة المحامي عن ذمار الآباء :

1- حي الأراقم : حي من تغلب . المصدر السابق ، مادة (رقم) .

2- يوم أبايض : يوم لبكر بن وائل ، على بني تميم . الشمشاطي : الأنـــوار ومحاسـن الأشعار ، ج1 ، ص96 .

3- في المصدر السابق : " وقتل أبو الجدعاء الطهوي ، قتله سعد بن عباد بن مسعود " ، ج1 ، ص96 .

4- المصدر نفسه ، ج1 ، ص96 .

5- جموم : فرس جموم إذا ذهب منه إحضار جاءه إحضار . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جمم) .

ولكن فتى يحمـــي ذمـــار [1] أبيكـــم فأدركه من رهبـــة العـــار محفـــل

ثم تـــذمّ قومـــه ومـــن كان معه ؛ إذ أسلموه لمصيره ولم ينـــشطوا لنجدته ، وقد استحرّ القتال :

دعا دعوة ــ إذ جاءه ــ ثَمَّ مالكـــا ولـــم يـــك عبدالله ثَـــم ونهشـــل

وغابت بنو ميثاء عنه ولـــم يكـــن نعيم بن شيطان هنـــاك وجـــرول

ولكن دعـــا أشبـــاه نبـــت كأنهـــم قرود على خيـــل تخـــبّ وتركـــل

فتصـــل إلى حكـــم محقـــق بخســـارة تـــشمـــل القبيلـــــة ؛ لقتـــل فارسها المحامي عن عوراتهـــا :

لقد فجعت شيبان قومـــي بفـــارس محام على عوراتهم ليـــس ينكـــل .

وكما فعلت ابنة أبي الجدعاء في مستهل أبياتها تفعل أروى [2] بنـــت الحُبـــاب الأمَر نفسه في رثائها أباها ؛ فتعرض لذكر صنفين من الناس شملهما والدها

1- ذمار : كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه وإن ضيعته لزمه اللـــوم . المصدر السابـــق ، مادة (ذمر) .

2- " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " . عبد مهنا : معجم النساء الشاعرات فـــي الجاهلية والإســـلام ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، 1410هـــ ــ 1990م ، ص11 .

بالإحسان ، هما صنفا الأرامل واليتامى ، تقول [1] :

قـل للأرامـل واليتامى قـد ثـوى فلتبـك أعينهـا لفقـد حُسبـاب

وهو الكريم الكرم الموروث ، الأصيل النسب ، المعروف فيه وفـي آبائه ، المقرون بأعلى غاية الكرم ، وهو الجود بالنفـس ، التي يأتي بـذلها إبقاءً على الأحساب ؛ فحياة القبيلة بحاجة إلى من يدفع نفـسه لبقائهـا ، وإلا لهلكت جميعا :

أودى ابن كلُّ مخاطـر بتـلاده [2] وبنفسـه بُقيـا علـى الأحسـاب

فهو من قوم لا يقبلون لأنفسهم إلا صدور الأمور نافية عنهم أسافلها :

الراكبين مـن الأمـور صدورَهـا لا يركـبـون معـاقـدَ الأذنـاب .

وكذلك وصفت بنت ملاعب الأسنة [3] راثية أباها ، بأنه كان غياث

1- البحتري ، أبو عبادة ، الوليد بن عبيد ، (ت 284هـ) : الحماسة ، ط2 ، اعتنى بـه : الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، 1967م ، ص275 .

2- التلاد : كل مال قديم من حيوان وغيره ، يورث عن الآباء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (تلد) .

3- هي ابنة " ملاعب الأسنة الكلابي ، وهو أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كـلاب ، كان ابن أخيه عامر بن الطفيل " . الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر بـن يحيـى ، (ت 370هـ أو 371هـ) : المؤتلف والمختلف ، د.ط ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، د.ت ، ص286 .

المرملين ، ومعتصما في الزمن الشديد ، تقول [1] :

كان غيـــاث المرمـــل الملتـــاح [2] وعصمـــة في الزمـــن الـــكـــلاح

ثم تجمع كرمه بشجاعته ؛ لتجعل الصفتين معا نسيجا واحدا ، يتحلى بهما والدها ، وتتجلى بهما طلعته بين فتية ، تعـــودوا أن يبـــاكرهم بالهـــدايا والشراب والطرب والطيب ، أمارة على سيادته عليهم ، تقول :

ومعمـــل الناجيـــة [3] الـــوقـــاح [4] وذائـــد الكـــتـــيـــبـــة الـــرداح [5]

بالخـــيـــل تشكـــو ألـــم الـــجـــراح وفتـــيـــة هـــبـــوا إلى الـــمـــراح

بـــاكـــرتـــهـــم بـــحـــلـــل وراح [6] وقـــيـــنـــة ومـــزهـــر [7] صـــداح

وزعـــفـــران كـــدم الأذبـــاح .

1- ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن حمزة العلـــوي ، (ت 542هـــ) : الحماســـة الشجرية ، د.ط ، تحقيق : عبـــد المعيـــن الملوحـــي ، دار منشـــورات وزارة الثقافـــة ، دمشـــق ـــ سوريـــة ، 1970م ، ج1 ، ص329 ـــ 330 .

2- الملتاح : اللتح ، بالتحريك : الجوع . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لتح) .

3- الناجية : الناقة السريعة . المصدر السابق ، مادة (نجا) .

4- الوقاح : حافر وقاح : صلب باق على الحجارة . المصدر نفسه ، مادة (وقح) .

5- الرداح : كتيبة رداح : ضخمة . المصدر نفسه ، مادة (ردح) .

6- راح : خمر . المصدر نفسه ، مادة (روح) .

7- مزهر : العود الذي يضرب به . المصدر نفسه ، مادة (زهر) .

وتصف ابنة وثيمة [1] وهي ترثي أباهـا واقعـا من القحْط والـشدة ، تحمرّ فيه الآفاق ، وتمسك السماء عن القطر ، ويكسو الصقيع وجه الأرض فتغبرّ ، ولا ثمةَ مرعـى للماشية ، معبّرة عن صورة من صـور المعانـاة المعيشيّة التي تتفاقم أشدَّ ما يكون علـى الأرامـل والأيتـام ؛ فتجعـل والدها مأواهم الذي يأوون إليه ؛ فيُحسن إليهم بكرمه ، تقول [2] :

واحـمـرّ آفـاق الـسـمـاء ولـم تـقـعْ في الأرض ديـمـهْ

وتـعـذّر الآكـال حـتّـى كـان أحـمـدهـا الهشـيـمـه

لا ثـلـة [3] تـرعـى ولا إبـل ولا بـقـر مـسـيـمـه [4]

ألـفـيـتـه مـأوى الأرامل والـمدفـعـة اليـتيـمه

1- ابنة وثيمة : " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية قالت ترثي أباها " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، ج5 ، ص273 .

2- الجاحـظ ، أبو عثمـان ، عمرو بن بحـر ، (ت 255هـ) : البيـان والتبيـين ، د.ط ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت ، ج1 ، ص183 .

3- ثلة : الضأن الكثيرة . الجاحـظ : البيان والتبيين ، ج1 ، 184 .

4- مسيمة : أي صارت في السوم ، ودخلت فيه ، والسوم : المرعى . المصدر السابق ، ج1 ، ص184 .

ثم تصفه حكيما ؛ يستخدم لسانه ، لا سنانه ، دفعا للخصم ، في موقف لا يقوى عليه إلا البلغاء :

الدافع الخصم الألد إذا تفوضح في الخصومه بلسان لقمان [1] بن عاد وفصل خطبته الحكيمه ألجمتهم بعد التدافع والتجاذب في الحكومه

ويتضح أن الوضع كان صعبا على أبيها ؛ فهناك خصومة يشعلها التجاذب ، غير أن بيانه وفصاحته ألجمتا خصمه الألد ، فكانت له عليه الغلبة .

وترثي بنت بُجير بن عبدالله [2] والدها يوم المرّوت [3] ؛ فتصفه بـــ " النهوض " الذي يكثر النهوض من المِحَن ؛ لجلَده وصبره ، أو المسارعة

1- لقمان بن عاد : صاحب النسور ، تنسبه الشعراء إلى عاد . [وهو غير] لقمان الذي أثنى عليه الله تعالى في كتابه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لقم) .

2- هي ابنة " بجير بن عبدالله بن عامر بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة " . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص347 .

3- يوم المروت : لبني العنبر على بني قشير . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، 179 .

بالنهوض إلى أعالي الأمور،حين تصيب الرزايا غيرَه من الكرام؛ فتقعدهم، تقول [1] :

نهوضا حين تعتمد الرزايا ذوي الأفعال بالعبء الثقيل

وتنفي قبيلتها إن لم تثأرْ لأبيها ، مشخّصة الثأر كائنا حيّا ، ينادي مطالبا بالقصاص :

فما كعب [2] بكعب إن أقامت ولم تثأر بفارسها القتيل

وذحلهم [3] يناديهم مقيما لدى الكدّام [4] طلاب الذُحول .

ومن الطبيعيّ أن يقاسم الإنسان أخاه الإنسان شيئا من الأشياء ، ولكن من غير الطبيعي أن يقاسم الإنسان المنايا ؛ لأنها بلا شكّ حال مختلف ، فلا وجه لمشاركته ، أو مقارنته بالإنسان ؛ فإذا تقاسم مع الإنسان شيئا

1- المرزباني ، أبو عبيدالله ، محمد بن عمران ، (ت384هـ) : أشعار النساء ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت ـ لبنان ، 1415هـ ـ 1995م ، ص64. وانظر: البكري:معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج2 ، ج3 ، ص1118 ـ 1119 .

2- كعب : " هو كعب بن ربيعة بن عامر " . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص347 .

3- ذحلهم : الذحل : الثأر ، وجمعه : أذحال وذحول . يقال : طلب بذحله ، أي : بثأره . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ذحل) .

4- الكدام : " هو يزيد بن أزهر بن عبدالله المازني ، وكان أسر بجيرا " . المرزباني : أشعار النساء ، ص64 .

والكدام : " موضع قبل المروت " . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج2 ، ج3 ، ص1118 ـ 1119 .

صارت إليه بحكم صفاته الخاصة القدرة المطلقة على الربح ، ورغم هذا فقد قاسمته ابنة فَروة بن مسعود [1] أغلى ما تملك تحدّيا لقوة المنايا التي يعشق سلاحُها الكرام ، ويولع بهم ، تقول [2]:

وقالوا : ماجدا منكم قتلنا كذاك الرمح يكلف بالكريم

بعين أباغ [3] قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم

فقولها " خير القسيم " أي : أن المنايا " أخذت بعضا ، وتركت بعضا ،

1- هي ابنة " فروة بن مسعود بن عامر بن عمر بن أبي ربيعة . قتل أبوها وعمها قيس مع المنذر ذي القرنين يوم عين أباغ ، وكان الذي قتل المنذر شمر بن عمرو الحنفي ، وكان مع الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو المنذر بن امرئ القيس ، وأمه ماء السماء النمرية " . التبريزي ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، (ت502هـ) : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1421هـ ـ 2000م ، ج1 ، ص562 ـ 563 .

2- المصدر السابق ، ج1 ، ص562 ـ 563 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج1 ، ج1 ، ص60 . وفي : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : " وقالت امرأة من بني شيبان " . المرزوقي ، أبو علي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، (ت421هـ) ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، 1411هـ ـ 1991م ، مج1 ، ج2 ، ص882 .

3- عين أباغ : كان عندها في الجاهلية يوم بين ملوك غسان وملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة ، قتل فيها المنذر بن امرئ القيس اللخمي . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج1 ، ج1 ، ص60 .

فكان من أخذت خيرا ممن تركت [1] " ، وقد أخذت أباها فروة ، وعمَّها قيسا [2] كليهما .

وتطلب آمنة بنت عُتيبة [3] في يوم خَوَ [4] نعي والدها ، وأمارة ذلك أن تشق له النساء جيوبهن على عادة الجاهلية عندما يموت أحد ، فتقول [5] :

علـــى مثـــل ابـــن ميـــّة فانعياه بشـــقّ نواعـــم البَشَـــر الجيوبـــا

ثم تصفه بالصلابة كالرمح ، لا يدّخر نصيبا لديـــه ؛ لأن الـــذي لا يكون صلبا جلدا مع نفسه تراه يلين عند بذل المال ؛ فيموت تحـــت بـــروق الأطماع ولا يقوى على العطاء منهمكا على كنز ماله وادخاره :

وكـــان أبـــي عتيبـــة سمهريا [6] فـــلا تلـــقـــاه يـــدخـــر النصيبـــا

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ج1 ، ص563 .

2- انظر : المصدر السابق ، (الشرح) ، ج1 ، ص563 .

3- هي " ابنة عتيبة بن الحارث بن شهاب أخـــي بنـــي جعفـــر بن ثعلبـــة بن يربـــوع " . نوادر المخطوطات (أسماء المغتالين) ، ط1 ، تحقيـــق : عبـــد الـــسلام محمـــد هـــارون ، دار الجيـــل ، بيروت ــ لبنان ، 1411هـــ ــ 1991م ، ج1 ، ص252 .

4- يوم خوَ : يوم لبني أسد على بني يربوع . أبو عبيدة : أيام العرب قبـــل الإســـلام م، ج2 ، ص486 .

5- ابـــن عبـــد ربـــه : العقـــد الفريد ، ج5 ، ص250 . وانظر : معجم البلدان ، مج4 ، ج7 ، ص178 . وفي (بلاغات النساء) : " وقالت ابنة عيينة ترثي أباها " ، ص237

6- سمهريا : السمهري : الرمح الصليب العود . ابن منظور : لسان العـــرب ، مـــادة (سمهر) .

وما إن تذكر صفة الجود حتى تقرنها بصفة الشجاعة والثبات في الحرب ، وكأن الصفة الأولى عقلية ، والصفة الأخرى قلبية ، فاحتاج كل منهما للآخر :

ضروبا للكميّ [1] إذا اشمعلّت [2] عوان [3] الحرب لا ورعا [4] هيوبا

وتصوّر رَيْطَة بنت العباس [5] ميدان والدها المرثي فسيحا ؛ يبدأ من " بيشة " ، وينتهي بـ " هضب أشراك " تلميحا إلى سيطرة والدها على هذه المساحة ، رغم ما فيها من أعداء ، أو أنداد ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يتعداه إلى إقامة والدها بالمكان نفسه ، إقامة القوي المتمكن من هزيمة خصومه إن بدا منهم ما يوجب القيام بذلك منه ، أو عن أمان بتسليم هذه المنطقة قيادها إليه ، واستسلامها له ، تقول [6] :

1- الكميّ : الشجاع المتكمي في سلاحه لأنه كمى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة ، والجمع : الكماة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كمي) .

2- اشمعلت: اشمعلت الغارة : شملت وتفرقت وانتشرت المصدر السابق ، مادة(شمعل)

3- عوان : حرب عوان : كان قبلها حرب . المصدر نفسه ، مادة (عون) .

4- ورعا : الورع ، بالتحريك : الجبان . المصدر نفسه ، مادة (ورع) .

5- هي "ريطة بنت العباس الأصم الرعلي ، نزث أباها ، وكانت خثعم قتلته ، فأدرك بثأرها عباس بن مرداس " . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج1 ، ج2 ، ص293 .

6- المصدر السابق ، مج1 ، ج1 ، ص293 .

وكان إذا ما أورد الخيل بيشـــة [1] إلى هضْـــب أشراك [2] أقـــام فألجما

تعني أقام كأنه استراح استراحة المحارب ؛ ليستوفي قوتـــه ؛ فيعـــود ليلجم فرسه للغارة ؛ لتفيء بالغنائم الثقيلة :

ففاءت عشاء بالنهـــاب [3] وكلهـــا أتى قلقـــا تحت الرحالة [4] أهضما [5]

ثم تختتم بتعداد مجال خيله المظفرة ، كما بدأت :

وكانت إذا ما لم تطـــارد بعاقـــل [6] وبالرأس [7] خيلا طاردتهـــا بعيهما [8]

1- بيشـــة : وادٍ من أوديـــة تهامـــة . البكـــري : معجـــم ما استعجم مـــن أسماء الـــبلاد والمواضـــع ، مج1 ، ج1 ، ص293 .

2- هضب أشراك : لم تعرفه المصادر .

3- النهاب : جمع نهب : الغنيمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نهب) .

4- الرحالة : سرج من جلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للركض الشديد . المـــصدر السابق ، مادة (رحل) .

5- أهضما : الهضم ، بالتحريك : انضمام الجنبين ، المصدر نفسه ، مادة (هضم) .

6- عاقل : جبل كان يسكنه الحارث بن آكل المرار . الحموي ياقوت : معجم البلـــدان ، مج3 ، ج6 ، ص286 .

7- الرأس : الرس : واد بنجد . البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضـــع ، مج1 ، ج2 ، ص652 .

8- عيهما : جبل بالغور . المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص987 .

الـفـصـل الـثـانـي

رثـاء الأبـنـاء

يوصف الأبناء بأنهم ثمرات قلوب آبائهم ، فما إن يتمّ الزواج حتى ينتظر الزوجان أولادا ؛ بهم يحفظ النسب ، ويتصل النسل ، وتستمرّ الحياة الإنسانية ، وبفقْد الأولاد يُصاب الآباء في آمالهم التي كانوا يرجُونها أن تتحقق بأبنائهم ؛ فتتلاشى آمالهم ، وتنصدع أفئدتهم إلا من صبرَ منهم معتقدا الحسنى .

" قال رجل لعبيدالله بن أبي بكرة[1] : ما تقول في موت الوالد ؟ قال : مِلك حادث . قال : فموت الزوج ؟ قال : عرس جديد . قال : فموت الأخ ؟ قال : قصّ جناح . قال : فموت الولد ؟ قال : صدْع في الفؤاد لا يُجبر [2] " .

وتعبّر الشاعرة الجاهلية برهافة حسّها عن لوعتها فتصوّر " فداحة المواقف التي تعرضت لها بفقدها للولد الذي كثيرا ما مَنّت النفس في أن

1- هو " عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي ، أبو حاتم ، ولد 114هـ ، تابعي ثقة ، من أهل البصرة ، كان أمير سجستان،وولي قضاء البصرة ،وكان أسود اللون ، وهو ابن صحابي " أبي بكرة " نفيع بن الحارث " الزركلي ، خيرالدين : الأعلام ، ط7 ، دار العلم للملايين ، بيروت ــ لبنان ، 1986م ، ج4 ، ص191 .

2- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ط1 ، شرحه وعلق عليه : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، 1406هـ ــ 1986م ، مج2 ، ج3 ، ص104 .

يكون سندا ، وحصنا لها في النوائب والشدائد [1] " ؛ فيشتدّ عويلها ويتواتر نشيجها ؛ فترتجل أبياتا تبكي بها تلك الثمرة الغالية ؛ إذ لا قدرة لها على حبْس البكاء ؛ لأن حبسه يفتّت كبدها ، أو يقضي عليها . يذكر " أن امرأة مات ولدها ، فأمسكت نفسها عن البكاء صبرا واحتسابا ؛ فخرج الدم من ثديها ؛ وذلك لما ورد عليها من شدة الحزن،مع الامتناع عن البكاء [2] " .

وتحاول الأم الشاعرة وهي ترثي ابنها أن تنفث تلك العاطفة المتأججة في صدرها نتيجة فقدانها ابنها ، مزينة له بأحسن الصور الجمالية التي يمكن أن تتصورها بخيالها ؛ لتجعل منه صورة متكاملة الأبعاد ، آخذة بالأبصار ، رائعة الألوان ؛ فهذه أم عمرو بن عَديّ [3] ، ترثيه ، وقد قتل في وقعة ذي قار [4] ، تقول [1] :

1- محمد إبراهيم حور : رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي ، د.ط ، مكتبة المكتبة ، أبو ظبي ، العين ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ، 1401هـ ـ 1981م ، ص57 .

2- العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت 395هـ) : الصناعتين ، د.ط ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، و محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، 1406هـ ـ 1986م ، ص125 .

3- هي أم عمرو بن عدي بن زيد العبادي الشاعر ، وكان عمرو كاتب كسرى وترجمانه بالعربية ، قتل يوم ذي قار . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص38 و 43 .

4- ذي قار : " ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة ، بينها وبين واسط وحنو ذي قار على ليلة منه ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس،وكانت يوم ولادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقيل : كانت وقعة ذي قار عند منصرف النبي ـ

ويح [2] عمرو بن عدي مـــن رجـــل حـــان يومـــا بعدمـــا قيـــل كمـــل

كـــان لا يعـــقـــل حـــتـــى مـــا إذا جـــاء يـــوم يأكـــل النـــاس عقـــل

أيـــهـــم دلاّك [3] عـــمـــرو للـــردى وقديـــمـــا حـــيّـــن [4] المرء الأجـــل

فعبّرت عن ابنها بلفظ (كمل) أي تناهى في الرجولة وصفاتها كمـــا أرادت له أن يكون ، ولكن سرعان ما يخترم الموت ولدها ؛ لأنـــه كمـــل ؛ فوافاه النقصان ، كالقمر يكون بدراً ثم ينقص ، ثم أنها تلمّح بطرْف خفيّ عن مرحلة من مراحل عمره ، عايشتها أمه لحظة بلحظة ؛ حين (كان لا يعقـــل) في مرحلة الصبا ، ثم شبّ وعقل ، فتزامنت مرحلة عقله بيومٍ نشبت فيـــه الحرب ؛ فأكلته نارُها ، ثم تستسلم الأم للواقع المؤلم ؛ لأنها تعرفه (قديما) أنه واقع لا بدّ منه ، فكل غادٍ إليه لا يرجع ، وإن تعلّل المرء بالآمال :

قـــد تـــنـــظّـــرنـــا لغـــادٍ أوبـــةً كان لو أغنى عـــن المـــرء الأملْ

صلى الله عليه وسلم ــ من وقعة بدر الكبرى ، وكان أول يوم انتصف فيه العـــرب مـــن العجم وبرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم انتصفوا ، وهي من مفاخر بكر بن وائـــل " . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج4 ، ج7 ، ص8 ــ 9 .

1- الأصفهاني ، أبـــو الفـــرج ، علـــي بـــن الحسيـــن ، (ت356هـــ) : الأغانـــي ، ط1 ، تحقيـــق : إحسان عباس ، و إبراهيم السعافين ،و بكـــر عبـــاس ، دار صـــادر ، بيروت ــ لبنان ، 1423هـــ ــ 2002م ، ج24 ، ص44 .

2- ويح : كلمة تقال رحمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ويح) .

3- دلاك : يقال : ما دلك علي أي : ما جرأك علي . المصدر السابق ، مادة (دلل) .

4- حيّن : جعل له حينا . المصدر نفسه ، مادة (حين) .

بـــان منـــه عضـــد عـــن ساعد بـــؤس للدهـــر وبؤســـى للرجل

ويبلغ تأثر تَماضر بنت الشريد [1] يوم الهباءة [2] مبلغا يجعلها في سهاد دائم ، لفقد ابنها الذي تراه زيْنَ الناس جميعا ، تقول [3] :

كـــأن العيـــن خالطهـــا قـــذاهـــا لحـــزن واقـــع أفـــنـــى كـــراهـــا

على ولـــد وزيـــن النـــاس طـــرّا إذا مـــا النـــار لـــم ترَ مَن صلاها

ثم تعلل حزن القبيلة عليه ؛ بأنه كان فتاها ، وهذا ملحظ يقفنا علـــى العصبية القبلية ؛ أي أن الفتى لم يكن ابنا لها وحدَها ، بل كان فتـــىً للقبيلـــة كلها ، فعلى القبيلة أن تشترك في الحزن عليه :

لئـــن حزنـــت بنـــو عبـــس عليه فقـــد فقـــدت بنـــو عبـــس فتاهـــا

ثم تذكر كرمه ، وتحدد الوقت الذي يمتحن فيـــه جـــوهر الكـــريم ، أحقيقي هو أم زائف ؟ وهو وقت هبوب ريح الشمال ، في فـــصل الـــشتاء ، الذي تقِلّ فيه المُؤَن ، وتستفهم منكرةً أن يقوم أحد مقامه وقتذاك :

فمـــن للضيـــف إن هبـــّت شمال مزعزِعـــة يجاوبـــهـــا مـــداهـــا

1- هي " تماضر بنت الشريد ، أم قيس ومالك ابني زهير ، وزوجها زهير ملـــك بنـــي عبس ، لها رثاء قليل في مالك لما قتله حذيفة بن بدر. شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، د.ط ، دار التراث ، بيروت ــ لبنان ، 1388هـــ ــ 1968م ، ص139 .

2- يوم الهباءة : يوم لعبس على ذبيان . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص156 .

3- شـــرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 . وانظر : بـــشير يمـــوت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام،ص63-64 . بديع صقر: شاعرات العرب، 38 .

وتأخذها حرارة الحُنْق على الذين تخلّوا عن نجدة ابنها في حَوْمة الوغى ؛ فتؤنّبهم وتقرّعهم بقولها :

أسيدَكم وحاميَكم تركتم على الغبراء منهدما رحاها

ثم تدعو على قاتل ابنها ؛ فتقول :

حذيفة لا سقيتَ من الغوادي ولا روّتْك هاطلةٌ نداها

كما أفجعتني بفتى كريم إذا وزنت بنو عبس وفاها

وتختم بذكر الدمع والبكاء ، كما بدأت أبياتها ؛ لتدلنا على أن حزنها باق متواصل ، ودمعها سيال رقراق ، وهو ما تؤكده بألفاظها (أبدا ، دائما ، هطول) في بيتها الأخير :

فدمعي بعده أبدا هطول وعيني دائم أبدا بكاها .

ويتكرر ذكر ريح الشمال الباردة الشديدة في رثاء أم معدان [1] لابنها أيضا ؛ للدلالة على الحاجة في إبّانها إلى الطعام ؛ فتنادي ابنها ؛ مستفهمة ومنكرة على غيره أن يقوم بما قام به من إكرام للحيّ ؛ تقول [2] :

معدان ، من للحي إذ هبت شآمية [1] فجورا

1- هي " أم معدان الشيبانية من بني أسد " . المرزباني : أشعار النساء ، ص127 .

1- المصدر السابق ، ص127 .

عسراء من قبل الشمال تكاد تنتزع الكسورا [2]

وتبادر القوم القداح [3] وأغلت السنة [4] الجزورا [5]

فبينت الشاعرة اسم الريح (شآمية) ، ثم حددت جهة هبوبها (من قبل الشمال) ، كما قدرت قوتها (تكاد تنتزع الكسورا) ، ثم تنعت تأثيرها على الناس ، وبينما الناس على تلك الحال التي ينتظرون فيها سخاء ابنها (معدان) ، تقتله قبيلة بهراء ! ، ولم يكن قتلها إياه قصاصا ، أو ثأرا فتكسون لهم حجة يحتجون بها ، بل كان غدرا قبيحا ، مقابل وفاء جميل :

غدرت به بهراء [6] ولم يكن ابني غدورا [7]

ويعظم قتل تأبّطَ شرّا [1] في عين أمه [2] ؛ لرفعة منزلته عندها ، ولكرمه الذي يكون منه أكثرما يكون في الشتاء الذي لا مطرَ فيه ، تقول [3] :

2- شآمية : الشآم ، والنسب إليها شاميّ ، وشآم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شأم) .

3- الكسورا : الكَسر والكِسر : الشقة السفلى من الخباء . المصدر السابق ، مادة (كسر) .

4- القداح:القدح من الآنية،بالتحريك:واحد الأقداح التي للشرب ، ... ويأكل فيه . المصدر نفسه ، مادة (قدح) .

5- السنة : الجدب والقحط . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (سنو) .

6- الجزورا : الناقة المجزورة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جزر) .

7- بهراء : قبيلة . المصدر السابق ، مادة (بهر) .

8- البيت منكسر .

قتيـــل مـــا قتيـــل بنـــي قريـــم [4] إذا ضنـــتْ جُمـــادى [5] بالقِطـــار [6]

وهو فتى القبيلة جميعا ، لا ندّ له فيها ؛ فلذا كبر عليهـــا قتلـــه ؛ لأن في قتله ضعفا لقوة القبيلة ، ثم غادره أصحابه وتركوه جارا لجبل (نُمار) ؛ فاختارت لـــه رفعة القبر ، دالة على رفعة قدره ، وسموّ منزلته ، وإن صار إلى الموت :

فتـــى فَهْـــمٍ [7] جميعـــا ، غـــادروه مقيما بالحُريضـــة [8] من نُمـــار [9] .

1- هو " ثابت بن جابر بن سفيان بن عميل بن عمير بن عدي بن كعب بن حزن . وقيل : حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار " . الأصـــفهاني : الأغاني ، ج21 ، ص94 .

2- " يقال لها أميمة ، يقال : إنها من بني القين بطن من فهم " . المصدر السابق ، ج21 ، 94 .

3- المصدر نفسه ، ج21 ، ص124 . وانظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص846 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص142 .

4- قريم : اسم حيّ . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قرم) .

5- جمادى : الشتاء عند العرب جمادى ؛ لجمود الماء فيه . المصدر الـسابق ، مـــادة (جمد) .

6- القطار : جمع قطرٌ وهو المطر . المصدر نفسه ، مادة (قطر) .

7- فهم : قبيلة ، أبو حي ، وهو فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان . المصدر نفسه ، مادة (فهم) .

8- بالحريضة: موضع في بلاد هذيل ، فيه قتل تأبط شرا. الحموي ياقوت: معجـــم البلـــدان ، مج2 ، ج3 ، ص142 .

9- نمار : جبل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نمر) .

ويتعاظم المصاب على الأم ، عندما تفتقد ابنها الكـريم ، المحـامي عنها ، وعن قومها ؛ فتدعو على نفسها بالهلاك ؛ تقول في رَجَزٍ لها [1] :

ويـلُ امِّ طِرْفٍ [2] غادروا برَخْمان [3] بثابـت بن جابـر بـن سفيان [4]

يجدّل [5] القِرن [6] ويروي النِّدمان ذو مأقـطٍ [7] يحمي وراء الإخوان

ويظهـر أنها تذكر هنـا مكانـا آخـر هو (رَخْمَان) غير المكان الذي ذكرته سابقا (الحُرَيْضَة) ؛ مما يقودنا إلى عدم معرفتها الدقيقة بقبـر ابنها الذي لم تقف عليه مودّعة له ، أو أن البيتين الأخيرين لأخـت تـأبط شرا كما يروي البكري ، وقد وقفتْ على مكان مقتله ، كما يظهر من رواية البيت الأول بدليل قولها : (غادرته) .

1- الأصفهاني :الأغاني ، ج21 ، ص124 . وانظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص846 . الحموي ياقوت: معجم البلدان ،مج2 ، ج4 ، ص398 . شرح ديـوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص122 .

2- طرف : الكريم من الفتيان والرجال . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طرف) .

3- رخمان : موضع في ديار هذيل ، وهو الموضع الذي قتل فيه تأبط شرا . البكـري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، مج1 ، ج2 ، ص646 .

4- ينسب البيت الأول لأخت تأبط شرا هكذا :

فثابت بن جابر بن سفيان نعم الفتى غادرته برخمان .

المصدر السابق ، مج1 ، ج2 ، ص646 .

5- يجدل : الجدل : الصرع . ابن منظور: لسان العرب ، مادة (جدل) .

6- القرن : الكفء ، والنظير في الشجاعة والحرب . المصدر السابق ، مادة (قرن) .

7- مأقط : المضيق في الحرب ، والموضع الذي يقتتلون فيه . المصدر نفسه ، مـادة(أقط) .

وترفع أم بُسْطام [1] ابنها إلى صفحة السماء ، وهي ترثيه يوم الشقيقة [2] ؛ فتجعل منه هلالا بين النجوم اللامعة ؛ لزينه وجماله واصفة إيّاه بأجمل صفات الفارس ؛ فهو الذي ضُرِبَ به المثل فقيل [3] : " أفرس من بسطام" وهو السيد الكريم الذي ما إن ذهب حتى " ذهبت الشجاعة بذهابه ، وأصيب كلّ من حولَه بخطب كبير لفقده ، وهو مفرج الأسرى ، وحامي الحمى ، وراعي أبناء الأرامل ، وفارس حومات الوغى [4] " ؛ فترسم له بهذا في رثائها لوحات فنية جميلة ، نتناول في الأولى صفاته ومكانته الاجتماعية بين قومه ، تقول [5] :

ليبكِ ابنَ ذي الجدين بكرُ بنُ وائلٍ فقد بان منها زينُها وجمالُها

إذا ما غدا فيهم غدوا و كأنهم نجوم سماء بينهن هلالها

1- هي " ليلى بنت الأحوص ، أخت الفرافصة الكلبي ، أم بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبدالله بن ذي الجدين . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص401 .

2- يوم الشقيقة : يوم نقى الحسن ، وهو يسوم الشقيقة لبني ضبة على بني شيبان . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص202 .

3- الميداني ، أبو الفضل ، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، (ت518هـ) : مجمع الأمثال ، د.ط ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ــ لبنان ، 1413هـ ــ 1992م ، ج2 ، ص87 .

4- رغداء ماريني : شواعر الجاهلية ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ــ سورية ، 1422هـ ــ 2002م ، ص112 .

5- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص616 ــ 617 .

فللـــه عينا مـــن رأى مثلـــه فتى إذا الخيل يـــوم الروْع هبّ نزالها

عزيـــز المكـــرِّ لا يـــهـــدُّ جناحـــه وليـــث إذا الفتيـــان زلّـــت نعالهـــا

وحمّال أثقـــال و عائـــذ مِحْجـــر [1] تـــحـــلّ إليـــه كـــلّ ذاك رحالـــهـــا

مفرّج حومات الخطوب ومدرك الحروب إذا صالـــت وعـــزّ صـــيـــالهـــا

وترسم في اللوحة الثانية الأثر النفسيّ الذي يتركه في شريحة الباكين عليه وهي ثلاث فئات : الأولى ؛ الأسرى ، وهـــم نوعـــان ؛ أســـرى طالما فكّهم من أسارهم ــ قبل حدث مقتله ــ وأسرى لم يجدوا من يفكهم ــ بعد حدث مقتله ــ وفئة ثانية هي فئة فرسان الوغى الذين افتقدوا قائـــدهم ، والفئة الأخيرة هي فئة الأرامل اللواتي يسبب مقتل المرثـــي ضـــياعا لهـــن ولأولادهن ، تقول :

ويبكيـــك عـــان لم يجد من يفكـــه ويبكيك فرسان الوغـــى ورجالهـــا

وتبكيك أسرى طالمـــا قد فككتهـــم وأرملة ضاعـــت وضـــاع عيالهـــا

أما اللوحة التي تختتم بها مرثيتها فهي توضّح دائرة المـــصاب فـــي قبيلة شَيبانَ والحيِّ يَشْكُر وتمتدّ حتى تشمل طيور السماء ، التي اعتـــادت أن

1- محجر : بفتح الجيم ، الحرمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حجر) .

تصيب بسبب ظفَرِه في الحروب ما تفتات عليه ، كنايـــة عـــن مـــصاب الأمّ الأليم الذي عمّ ما حولَها ، وطمّ على ما فوقها ، تقول :

أصيبـــت به شيبان والحيّ يشكر وطيـــر يُرى أرسالها [1] و حبالها

وإذا كـــان غالب الرثاء يجري لرثاء الواحد ، ويجري فـــي جـــدول العاطفة المشبوبة لفقده ، فتتهالك قوى الأمّ ، فلا تقوى على التماسك ويأتيهـــا الجزَع من كلّ مكان ، وتتيقن أن أمرا مهولا قد نزل عليها بقارعة جعلتهـــا تجثم على الأرض لشدة مصابها ، فكيف يكون جزع من فقدت ابنيها معا في وقت واحد ، وموقف واحد ، فلا شكّ أن الحدث أشدّ ألما ، وأبلغ تأثيرا على نفس الوالدة الشاعرة ؛ كحال عَمْرة الخثعمية [2] ، التي فقدت ولـــديها معـــا ؛ فانهارت ، فرأى الناس شدة جزعها ، وتألمت وشكت وتمنـــت أن تفـــديهما بنفسها وبنفس أبيهما ، ثم نظرت في أمرها ، فإذا هـــي عجـــوز ضـــعيفة ،

1- أرسالها : جماعة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (رسل) .

2- هي " عمرة الخثعمية ، من بني تيم اللات ، أو مـــن بنـــي تـــيم الله بـــن ثعلبـــة " . المرزباني : أشعار النساء ، ص114 . وفي أعلام النـــساء : " شـــاعرة مـــن شـــواعر الجاهلية" . ج3 ، ص350 .

حرَمها الدهر أهلها ، فعندذاك لم تر لها معنى في الإقامة فـآثرت الرحيـل والتعلق بالإله ، تقول [1] :

لقـد زعمـوا أني جزعت عليهما وهـل جـزع إن قلت وابأباهما [2]

بنيـا عجـوز حـرّم الدهر أهلها فمـا إن لهـا إلا الإله سواهمـا

ثم تجعلهما مشتركيْن معا في كلّ الصفات ، لا ينفرد أحدهما بـصفة دون الآخر ولا يزيد أحدهما عن الآخر بشيء ، أو ينقص عنه بـشيء ؛ إذ جعلتهما في كفتين ، فوزنتهما بميزان الأمومـة العادلـة ، فكانـت النتيجـة التساوي في القيمة ، فلم ترجّح كفّة أحدهما على كفّة الآخر :

هما أخوا في الحرب من لا أخـا له إذا خـاف يومـا نبـوة فدعاهما

همـا يلبسـان المجد أحسن لبسة شحيحـان ما اسطاعا عليه كلاهما

شهابان منـا أوقـدا ثـم أخمـدا وكان سنـاً للمدلجيـن [1] سناهما

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج2 ، ج3 ، ص1082 ــ 1087 . وانظـر : التبريزي : شـرح ديوان الحماسة، ج1، ص670ــ 672 . المرزباني : أشعار النـساء ، ص114 ــ 115 . البصري : الحماسة البصرية ، ج2 ، ص665 ــ 666 . وفي لسان العرب (أبي) نسبت القصيدة أيضا لدرنى بنت سيار بن ضبرة ترثي أخويها .

2- وا بأباهما : " وا " تألم وتشكّ ، وهي حرف للندبة . و " بأباهما " : أرادت بأبي هما ، ففر من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ألفا . على ذلك قولهم : باداة وناصاة ، في بادية وناصية . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج2 ، ج3 ، ص1083 .

إذا نزلا الأرض المخوف بها الردى يخفّض من جأشيهما منصلاهمـــا

إذا استغنيـــا حبّ الجميع إليهمـــا ولم ينأ من نفع الصديق غناهمـــا

إذا افتقرا لم يجثما خشية الـــردى ولم يخش رزءا منهما مولياهمـــا

تظهر هنا ثنائية المناقب ،مرسومة برؤية الـشاعرة لابنيهـــا معـــا ، بألوان مشتركة ، تعطي صورتين متحركتين حركة واحدة ، باستخدام ألـف التثنية ؛ فهما أخوا من لا أخا له ، وهما يلبسان المجد ، وهما شـــهابان ، إذا نزلا ، وإذا استغنيا ، وإذا افتقرا .

ثم تنتقل إلى الحديث عن الأثر الاجتماعي الذي يتركه موت ولـــديها وهو عنوس زوجة كلّ منهما ، " وكأنهما قد تزوجا بامرأتين ولم يحوّلاهما [2] " ، وفقدان الجندي المحامي عن قومه :

لقد ساءني أن عنّست زوجتاهمـــا وأن عُرّيت بعد الوجى [3] فرساهما

1- المدلجين : تريد نارهما الموقدة للضيفان وللطراق بالليل . المصدر السابق ، مـــج2 ، ج3 ، ص1085 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

3- الوجى : الحفى . المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

ثم تختتم قصيدتها مصوّرة ولديها بالسيدين العظيمين وأنهما كانا في ذروة المجد ، وسُدّة الرياسة ، وأنهما احتلّا فيها المكانة العالية ، فهما عرشان تستظلّ بهما هي وغيرها ، وبموتهما فقد تهاوى العرشان ، وسقط المجد ، وانحلّ العقد ، وهما من قوم خيار ، وهم خيار أولئك القوم ، وسقوط الأخيار سوف يودي بالعرش والمجد والسؤدد ، " وهذا مثل ضربته لعزّ ذويهما [1] " :

ولن يلبث العرشان يستلّ منهما خيار الأواسي [2] أن يميل غماهما [3]

وتستفهم أم قيس الضَّبية [4] متوجّعة من فقْد ابنها ، مستفظعة مما وقع عليه من موت ، كاشفة عن الفراغ الذي تركه المرثي ، فقد كان الحكيمَ الذي يفصل بين الخصوم الجامحين عن الصواب ، والفارس الذي يركب الخيل المعدودة لمواقف الشدة ، ثم تصفه بالبيان في مَجْمَع مشهود من أشراف الناس ، يتكلم عن نفسه ، وينوب فيه عن الغائبين

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

2- الأواسي : الأساطين . المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

3- غماهما : سقف البيت . المصدر نفسه ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

4- لم تذكر لها المصادر ترجمة . وفي (شاعرات العرب) ، ص131 ، عدها بشير يموت في القسم الجاهلي . وأرجح أنها جاهلية لأسلوبها ، ولكون أبياتها جاءت مقطوعة في أربعة أبيات شأن أكثر شعر الشاعرات الجاهليات .

بلسان مبيـــن ، وقلب ثابت ، " محافظة على الشرف ، والاحتماء ، من عـــار الهضيمة والعنت [1] " [2] ، تقول [3] :

من للخصوم إذا جدّ الضجاج [4] بهم بعد ابن سعـــد ومن للضمّر القُود

ومشهـــد قـــد كفيـــتَ الغائبين بـــه في مجْمع من نواصي [5] الناس مشهود

فرجـــتـــه بلســـان غيـــر ملتبـــس عنـــد الحفـــاظ وقلـــب غير مزؤود [6]

وترثي أم السليك [7] ابنها ؛ فتعبر عن حركته في الطواف طلبا للنجاة من الهلاك ، فإذا به يصاب من حيث أمن ، وتتمنى أن تعلم ســـبب قتلـــه ، معبرة عن قلقها واضطرابها بأسلوب الاستفهام ، فتقول [1] :

1- العنت : الجور والإثم والأذى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنت) .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، مج2 ، ج3 ، ص1060 .

3- المصـــدر السابـــق ، مـــج2 ، ج3 ، ص1059 ــ 1060 . وانظر : شرح ديـــوان الحماسة للتبريزي ، ج1 ، ص657 . ابـــن طيفـــور : بلاغـــات النـــساء ، ص221 ــ 222 . لسان العرب (نصا) ، تنسب لأم قيس الضبية .

4- الضجاج : الصياح . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ضجج) .

5- نواصي الناس : أشرافهم ، والمقدمين منهم . المرزوقي : شرح ديـــوان الحماســـة ، مج2 ، ج3 ، ص1060 .

6- مزؤود : الزُّؤد : الذعر . المرزوقي : شـــرح ديـــوان الحماســـة ، مـــج2 ، ج3 ، ص1060 .

7- " السليك بن عمرو ، وقيل : بن عمير بن يثربي ، أحد بني مقاعس ، وهو الحـــارث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم . والسلكة : أمه ، وهي أمة سوداء " الأصفهاني : الأغاني ، ج20 ، ص240 .

طـــاف يـبـغـي نـجـــوة [2] مـــــن هـــلاك فـهـلـــك

لـيـت شـعـــري ضـلـــة [3] أي شـــيء قـــتـــلـــك ؟

أمـريـــض لـــم تـعـــــد ؟ أم عـــدو خـــتـــلـــك [4] ؟

أم تـــولـــى بـــــك مـــــا غـــال في الـدهـر السـلـك [5]

تستفهم على سجية أغلب الأمهات ، إذا غاب عنهن أولادهن ؛ فيدب في نفوسهن الخوف ، ويبدأن بالتساؤل المكـرور ، وعـرض الاحتمـالات والتوقعات التي يمكن أن تعترض لأولادهن ،ثم تجزع جزعا شديدا ، متوقعة لابنها أسوأ الاحتمالات ، حداها إلى ذلك معرفتها بطبيعة الواقع الذي يعيـشه

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ج1 ، ص579 ــ 581 . وينسبها لأم تأبط شـرا ولأم السليك ، ويرجح أنها لأم السليك ؛ لخبر طويل ساقه في ج1 ، ص581 .

وهي لأم السليك في : لباب الآداب ، ص183 . ونشوة الطرب ، ج1 ، ص437 ــ 438 . وهي لأم تأبط شرا في: الصاهل والشاحـج ، ص572 ــ 573 . وهي لامـرأة فـي : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، مج1 ، ج2 ، ص914 ــ 918 . وهي لأعرابي يرثي أخاه في : العقد الفريد ، ج3 ، ص427 . وهي لبعض الشعراء في : عيـون الأخبـار ، مج2 ، ج3 ، ص74 ــ 75 .

2- نجوة : النجوة والنجاة : ما ارتفع من الأرض . ابن منظور : لسان العرب ، مـادة (نجا) .

3- ضلة : الغيبوبة في خير أو شر . المصدر السابق ، مادة (ضلل) .

4- ختلك : الختل : تخادع عن غفلة . المصدر نفسه ، مادة (ختل) .

5- السلك : فرخ القطا ، وقيل : فرخ الحجل . المصدر نفسه ، مادة (سلك) .

ابنها وحدس الأم وشعورها ؛ فرجحت أن تكون المنايا هي التي رصدت ابنها في طريقه ، ثم تصل الأم إلى ذروة اليأس ؛ فتنهار مقرّة أن ابنها ليس لها ؛ لعجزها عن دفع المنايا عنه :

و المنايا رصد للفتى حيث سلك

أي شيء حسن لفتى لم يك لك

ثم تصل إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ الأسباب صغيرة أو كبيرة ستكون قاتلة إذا بلغ أجل الإنسان منتهاه :

كلّ شيء قاتل حين تلقى أجلك

طالما قد نلت في غير كدٍّ أملك

ثم تستذكر العلاقة الحميمة المتبادلة التي كانت بينها وبينه ، حين كانت تسأل والابن يجيب في جوّ عاطفيّ ينعم بالمباسطة الكلاميّة ، غير أن أمرا عظيما هذه المرّة شغل الابن عمّا كان عادةً بين الأم وابنها ، فما ترى من سبيل إلاّ أنْ تعزّي نفسها :

إن أمرا فادحا عن جوابي شغلك

سأعزّي النفس إذ لم تجب من سألك

ولكن هيهات الصبر لقلب الوالدة ، ولو إلى ساعة فهي لا تملك ذلك منها ، بل تتمنى أن يكون الموت قد أخذها مكان ابنها :

ليت قلبي ساعة صبرَه عنك مَلَك

ليت نفسي قُدّمتْ للمنايا بَدَلَك .

وتكشف أم قِرْفة [1] في رثائها ابنها عن أنفتها من قبول الدِّية ؛ لأن عزتها تأبى لها ذلك ؛ فهي التي ضُرب بها المثل ، فقيل [2] : " أعز من أم قرفة " ، وتخاطب حذيفة زوجها الذي همّ بأخذ الدية ، والرغبة عن الثأر لابنها ، داعية عليه ، ومعيِّرة له ، تقول [3] :

حذيفة لا سلمت من الأعادي ولا وقيت شرّ النائبات

1- " هي امرأة من بني فزارة ، وكانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفا ، لخمسين رجلا كلهم لها محرم " . العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت 395هـ) : جمهرة الأمثال ، ط2 ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبدالمجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت ، ج2 ، ص66 . وانظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج2 ، ص45 .

2- العسكري : جمهرة الأمثال ، ج2 ، ص66 . وانظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج2 ، ص45 .

3- بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ط1 ، تحقيق : عبدالقادر محمد مايو ، دار القلم العربي ، حلب ـ سورية ، 1419هـ ـ 1998م ، ص62 . وانظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج4 ، ص56 ـ 57 . عبدالبديع صقر : شاعرات العرب ، ص301 .

أيقتـل قرفـةً قـيـسٌ فترضـى بـأنـعـام ونـوق سـارحـات

أما تخـشـى إذا قـال الأعـادي حذيفـة قلـبـه قـلـب البنـات

ثم تجعل حذيفة بين خيارين ؛ فإما أن يأخذ بثأرها من قاتل ابنهـا ، وإما أن يتركها في غمرة أحزانها ، تخوض فيها راجية أن يعاجلها الموت ، فذاك أحبّ إليها من العيش بجانب زوج جبان :

فـخـذ ثـأرًا بأطـراف العـوالي وبالبيـض الحـداد المرهـفـات

وإلا خلّـنـي أبـكـي نـهـاري وليلـي بالدمـوع الـجـاريـات

فـذاك أحـبّ مـن بعـل جـبـان تـكـون حيـاتـه أردا الحـيـاة

ثم تذكر طير الأراك والحمائم ، وكأنها تطلب منهمـا أن يقاسـماها الحزن على ابنها ، غير أنها تؤكد أن حزنها أعمق من حزنهما وإن شاركاها ذلك :

تـرى طيـر الأراك ينـوح مثلي على أعلى الغصـون المائـلات

وهـل تجـد [1] الحمائم مثل وجدي إذا رُميـتْ بسهـمٍ مِـن شتات

1- تجد : وجد الرجل في الحزن وجدا: حزن . ابن منظور: لسان العرب ، مادة(وجد)

الفصل الثالث

رثاء الإخوان

يقــول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيَّه موسى ــ عليه الــسلام ــ [1] :

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) ، أي " سنقوّيك به ونُعينك [2] " ؛ فالأخ مَضِنَّة القــوة ، ومصدر العون يتوقّع منه إخوانه مقاسمتهم كلّ ما ينوبُهم مــن همــوم ، أو يطرقهم من بلاء ، كما قاسمهم في دمائهم نسباً ، وفي صباهم رعاية وتربية ومعيشة ، حتى في ذكريات الصِّبا ، ومدارج الشباب ؛ فتتحقق القوة ، وتتأكّد العزيمة ، ويصدُق التحدّي أمام المِحن والعوادي ، وبمــوت الأخ ؛ يــضعف الصف ، وتخور العزيمة ؛ لهذا تتعالى صرخات الشاعرة الجاهليــة ، وهــي ترثي أخاها بأصوات متواترة ، وآهات متوالية ، فها هــي رائِطَــة [3] بنــت شَيْظَم تتحسّر على مقتل أخويها السيدين المحاميين عن الأعراض ، وتحــزن

1- سورة القصص ، الآية 35 .

2- الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت538 هــ) : الكشــاف ، د.ط ، دار الفكر ، دمشق ــ سورية ، د.ت ، ج3 ، ص176 .

3- لم أعثر لها على ترجمة ، وأرجح أن تكون جاهلية بسبب أن أسلوبها يــشبه أســلوب شعر النساء الجاهليات ، وتتفق مقطوعتها مع جلّ ما أُثر من شعر النساء الجاهليات . ولا يعرف عن الشاعرة شيء سوى ما ذكره صاحب كتاب المنازل والــديار عــن مناســبة القصيدة ؛ " عن خِداش بن فراس النميري ، قال : أغارت علينا بنو جُشَم بن بكر بظهــر البِشْر ، فأصابوا منا أخوين فارسين سيدين ، يقال لأحدهما : مسعود ، وللآخر حاتم ، ابنا شيظــم ، وكانت لهما أخــت سيدة بَــرْزَة ، يقال لها : رائــطة بنت شيــظم ، فبكتهما ، ورثتهــما طويلا " . ابن منقــذ ، (ت 584 هـــ) : المنـــازل والديـــار ، ط2 ، تحقيــق : مصطفــى حجــازي ، دار سعــاد الصبــاح ، القاهــرة ــ مــصر ، 1412 هـ ــ 1992م ، ص448 .

على فراق كلّ ما عهدته منهمـــا ؛ من مكارم أخلاق ، ونجْدة وبأس ، وحِذْق ورباطة جأش ، تقول [1] :

لهفـــي على الأخويـــنِ كالأسديـــــنِ مسعـــودٍ وحـــــاتـــــمْ

السيديـــــنِ المانعيـــنِ الذائديـــــنِ عـــنِ الـــمـــــحـــــارمْ

الفائقيـــــنِ الرائقيـــنِ السابقيـــــنِ إلى الـــمـــــكـــــارمْ

الضاربيـــنِ جماجـــمَ الأبـــطـــــالِ بالبـــيـــضِ الـــصـــوارمْ

والطاعنيـــنِ بكـــــلّ مـــارنـــــةٍ وقـــاصـــمـــةٍ وقـــاصـــمْ

حـــدَقَ الفـــوارسِ بالأســـنـــــةِ والقلوب لدى الغلاصمْ [2]

ويذكرنا قولها " والقلوب لدى الغلاصم " بما نزل به القرآن العظيم فـــي قوله تعالى [3] : ((... وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ...)) .

ثم تصل إلى بيان خسارتها الفادحة ؛ فتشبّه أخويها بيديها ؛ رمـــزي القوة والبطش ، فيصيبها الشلل إصابة كاملة ، تشمل الساعدين والمعـــصمين معا ، ثم تصوّر حالها أكثر ضعفا ؛ فتشبّه نفسها بالطير المقصّص ريشُه :

1- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 ــ 449 .

2- الغلاصم : الغلصمة : رأس الحلقوم ، والجميع : الغلاصـــم . الخليـــل الفراهيـــدي : العين ، مادة (غلصم) .

3- سورة الأحزاب ، الآية 10 .

كـــانـــا يـــديّ فـــشـــلّـــتـــا بالساعديـــــن وبالمعاصـــــــمْ

فبقيـــتُ كالـــطـــيـــرِ المقـــصّـــــص ريـــشُـــهُ واهـــــي الـــقـــــوادمْ

وناهيك بكلمة " فبقيت " ؛ تعبيرا عن الانتقال من حالة عابرة إلـــى حالة باقية ملازمة للشاعرة ، تعاني فيها نتائج فقْد أخويها :

لا أستـــطـــيـــــعُ ، ولا أطـــيـــــقُ أردُّ عنـــي كـــــفَّ ظـــالـــــمْ

مـــعْ كـــلِّ رنَّـــةِ مَـــأْتَـــمٍ لـــي مأْتـــمٌ وعلـــيَّ ماتـــمْ

فـــالـــيـــومَ أخـــضـــعُ لـــلـــذلـــيـــلِ وللمحـــاربِ والمســـالـــمْ

فلا ناصر لها من ظالمها ، لها مأتم دائم الحزن ، وعليهـــا واجـــب القيام به ، ثم عليهـــا أن تكـــون خاضعـــة مسالمـــة ؛ تحاشيـــا للشرّ ، فقـــد بان عنها العضد ، وعزّ عليها السند ، اللذان لا تجامل أحدا أراد بها ســـوءا في وجودهما .

ونستقري من أبيات صَفيَّة [1] الباهليَّة راثية أخاها وصفا لواقع الأخوة داخل الأسرة ، وتأثير موت أحدهم على الأخت الراثية ، وجميع أهل البيـــت

1- في المصادر التي سيتبع ذكرها في توثيق الأبيات لم تزد على اسمها ؛ صفية الباهلية ، وهي " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " عند عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج2 ، ص337 .

أو العشيرة ؛ فتشبّه الشاعرة ذلك الحال بغصنين نبتا وشبّا من شجرة واحدة ، حتى جاء موعد نضج الثمار ، فاعترض الموت أحدهما ، فحال بينه وبين ما يُرجى وينتظر منه ؛ تقول [1] :

كنا كغصنينِ في جُرثُومةٍ [2] سمَوا حيناً بأحسنَ ما تسمُو له الشجرُ

حتّى إذا قِيلَ قد طالتْ فروعُهما وطابَ قِنواهما واستُنْظِرَ الثمرُ

أَخْنى[3] على واحدي ريْبُ الزمانِ ولا يُبقي الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

يحتمل أن يكون أخوها المتوفّى توأما ، أو أخا شقيقا لها ، ليس لها أخ سواه كما يُفهم من قولها " أخنى على واحدي " ؛ ممّا يضاعف عليها الحسرة ، ويزيد عليها الغُمّة ، كما يُحتمل أن يكون المتوفى آخرَ مَن كان لها من عائلتها ، وبوفاته أمست وحيدة منبتّة عن الأهل .

1- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج2 ، ج3 ، ص75 . وانظر : العسكري : المصون في الأدب ، ص153 . وله أيضا : ديوان المعاني ، ص17 . المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج1 ، ج2 ، ص948 ــ 949 . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج2 ، ص601 ــ 602 . البصري : الحماسة البصرية ، ج2 ، ص667 . الأندلسي : نشوة الطرب ، ج2 ، ص586 . ينسب البيت الأخير للخنساء : ديوانها ، ص74 . والأبيات لطيبة الباهلية عند البحتري : الحماسة ، ص273 . وهي لأعرابية ترثي زوجها عند ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج3 ، ص277 .

2- جرثومة : الأصل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرثم) .

3- أخنى : أخنى عليه الدهر إذا مال عليه وأهلكه . المصدر السابق ، مادة (خنا) .

كان ذلك تأثير موت أخيها على العائلة . فمـــا تـــأثير موتـــه علـــى العشيرة ؟ تأثير ذلك كتأثير غياب القمر ليلةَ الحاجة الملحّة إليه ، كنايةً عـــن تفرُّده في جلال قدره ، ورفيع منزلته بين قومه ، وحـــاجتهم الخاصّـــة إليـــه وحدَه في عظائم الأمور :

كنـــا كأنجـــمِ ليـــلٍ وسطَنا قمـــرٌ يجلو الدُّجَى فهوى من بينِنا القمـــرُ

وتؤثر الشاعرة في مرثيتها أن تقدم لنا صورة مرثيها في حلة موشاة بالتشبيهات والرمزية ، نازعة عن الصورة التقليدية التي تتخـــذ مـــن تعـــداد المناقب سمتا مباشرا في رثاء الميت ؛ لكنها ها هنا لم تنـــبس ببنـــت شـــفة كالسيد والبطل ، والكريم والشجـــاع ؛ بل شبهته بالغصن تـــارة ، وبالقمـــر تـــارة أخـــرى ، ورمزت إلى سمـــــوه بالـــشجـــر ، وعطائـــــه بعـــــذق النخلـــة ، وهـــذا من الكلام البليغ الجامع لجميل المعاني .

والأمرَ نفسَه تفعل العوراء [1] بنت سُبيع في رثاء أخيها ؛ عبـــد الله ؛ تقول [1] :

1- في المصادر التـــي سيتبـــع ذكرهـــا في توثيـــق الأبيـــات لم تزد علـــى اســـمها ؛ العوراء بنت سبيع ، وهـــي " شاعـــرة من شواعر العرب في الجاهلية " عند عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص285 . عبد مهنأ : معجم النساء الشاعرات ، ص197 .

أبـكـي لـعـبـدِ الـلّـهِ إذْ حُشّتْ [2] قبيل الصبح نارُهْ

طـيّـان [3] طـاوي الكشْـح [4] لا يُرخـي لـمُـظـلـمـةٍ [5] إزارُهْ

يـعـصـي الـبـخـيـلَ إذا أرا د المـجـدَ مخلـوعـا عِـذاره [6]

وإذا نظـر إلى هذه الأبيات نظـرة معجمية بحتـة ، فإنها ستقدم لنـا صـورة هزيلة للمرثي ؛ فنراه شخصا جائعا ضامـرا حريصا على ثوبـه ، خالعا ربقـة الطاعة ، وهذا ما لا يتفق مع المقام تماما ، ولكـن إذا أمعـن النظر في البنية العميقة لدلالة ألفاظ هذه الأبيات قُضيَتْ اللبانة منها على نحْو واضح ؛ فعلمنا أن المرثي هنا هو بطل هذا الموقف ، ولا يليـق بـه إلا أن تفسّر الأبيات بما يقترن بها من معـانٍ ببطولتـه ؛ فقولهـا : " حُـشّـتْ

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مـج2 ، ج3 ، ص1105 ــ 1106 . وانظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص685 .

2- حشت : " ضم ما تفرق من الحطب إليها وأوقدت " . المرزوقـي : شـرح ديـوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1106 .

3- طيان : الجائع . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج2 ، ص685 .

4- طاوي الكشح : أي مضمر ؛ ليس بضخم الجنبين . المصدر السابق ، ج2 ، ص685

5- مظلمة : المرأة التي أظلم عليها الليل . المصدر نفسه ، ج2 ، ص685 .

6- عـذاره : عذار الرجـل : شعـره النابت في موضع العذار . يقـال : مـا أحـسن عذاره أي خط لحيته ، ومنه قولهم : خلع عذاره أي خرج عن الطاعة وانهمك في الغي . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عذر) .

قُبيـــل الصبـــحِ نارُهْ " ، أي " أنه قتل قبيل الصبح [1] " ، وعرفنا أنهـــا تريـــد بقولها : " طيان طاوي الكشح " أن مرثيها " يمضي في الأمـــور لوجهـــه لا يعرج على شيء ولا ينثنـــي [2] " ؛ أي أنه ذو عزمـــة وتصميم ، لا يتـــردّد إذا أقبـــل على أمرٍ من الأمور ، أما قولها : " لا يُرخى لمظلمـــةٍ إزارُه " أي أنه عفيف لا يطلب البغايـــا [3] .

وتختم مرثيتها بإلباسه صفة الكرم ، وكأنها تريد بذلك أن تقول عنـــه إنه جماع كل صفات الخير؛ فتلبسه إياها من حيث تخلع عنه طاعته للبخيل .

ويتكرر هذا النمط عند أم الصريح الكندية [4] راثية إخوتها ؛ فتصفهم بالثبات في ميدان المعركة ، والإقـــدام على مقارعـــة الأبطـــال ، والـــصبر على الموت ، دون أن تستخدم ألفاظا تدل دلالة

مباشرة على ما قصدتْ من معان ، تقول [5] :

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص685 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1106 .

3- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص685 .

4- هي " أم الصريح بنت أوس الكندية من شواعر حضر موت ، ولدت حوالي 30 قبل الميلاد النبـــوي " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج2 ، ص352 .

5- المبرد: التعازي والمراثي ، ص26 و 164. وانظر : المرزوقـــي : شـــرح ديـــوان الحماسة لأبي تمام ، مج1 ، ج2 ، ص933 ــ 934 . التبريزي : شرح ديوان الحماســـة لأبي تمام ، ج1 ، ص593 ــ 594 . ابن منقـــذ : المنـــازل والديار ، ص469 ــ 470

أبوا أن يفرّوا ، والقنا في نحورِهم فماتوا ، وأطرافُ القنا تقطـر الدما

ولو أن سائـلا سألها عنهم لكان محتملا أن يجـري الحوار بينهمـا كالتالي : مـا موقفهم في المعـركـة ؟ " أبوا أن يفروا " ، وكيف واجهـوا رماح المعركة ؟ كانـت " القنـا في نحورهـم " ، ومـا النتيجـة ؟ " فماتـوا " ، علـى أي حـال ؟ " وأطراف القنا تقطر الـدما " ؛ أي قتلـوا أثناء المعركة ، والدم ساخن سيّال ، ليس قبلها خـائفين منهـا ، ولا بعـدها هاربين عنها ، ولماذا لم يحاولوا الفرار ، وقد أمكنتهم الفرصة بعدما " أسـلموا وخذلوا ، وأحسنوا البلاء ، ولو فروا يوما نسبوا إلى حسن الرأي ، لا إلـى قبح الفرار [1] " ؟ تجيب :

ولـو أنهـم فروا لكانـوا أعـزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

أي أنهـم " وجدوا الصبر على الموت ، والاستقتال بعد اللقاء أكـرم في الأحدوثة ، وأنفى للعـار والمذمـة [2] " ، ولو أن السائل حينذاك همـس إليها سائـلا : وما تأثير موتهم عليك ؟ لجهرت قائلة :

. والأبيات " للكندية " عند ابن منظور : لسان العرب ، مادة(نيب). وهي لأم الـصريع الكندية عند الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص104 ــ 105 .

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص594 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج1 ، ج2 ، ص934 .

هوت أمهم ! ماذا بهم يوم صرّعوا بجيشان [1] من أسباب مجدٍ تصرّما

أي أن أمهم بموتهم هلكت ، وانصرم المجد الذي كانت ترجوه منهم [2] .

ويلاحظ أنها استخدمت لفظ " أمهم " بدلا من أختهم ؛ تعبيرا عن المحبّة التي تكنّها الأخت لإخوانها ؛ إذ إن درجة حبّ الأم لأبنائها أسمى من درجة حبّ الأخت لإخوانها ؛ من أجل هذا آثرت الشاعرة استخدام كلمة " أمهم " على كلمة أختهم للتعبير عن هذه الرتبة من المحبة ، وهذا التصرف يشي كذلك بأن أمهم لم تعد حينذاك موجودة على قيد الحياة ، وإلا لما تجرأت البنت على استخدام لفظٍ لا يجدر لها استخدامه في حياة أمها .

ونقف عند فاطمة بنت [3] الأجْحَم على أبيات فريدة في رثاء الإخوة ؛ فقد " كان لها إخوة سبعة ، فاطّلعتْ في بئر ، فسقطتْ لها مِدْرى [1] من

1- جيشان : مخلاف جيشان باليمن . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص104 ، ومج4 ، ج7 ، ص217 .

2- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص593 .

3- هي " فاطمة بنت الأجحم بن دندنة الخزاعي ، زوج خالدة بنت هاشم بن عبد المطلب ، وكان أجحم هذا من سادات العرب ". التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص577 . وعند الاندلسي في نشوة الطرب ، هي " فاطمة بنت الأحجم الخزرجية ، من بني النجار ، شاعرة جاهلية " ، ج1 ، ص197 .

فضة ، فنزل أحدهم يخرجها ، فأسن [2] فمـات ، وما زال ذلك دأبهـم واحدا بعد واحد إلى أن هلـك السبعـة [3] " ؛ فيعظـم عليها المصاب ؛ تقول [4] :

إخـوتـي لا تـبـعـدوا أبـدا وبـلـى واللـه قـد بـعـدوا

لـو تمـلـتـهـم [5] عشيرتـهـم لاقـتـنـاء الـعـز أو ولـدوا

هـان مـن بعـض الـرزيـة أو هـان مـن بـعـض الـذي أجد

كـل مـا حـي وإن أمـروا [6] واردو الـحـوض الـذي وردوا

يصلهـا خبر إخوانهـا الذيـن ماتـوا فـي إدراك حاجتهـا ؛ فيهولهـا وتصرخ منادية لهم : " إخوتي " ، وتدفعهـا الحسـرة والـذهول

1- مدرى : المدرى والمدراة : شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه ، يسرّح به الشعَر المتلبد ويستعمله من لم يكن له مشط . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (درى) .

2- أسن : أخذه دوار ،وهو الغشي ، ولهذا قيل للرجل إذا دخل بئرا فاشتدت عليه ريحهـا حتى يصيبه دوار فيسقط : قد أسن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أسن) .

3- الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ج1 ، ص198 .

4- التبريـزي : شـرح ديـوان الحماسـة لأبـي تمـام ، ج1 ، ص578 ــ 579 . وانظر : الأندلسي : نشوة الطرب ، ج1 ، ص198 .
جاء في شرح المرزوقي لديوان حماسة أبي تمام " وقال آخر " ، مج1 ، ج2 ، ص912 .

5- لو تملتهم : لو عاشوا معهم مليا من الدهر أي طويلا . التبريـزي : شـرح ديـوان حماسة أبي تمام ، ج1 ، ص579 .

6- أمروا : كثروا . المرزوقي : شرح ديوان الحماسـة لأبـي تمـام ، مـج1 ، ج2 ، ص914 .

إلى نهيهم عن المـــوت : " لا تبعـدوا أبدا " ، طمعـــا في خلودهـــــم مـــن فرْط حبها إياهم، وكأنها فقـــدتْ الوعـــي بالحقيقة التـــي لا منـــاص منهـــا ؛ وهي أن المـــوت لا كـــذب في خبـــره ، ثـــم تقـــسم وتحقـــق خبـــر موتهـــم ؛ لتعيد إلى نفسهـــا ما كادت تفقده مـــن تـــوازن للـــنفس ، وإدراك لواقـــع الحـــال الـــذي آل إليه إخوانهـــا من المـــوت الجماعـــي ، ولـــم يمهلهـــم وقتـــا لاكتســـاب العزّ ، أو تعقيـــب النســـل ليكـــون سلوة لهـــا في مصيبتها ، ثـــم تصـــدر حكمهـــا على الحـــدث المفجـــع ؛ فتـــرى الأحيـــاء وإن كثروا واردیـــن موارد المـــوت جميعـــا ، وكأنهـــا تقـــول عـــن نفسها : إني حيـــة ميتـــة لاحقـــة بهـــم حتما ولكن بعـــد حيـــن ، وتتـــفق في هذا المعنى مع ما يقوله قُسٌّ [1] بن ساعدة [2] :

لـــمّـــا رأيـــت مـــواردا للمـــوت ليـــس لهـــا مصـــادر
ورأيـــت قـــومـــي نـــحـــوهـــا يمضـــي الأصاغـــر والأكابـــر
أيـــقـــنـــتُ أنـــي لا مـــحـــا لة حيث صـــار القـــوم صائـــر

1- هو قس بن ساعدة بن عمرو ، وقيل مكان عمرو شمر بن عدي بن مالك بن أيـدعان بن النمر بن وائلة مـن إيـاد ، خطيب العـرب وشاعرهـا وحليمهـا وحكيمهـا فـي عصـره . الأصفهاني : الأغاني ، ج15 ، ص164 .

2- المصدر السابق ، ج15 ، ص164 .

أما أخت حاجز [1] الأزدي فيذهب بها الحزن على فقد أخيها مذهبا يجعلها مترددة متشككة، لا تقوى على تحديد مصيره؛ أحيٌّ هو أم ليس حيا ؟ تقول [2] :

أحيٌّ حاجز أم ليس حيا ... فيسلكَ بين جَنْدَفَ والبهيمِ [3]

ويشرَب شَربةً من ماء تَرْجٍ [4] ... فيصدرَ مِشيةَ السبُعِ الكليمِ

تأمل أن يكون باقيا على ما كان عليه من عادةٍ في سالف عهده ، سالكا طريقه بين جبلي " جَندف والبهيم " ، شاربا من ماء ترْج ، ماشيا مشية السبع الكليم ؛ لأنه إذا جرح حمي أنفه [5] ؛ فصار إلى حالة من الهيجان والغضب ، فيُتقى جانبُهُ حينذاك ويُخشى .

وقد فضّلتِ الشاعرة استخدام لفظ " السبع " على سواه من الألفاظ ؛ لتدلَّ على أن أخاها يملك سائر صفات ذات الناب من الضواري كالشجاعة

1- هي أخت " حاجز بن عوف بن الحارث بن الأختم بن عبد الله بن ذهل بن مالك بن سلامان بن مفرج بن مالك ابن زهران بن عوف ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد ، وهو شاعر جاهلي مقل ، ليس من مشهوري الشعراء ، وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب ، وممن كان يعدو على رجليه عدوا يسبق الخيل " . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج13 ، ص147 و 151 .

2- المصدر السابق ، ج13 ، ص151 .

3- خندف والبهيم : جبلان باليمن في ديار خثعم . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص81 .

4- ترج : واد بين جندف والبهيم . المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص81 .

5- انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كلم) .

والإقدام والبسالة وغيرها ، وأن كلّ سبُع يمكـــن أن " يعـــدوَ علـــى النـــاس والدواب فيفترسها [1] " .

وفي رثاء ابنة ضِرار الضبية [2] أخاها يُلحظ أنهـــا تُـــصدم بموتـــه ؛ فتتوجع ويعلو صوتها متحسرة لفقده، وتتمنى بقاءه، مستخدمة ألفـــاظ المنـــي والرجاء ؛ تقول [3] :

لا تبعـــدنَّ ، وكـــلُّ شيءٍ ذاهـــبٌ زَيـــنَ المجالـــسِ والنَّدِيِّ [4] قَبِيصا

تريد ذلك منه ضمناً بالسند المعاون ، ثم تُعقبه بالتسلي مؤمنة ومعزية نفسها بفناء كلّ شيء ، ثم تناديه بـــ " زين المجالس والندي " ؛ لأن المجالس هي محكُّ الرجال ، تتجلى فيها معاملاتهم وسلوكهم مـــع بنـــي جلدتهـــم ؛ فيحكم فيها لهم أو عليهم ، ثم هاهي ترخِّم اسم أخيها" قبيصا " تعبيـــرا عـــن

1- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سبع) .

2- هي ابنة ضرار ، أخوها قبيصة بن ضرار ، أحد فرسان ضبة ، كان قد شهد الكلاب الثاني حين اجتمعت مذحج لقتـــال تميم ، فهزمتهم تميم وقتلوا قائدهم عبـــد يغـــوث بـــن صلاءة . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج16 ، ص227 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص228 ــ 231 .

3- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مـــج2 ، ج3 ، ص1053 ــ 1054 . وانظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ينسبها لمية بنت ضـــرار ، ج1 ، ص654 ــ 655 .

4- الندي : نادي الحي . المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمـــام ، مـــج2 ، ج3 ، ص1054

الضعـــف [1] ، الذي انتهت إليه ، فخنقتها الحسرة ، فلم تعدْ قادرة على النطق باسمه كاملا ، ثم تستجمع عزيمتها وتلتقط أنفاسها ؛ فتعمد إلى مـــدح أجمـــل صفة فيه :

يطـــوي إذا ما الشـــحُّ أبْهِمَ [2] قفله بطناً من الـــزادِ الخبيـــثِ خميصا [3]

تصفه بـــ " قلة الشَّرَهِ ، وأنه لا يرغب من أعراض الـــدنيا إلا فيمـــا يزين ولا يشين ، ويستطاب ولا يستخبث [4] " ، وهي قيمة خلقية فضلى فـــي الوقت الذي كانت فيه جلّ القبائل العربيـــة يُغيـــر بعضهـــا على بعـــــض ؛ فتنهـــب ، وتأســـر ، وتقتـــل وتعتـــدي على الأموال والأعراض ... .

يروي الأصفهاني أنّ بيت عنترةَ بنِ شدّاد العبْسي [5] :

ولقد أبيتُ على الطّـــوى [6] وأظلُّـــهُ حتـــى أنـــالَ بـــه كريـــمَ المأكـــلِ

1- انظر : فاضل صالح السامرائي : معاني النحو ، ج4 ، ص286 .

2- أبهم : إبهامه : أن يجعل على وجه لا يدرى كيف يفتح . المرزوقي : شرح ديـــوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1054 .

3- خميصا : ضامر البطن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خمص) .

4- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج2 ، مج3 ، ص1054 .

5- عنترة بن شداد : ديوانه ، ط1 ، شرحه وضبطه وقدم له : علي العسيلي ، مؤســـسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، 1419 هـــ ــ 1998 م ، ص64 .

6- الطوى : الجوع . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طوي) .

قد أُنشد بحضور النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : " ما وُصِف لي أعرابيٌّ قطُّ فأحببتُ أن أراه إلا عنترة [1] " . وما هذا إلا لكرم هذه الصفة التي يتحلى بها أصحابها ؛ فتكفّ أيديهم عن خبيث الزاد ، من أموال الناس .

وفي بيتين منسوبين لحَمْدَة [2] بنت ضرار تكسو هذا المرثي نفسه صفات أخر هي قدرته على إدراك ثأره مذ بلغ مبلغ الرجال ، وعفّة لسانه من الفحش في الكلام ، وكرمه بإطعام الطعام ، تقول [3] :

ما بات من ليلةٍ قد شدّ مئزرَهُ قَبيصةُ بنُ ضِرار وهو موتُور [4]

لا تقرب الكَلِمُ العُورانُ مجلسَه ولا يذوق طعاما وهو مستور

تذكر أن له مجلسا ، كناية عن اجتماع قومه إليه ؛ لسيادته وإمارته عليهم ، وأنه بلغ من سداد الرأي ما جعله عفّا عن الكلام القبيح ؛ فأوجد له الهيبة بين قومه ؛ فلا يجرؤ أحد منهم أن يزلّ بكلمة في مجلسه ، وقد

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج8 ، ص172 .

2- لم أعثر لها على ترجمة .

3- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص255 . وانظر : البحتري ، ينسبها لأمية بنت ضرار : الحماسة ، ص275 ، ولمية أخت قبيصة بن ضرار عند ابن الشجري : الحماسة الشجرية ، ج1 ، ص326 ــ 327 .

4- موتور : الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وتر)

أجادت وصف الكلام القبيح بلفظ " العوران " جمع أعور[1] ؛ لعدم إبصاره جادّة الصواب في الخطاب المهذّب .

وفي مقطوعة منسوبة لمَيَّةَ بنت ضِرار الضبية تتناول وصفا أوفرَ لشخصية هذا المرثي نفسه ؛ فتعدّد صفاتِه : كريما ، كافي العشيرة ، مقداما ، وتُبيّن الأثر الذي يتركه موته على قومه ؛ إذ يصيرون عُرضة للحوادث وذلّها ؛ تقول [2] :

لستجرِ الحوادثُ بعد امرئٍ بوادي أشائين [3] إذلالَها

كريم ثناه و آلاؤه وكافي العشيرة ما غالها

تراه على الخيل ذا قُدْمةٍ إذا سربل الدم أكفالها

وخلت وعولا أشارى [4] بها وقد أزهف [5] الطعن أبطالها

ولم يمنع الحي رثّ القوى ولم تخف حسناء خلخالها

1- عوران . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عور) .

2- المصدر نفسه ، مادتا (زهف) و (أشر) .

3- وادي أشائين : لم أعثر له على وصف .

4- أشارى : جمع أشران من الأشر ، وهو البطر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أشر) .

5- أزهف : أزهفتْه الطعنة وازهفتْه أي هجمت به على الموت . المصدر السابق ، مادة (زهف) .

تقدم لنا الرائية وصفا لحركة أخيها داخل ميدان المعركة ؛ فتقدمه لنا فارسا يقدُم قومه مكرّا على عدوّه إذا قمّص الدم أكفال الخيل ، وهجم الطعن على الأبطال ، وعزّت المَنَعة ،وأخرج الخوف الحسناء من خبائها ؛ فطلبت ملجأ تلجأ إليه ، أو كهفا تأويه ؛ صيانة لعرضها .

ومن الشواعر من تلتفت إلى التحسر على سرعة نفاد عمر المرثي ، نجد ذلك عند الخِرنِق [1] بنت بدْر ، وكانت " أختَ طرَفة بن العبْد [2] " ، تقول [3] :

عددنا له ستا وعشرين حِجّة فلما توفاها استوى سيدا ضخما

فجعنا به لما رجونا إيابه على خير حال لا وليدا ولا قحما [4]

1- " هي الخرنق بنت بدر بن هفان بن تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي ، وزوجها بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة " . البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد ، (ت487هـ) : سمط اللآلئ ، ط1 ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، 1417هـ ــ 1997م ، ج2 ، ص780 .

2- المرزباني : أشعار النساء ، ص109 .

3- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ط2 ، تحقيق : حسين نصار ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ــ مصر ، 1996م ، ص19 ــ 20 . وانظر : الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، د.ط ، تحقيق وشرح : يسري عبد الغني عبدالله ، ص15 . وانظر : طرفة بن العبد : ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق : محمد محمود ، ص13 .

4- قحما : القحم : الكبير المسن . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قحم) .

تعايش أخاها يوما بيوم ، وشهرا بشهر ، وسنة بسنة مع أفراد أسرتها فتعبّر عنهم جميعا " عددنا " ، وكم عدّتْ له من السنين ؟ عدّت له ستا وعشرين حجة تامة ، حينذاك بلغ مرحلة النضج ؛ فاستوى سيدا غليظا ، عظيم الجِرْم [1] ، يزور أبواب الملوك ، ثم يزلّ لسانه في بلاط عمرِو بن هنْد ملك الحِيرة ؛ فيأمر بقتله ، فتفجع أسرته بفاجعتين : قتله ، وغضب الملك عليه الذي قد يجاوزه ليشمل آل طرفة جميعا [2] وهذا على غير ما كانت تأمله من عودته على خير حال ، في ربيع الشباب .

وتقع أم عمرو بن مَكَدَّم [3] في سَبي بني سليم يوم الفَيفا [4] ، وترى النساء باكياتٍ على من قُتل من أهلهن يومئذ [5] ؛ فيلهبن جمر حزنها على مقتل أخيها ربيعة بن مكدّم ، تقول [1] :

1- انظر : المصدر السابق ، مادة (ضخم) .

2- انظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ج1 ، 399 ــ 400 .

3- هي أم عمرو بن مكدم بن عامر بن حرثان بن علقمة بن جذل ، أحد فرسان مضر المعدودين ، قتله نبيشة بن حبيب السلمي في يوم الكديد . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص317 . الأصفهاني : الأغاني ، ج16 ، ص40 .

4- يوم الفيفا : لبني سليم على بني كنانة .انظر : أبا عبيدة: أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص315 ــ 318 . الأصفهاني : الأغاني ، ج16 ، ص40 ــ 54 . الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص127 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص176 ــ 177 .

5- انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص317 .

هلا على الفيّاض[2] عمرِو بن مالك [3] تبكّيـن أو تبكْيـن وابـن مكـدّم

فتى هو خير مـن أخيكـن مالك [4] إذا احمر أطراف الرماح من الـدم

وشبَـت حـروب بينكم وتقصّفت عـوالٍ بأيدي شَجْعة غيـرِ لـوّم

تخاطب الباكيـات وقـد أشعلـن فيها ذكرى مقتل عزيزين لهـا ؛ أحدهما عمرو بن مالك والآخر هو أخوها ابن مكدم ؛ فتحضهن على بكائهما ، ثم تفاضلهن بأخيها حالة كونه في ميدان القتال ، مفاضلة من رأت ذهبهـا خيرا من ذهب غيرهـا ؛ بعدما نقدت صنعته فوجدته نقي الجوهر ، تفاضل بأخيها ؛ لأنه حمى عزتها ، فلولاه لما وقعت فـي ذلّ الـسبي ؛ لـذلك رأت الفرصة مواتية أن تستثيط غضب الباكيات ، لتبقي لها شيئا مـن عزتهـا لا يمكن للأسار أن يحكم حلَقَه عليها ، كما لا يمكن منعها من هراقة الدمع عليه

1- المصدر السابق ، ج2 ، ص317 . وانـظـر : الشمـشاطـي : الأنـوار ومحاسـن الأشعـار ، ج1 ، ص131 .

2- الفياض : كثير المعروف . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فيض) .

3- عمرو بن مالك من بني فراس بن مالك ، قتله بنو سليم يوم الفيفا. انظر: أبا عبيـدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص315 .

4- هو " مالك بن خالد بن صخر بن الشريد ، واسم الشريد عمرو ، وكانت بنو سليم قد توجوه ملكا وأمروه عليهم " . أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص311 .

، بعد ما ترك لها إرثـا ، ليس مالا فتنعم برخائـه ، ولا سلطـة فتـشرف بسلطانها ، ولكنه أورثها حزنا باقيا ، تقول [1] :

أبكـي على هالـك أودى وأورثني بعـد التفـرّق حزنـا بعـدَه باق

لو كان يُرجع ميْتا وجدُ ذي رحـمٍ أبقى أخي سالما وجدي وإشفاقـي

أو كـان يُفدى لكان الأهـل كلهـم وما أثمّـر مـن مـال لـه واق

لكن سهام المنايا من نصبـن لـه لم ينجه طـبٌ ذي طـبٍّ ولا راق

وتساوم الموت ، من أجل أن يُرجع أخاها إلى الحيـاة ، فتقـدّم لـه عرضين ، كلاهما غاية في استجداء السلامة منه ، هما وجدها وإشفاقها ، ثم تُخيّره في عرض آخر بين اختيار ما سبق عرضه عليه،وبين فدائها أخاهـا بأهلها ومالها ، لكنّ الموت لا يقدر على إيقاف سهامه ، فمهما كان العـرض مغريا ، أو الطب حاذقا ، هنا تيأس من رجوعه ، وتؤمن بالقـضاء ، قائمـة بما عليها من واجب البكاء :

فاذهـب فلا يبعدنـك الله من رجل لاقـى الـذي كـلّ حـيٍّ مثله لاق

فسـوف أبكيـك ما ناحت مطوقة وما سريت مع السـاري على ساق

1- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص307 .

أبكـــي لذكرتـــه عبـــرى مفجعـــة ما إن يجفّ لها مـــن ذكـــره آقي [1]

وتحاول الخنساء [2] بنت أبي سلمى أن تدفع الموت عن أخيها زهير ؛ فتعمد إلى عقد التمائم ، وتعليق ما يدفع العين عنه ، كاشفة لنا عن معتقد من معتقدات الجاهلية ، كان يزعم أصحابها أنها تدفع عنهم البلايا ، فإذا بواقـــع الأمر يكذّب ذلك الزّعم ، تقول [3] :

ومـــا يغنـــي توقـــي المـــوت شيئا ولا عقـــد التميـــم ولا الغضـــار [4]

إذا لاقـــى مـــنـــيـــتـــه فأمـــســـى يســـاق بـــه وقد حـــقّ الحـــذار

ولاقـــــاه مـــــن الأيـــام يـــــوم كما مـــن قبـــلُ لم يخلـــد قُـــدار [5]

1- آقي: لا معنـــى لها يوافـــق سياق معنى البيـــت ؛ تصحيف والتصويـــب : " ماقي " عن ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص222 .

2- هي الخنساء بنت أبي سلمى ، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح ، أخت زهير بن أبي سلمى ، وكانت شاعرة هي وإخوتها وأهل بيتها . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج10 ، ص226 و 244 . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص157 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج10 ، ص244 . وانظر : الآمدي : المؤتلف والمختلـف ، ص157 ، قالت : " ترثي أباها " . ابن منظور : لسان العرب ، مـــادة (غـضر) دون نسبة .

4- الغضار : خزف أخضر يعلق على الإنسان يقي من العين . المصدر السابق ، مادة (غضر) .

5- قدار : هو " قدار بن سالف الذي يقال له : أحمر ثمود عاقر ناقة صالح عليه السلام " . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قدر) .

وتكشف لنا أيضا عن بعض ثقافتها بالتاريخ وقصص العرب ؛ لمعرفتها بـ " قدار " ؛ فقد تأكد لها من تواتر أخباره أنه قد مُدَّ له في عمره غير أنه لم يخلد فمات ، فضربت به مثلا في حتميّة موت الإنسان ، وإنْ عُمِّر في الحياة طويلا .

ويتعاظم الغضب في صدر الفارعة[1] القُشيريّة على من أسلموا أخاها للقتل يوم النِّسار [2] ولم يكونوا معه صفّا منيعا ضدّ أعدائه ، فتدعو الله أن يشفي نفسها منهم ؛ ليكون عقابهم من الله أعظم من كلّ عقاب ، معتقدة وجود الله ، ربّاً عادلا منصفا ؛ تقول [3] :

شفى الله نفسيَ من معشرٍ أضاعوا قُدامة [4] يوم النسار

1- هي الفارعة بنت معاوية ، يعود نسبها إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص540 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص224 . المرزباني : أشعار النساء ، ص64 ــ 67 .

2- يوم النسار : يوم لبني أسد وطيء وغطفان وضبة وعدي على بني عامر . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص527 ــ 542 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص248 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص540 . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص224 . المرزباني : أشعار النساء ، ص67 .

4- " قدامة بن عبدالله بن سلمة بن قشير ، وهو الذائد " . أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص540 .

ثم تصفه برباطة الجأش ، لعلمها أنه ثبَتَ في ميدان المعركة في الوقت الذي فرّ عنه أحلافه ، وتصفه أيضا بصفتين أخريين هما كرمه ، وعمق نِكايته بعدوِّه :

أضاعوا به غيرَ رِعديدة [1] كريم الصباح بعيد المزار

تضيف كرمه إلى الصباح ، كناية عن عدم حرصه على المال ، ومسارعته إلى إكرام ضيوفه بعاجل القرى ، صباحا دون ادِّخار للمساء ، وكذلك هو إذا أغار على قوم أوغل فيهم، متمكنا من نفسه في إدراك بغيته .

وتتحرق ناجية [2] أخت هَرِم بن ضَمْضَم على موت أخيها الفارس تحرقا وتحسرا يجعلها تستعيد خياله ماثلا على ظهر جواده ، الذي جرتِ العادة أن تراه ملازما إياه ، وفي هذا إشارة خفيّة منها إلى علاقة حميمة كانت بين المرثي وفرسه ، تُظهر فيها جلال حبِّه واعتزازه بمركبه المطهّم ، الذي يشنّ به الغارات ، ويحمي به الحمى ، ويذود به عن الظعائن ، فإذا ما

1- رعديدة : جبان . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (رعد) .

2- هي ناجية أخت هرم بن ضمضم المري ، قتله ورد بن حابس العبسي في حرب داحس والغبراء . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص136 ــ 150 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص150 و 153 و 155 .

تغيّرت عادتها من رؤياها أخاها على هذه الصفة التي ذكرَتْها ، كانت هـدفا للذكريات المؤلمة والمعاناة المريرة ، تقول [1] :

يـا لهـف نفسي لهفة المفجـوع ألا أرى هرِمـا علـى مـودوع [2]

مـن أجـل سيدنا ومصرع جنبـه علـق الفـؤاد بحنظـل مجدوع [3]

وتستهل رَيْطَة [4] بنت عاصيَة رثاءها أخاها بتأكيد خبـر مـصرعه الذي لا يمكنها أن تفـرّ منه أو تتوارى عنه ؛ لأنه أوقعها في لجّـة حزنـه ، فعاشت واقعه الأليم ؛ فأكدت حدوثه ، تقول [5] :

إن ابن عاصية البهزي مصرعـه خلى عليك فجاجـا كـان يحميهـا

توضّح الخسارة الحادثة بمصرعه بأنه ترك " فجاجا " ، كان يحميها ، معبرة عن تلك الحماية بصيغة الفعل المضارع ، وكأنها تريد أن تقـول :

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص146 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج4 ، ج8 ، ص337 : " قالت نائحة هرم بن ضمضم المري " .

2- مودوع : فرس هرم . المصدر السابق ، ج17 ، ص146 .

3- مجدوع : سيء الغذاء . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جدع) .

4- هي ريطة بنت عاصية ، أخوها عمرو بن عاصية البهزي ، كان يغزو بني سهم بـن معاوية من هذيل ؛ فرصدوا له فقتلوه ، فأدرك بثأره أخوه عرعرة بن عاصية الـسلمي . انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص564 . البكري : معجم ما اسـتعجم ، مج1 ، ج2 ، ص377 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص49 .

5- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص864 ــ 866 .

إنه يحميها في حياته بوجوده فيها ، وبذكرى شجاعته التي أورثها أهل ذلك المكان بعدَه ، مستخدمة كلمة " فجاجا " للدلالة على كثرتها ، ونوعها ؛ لأن الفجاج : جمع فجٍّ : " الطريق الواسع بين الجبلين [1] " ، ويتفق هذا الاستخدام اللفظي مع دقة الوصف الجغرافي لمكان الواقعة التي كانت بين هذيل وسليم ، وهو مكان الجُرْف : " موضع قرب مكة [2] " ، تغلب عليه البيئة الجبلية . ثم تنتقل إلى تعداد مواقفه ومناقبه :

الوارد الماء لا يسقي بجمته [3] ريش الحمام جراف [4] في مراكيها [5]

والمانع الأرض ذات العرض خشيته حتى تمتع من مرعى محانيها [6]

فتصفه بـ " الوارد الماء الذي لا يَرِدُهُ أحد [7] " سواه ، إلا الحمام ؛ لامتناع هذا الماء في الأماكن العالية أو المُسْبِعة ، وتصفه أيضا بالذائد عن

1- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فجج) .

2- الحموي ياقوت: معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص49 . وانظر : البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص376 ــ 377 .

3- جم الماء : معظمه إذا ثاب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جمم) .

4- جراف : جمع جرف . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص865 .

5- مراكيها : المراكي : الحياض . المصدر السابق ، ج2 ، ص864 .

6- محانيها : المحنية : ما التوى من الوادي . المصدر نفسه ، ج2 ، ص865 .

7- المصدر نفسه ، ج2 ، ص864 .

أرض قومه ذودا . " يتمتع هو من مرعاها [1] " مغايرا عـادة كثيـر ممـن يدافعون فلا يتمتعون ؛ بسبب تكلفهم ذلك ، أما هو فدافعه عن طبيعة قياديـة فِطْرية فيه لا يُعنِّيه بذلها ، بل قـد يضرُّه الإقلاع عنها .

ثـم تمضـي إلى عرض العلاقة الملتهبة بين قبيلتها " بهز " وقبيلـة " هذيل " بسبب قتلهم أخاها :

شبـت هذيل وبَهـز بينهـا إرة [2] فمـا تبوخ [3] ولا ينفـك صاليهـا

وما تبـوخ ومـا يصلى بجامحهـا إلا مصاليـت معقـود نواصيهـا

ككبة الغـزل تجـري في أمدتهـا إذا رمونـا بهـا عدنـا ندهديهـا

ترى أن نار العداوة بينهما لا تسكن ، ولا يصلى بلهيبها إلا رجـال فرسان ماضون في الأمور غير متردّدين ، وأن الصراع بين القبيلتين جـارٍ ممتدٌ كالخيوط الممدودة للنسيج ، وتشبيهها هذا يعطينا فكرة عن ضرْب مـن

1- المصدر نفسه ، ج2 ، ص865 .

2- إرة : أرّ نارك : اجعل لها إرة ، وهي حفرة تكون في وسط النار يكون فيها معظم الجمر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أري) .

3- تبوخ : تسكن . المصدر السابق ، مادة (بوخ) .

ضروب الصناعات التي اقتضتها ضرورة المعاش حينذاك وهي صناعة الأقمشة والمنسوجات [1] .

ثم تعرض علينا موقفا من مواقفه التي تتسم بالجلَد ، وخبرته بدروب الصحراء في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، يحسار فيها الساري ، ويصمت الكلب ، وتأوي الأفاعي إلى جحورها :

وليلةٍ هَطِلٍ بالماءِ آخرُها حيرى جُماديّةٌ قد بِتَّ تسريها

لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة من القريس [2] ولا تسري أفاعيها

ولا يخفى أنها بدأت عرض هذا الموقف بـ " واو ربَّ " ؛ لتدلنا على كثرة إتيانه هذه السبيل ، راسمة لنا ذلك الحال بكلمات ذات حركة : " هطِلٍ ، حيرى ، تسريها ، ينبح ، تسري " ، والأجمل ما في هذه اللوحة : هي حركة الكلب المقرور ؛ الذي يترنّح بين واجب الخدمة ، وخوفه على حياته ، فما يكاد يخرج رأسه من وِجاره ، فينبح نبحة واحدة ، حتى يسارع إلى إدخاله من شدة البرد .

1- انظر : حمدي منصور : أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد 67 ، ص126 ــ 138 .

2- القريس : قرس الماء يقرس قرسا ، فهو قريس : جمد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قرس) .

ثم تعرّض بغـــدر " هذيل " وجبنهم في مواجهة أخيها :

كانـــت هذيـــل تمنى قتلـــه سلمـــا فقـــد أجيبـــتْ فلا تعجـــبْ أمانيها

ثم ترسم له شخصية سويّة ، امتزجت فيها حلاوته علـــى أحبابـــه بمرارته على أعدائه ، أو أخلاقه السهلة بأخلاقه الوعْرة ، وهو الذي يجدنـــه الأرامل مأواهن في الوقت الذي ما يزلن فيه حـــديثات العهـــد بالمـــصيبة ، ناشرات شعورهن :

حلو ومرٌّ جميـــع الأمـــر مجتمـــع مـــأوى أرامل لم تُعقصْ عَفاريها [1]

ثم تختتم بالمستحيل ؛ فتتمنى لو أنه لم يغزُ ابني سهْم ، وآثر البقاء ، ولكنها تدرك أخيرا أن تمنّيها ضلال في القلب ، وسفهٌ في الرأي :

يـــا ليـــت عمرا وليت ضلة سفـــه لم يغز سهما ولـــم يطلـــع لواديهـــا

وتنادي عَمْرَة [2] بنت شدّاد عينها آمرةً لها بالبكاء على أخيها ؛ لتحدد لها نوع البكاء الذي تريـــده ، فمـــا الذي حملها على نداء عينها ؟ هل هـــو

1- عفاريها : عِفْرِيَة الرأس : الشعر الذي عليه . الخليل الفراهيدي : العـــين ، مـــادة (عفر) .

2- يختلف على اسمها ونسبها في المصادر ؛ فقد وردت بأسماء : عمـــرة بنـــت شـــداد الكلبية ، والفارعة بنت شداد المرية ، والضبية ، وامرأة جاهلية . واختلـــف فـــي الأبيـــات المنسوبة إليها عددا ومبنى ومعنى اختلافا كبيرا . انظر : البغدادي : أســـماء المغتـــالين ، ج2 ، ص228 . المصدر السابق ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلميـــة ،

جمودها من الدمع ؛ لقسوة في قلبها ؟ أم أن الحزن قد بلغ بها شأوه ؛ فكان أكبر من أن تغسله عنها دموع عينيها ؟ هذا ما أُرجِّحه ؛ لأنّ أخاها قُتل قتلة مُريعة ؛ إذ " قتلته جَرْم وهو عطشان [1] " . تقول [2] :

يا عين بكي لمسعود بن شداد بكاء ذي عبرات حزنه باد

من لا يُمار[3] له لحم الجَزور ولا يجفو الضيوف إذا ما ضُنّ بالزاد

بيروت ــ لبنان ، 1422 هـ ــ 2001م ، ص212 ــ 213 . الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص74 . القالي : الأمالي ، ج2 ، ص323 . البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج1 ، ص177 . نفسه : سمط اللآلئ ، ج2 ، ص970 . العلوي : أمالي ابن الشجري ، ج1 ، ص377 . ابن منقذ : المنازل والديار ،ص475. البصري : الحماسة البصرية ، ج2 ، ص653 و ج4 ، ص1706 . الحصري : زهر الآداب ، ج2 ، ص941 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج11 ، ص260 .

1- " سمت العرب جرما وجارما ... ، ومن قبائلهم : حرثان ، وعامر ، وشَيْبَم " . ابن دريد ، أبو بكر ، محمد بن الحسن ، (ت321هـ) : الاشتقاق ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة المثنى ، بغداد ــ العراق ، 1399هـ ــ 1979م ، ص191 .

2- ابن حبيب : أسماء المغتالين، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص228 . وانظر : المصدر السابق ، تحقيق : سيد كسروي ، ص212 ــ 213 . الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص74 . القالي : الأمالي ، ج2 ، ص323 . البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج1 ، ص177 . نفسه : سمط اللآلئ ، ج2 ، ص970 . العلوي : أمالي ابن الشجري ، ج1 ،ص377. ابن منقذ : المنازل والديار ، ص475 . البصري : الحماسة البصرية ، ج2 ، ص653 و ج4 ، ص1708 . الحصري : زهر الآداب ، ج2 ، ص941 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج11 ، ص260 .

3- يمار : مار يمور مورا : إذا جعل يذهب ويجيء ويتردد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مور) .

ولا يحـلّ إذا مـا حـلّ منتبـذا [1] خوفَ الرزيّة بين الحضْـر والبـاد

تستمطر دموعها ، وتستدعي هملانها بفقدان أخلاق أخيها الكريمة ، فهو غير شَرِهٍ يَهشّ لضيوفه في وقت الجدْب ، شجاع لا ينتحي جانبـا مـن الأرض خوف مصائب الناس ، وهي بهذا الوصف الأخيـر تـذكرنا ببيـت لطرفة بن العبد :

ولسـت بحـلاّل التـلاع مخافـة ولكـن متـى يسترفد القوم أرفد [2]

ثم تلتفت إلى بني جرم التفاتـة وقـار وأدب فتحضّهـم آملة مـنهم لو أنهم أحسنوا معاملة أخيها وسقوه على الأقل قبل أن يقتلوه ، مفدّية أخاهـا الشجاع الكريم بنفسها :

ألا سقيتـم بنـي جَـرْم أسيركـم نفسـي فداؤك من ذي كربة صاد

يـا فارسـا ما قتلتم غير جَعثنـة [3] ولا بخيل على ذي الحاجة الجادي [4]

قد يطعن الطعنة النجـلاء يتبعهـا مضـرّج بعدهـا تغـلي بإزبـاد

ويترك القِـرن [5] مصفـرّا أناملـه كأن أثوابـه مُجّـت [1] بفرصـاد [2]

1- منتبذا : المنتبذ : المتنحي ناحية . المصدر السابق ، مادة (نبذ) .

2- طرفة بن العبد : ديوانه ، ص47 .

3- جعثنة : أرومة كل شجر تبقى على الشتاء . ابن منظور : لسان العـرب ، مـادة (جعثن) .

4- الجادي : طالب الجدوى . المصدر السابق ، مادة (جدا) .

5- القرن : الكفؤ والنظير في الشجاعة والحرب . المصدر نفسه ، مادة (قرن) .

وتضرب لتصميم أخيها مثلا ؛ فهو يطعن الطعنة المميتة التي يصيب بها مقتلا من عدوّه ، يغلي على إثرها دمه غلي المِرجل على النار ، فيموت " مصفرا أنامله " ملونة ثيابه بالدم ، ولم يكن عدوه ضعيفا ، بل كان مكافئا له في الشجاعة ؛ لأن إظهار قوة الخصم ، هي إظهار لقوة الممدوح .

تقول ذلك وتحسب أن ما هراقته من دموع لم تفِ أخاها حقَّهُ ، فتلجأ إلى الطبيعة تستنزل دموع سحبها الثقال ، لتسحَّ على قبره :

يا من رأى بارقا قد بت أرمقه جَوْدا [3] على الحَرَّة السوداء بالوادي

أسقي به قبرَ من أعني وحُبَّ به قبرا إليَّ ولو لم يفْدِه فاد

ثم تمضي على غرار ما فعلته الخنساء في رثاء أخيها صخر ، من حسن التقسيم وكأن هذا الإيقاع الرتيب يستجيش مزيدا من آهاتها المحبوسة في كبدها ؛ فتحاول أن تخفّف به ما تلقاه من كرْب :

شهاد أنديـة ، رفـاع أبنـيـة شداد ألويـة ، فتـاح أسـداد

نحـار راغيـة ، قتـال طاغيـة حـلال رابيـة ، فكـاك أقـيـاد

قوال محكمـة ، نقاض مبرمـة فـراج مبهمة ، حـبـاس أوراد

1- مجت : مج الشراب والشيء من فيه يمجه مجا ومج به : رماه . المصدر نفسه ، مادة (مجج) .

2- فرصاد : الفرصاد : التوت ، وقيل حمله وهو الأحمر منه . المصدر نفسه ، مادة (فرصد) .

3- جَودا : الجَود : المطر الواسع الغزير . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جود) .

حلال ممرعـــة ، حمال مضلعـــة قـــراع مفظعة ، طـــلاع أنـــجـــاد

فتكرر صيغة " فعّال " للدلالة على كثرة إتيانه تلك المنقبة ، ثم تخـــتم هذه الصفات بحكم عام ، رابطة الأسباب بالنتيجة :

جمّاع كل خصال الخير قـــد علمـــوا زيـــن القريـــن وخطم الظالم العادي

وأخيرا تناديه نداء الوداع :

أبا زرارة لا تبعـــد فـــكـــل فتـــى يوما رهيـــن صفيحـــات وأعـــواد

وتترقب أخت [1] عمرو ذي الكلب إيابه إليها بقلق ، يُذكيـــه حَدْســـها الأخوي بأن ثمّة خطبا ألمّ به ، فترى صحبه مقبلين دونـــه ، فـــتلحّ علـــيهم

1- تختلف المصادر في تحديد اسمها ؛ فسماها بعضهم ريطة ، وآخرون عمرة ، ولكـــن الأسماء التي أجمعت عليها جل المصادر هي جنوب أخت عمرو ذي الكلب بن العجـــلان بن عامر بن برد بن منبه ، أحد بني كاهل ابن لحيان بن هذيل ، وإنما سمي بذي الكلب ؛ لأنه كان له كلب لا يفارقه ، وهو شاعر قديم مغوار ، خرج غازيا فهما ، فهبط واديا من أوديتهم فنام ، فوثب عليه نمران فأكلاه ، فادعت فهم قتله . انظر : البحتري : الحماسة ، ص273 . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص578 و 583 . المبرد : الفاضل ، ص59 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص215 . الأصفهاني : الأغاني ، ج23 ، ص10 . المرزباني : معجم الشعراء ، ص27 . العسكري : الصناعتيـــن ، ص142 . المعري : رسالة الصاهل والشاحج ، ص296 . ابن رشيق : العمـــدة ، ج2، ص31 . الحمـــوي ياقوت : معجم البلـــدان ، مج3 ، ج5 ، ص47 و 138 . ابـــن منظور : لسان العرب ، مادتي (جلب) و (دعب) . السيوطي : شـــرح شـــواهد المغنـــي ، ج1 ، ص106 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج10 ، ص383 و 384 و 390 .

بالسؤال عنه ؛ فيهدها الجواب مشتدا عليها ، وتروعها القصة مبرّحة بهـا ، تقول [1] :

سألـت بعـمـرٍو أخـي صحبـَهُ فأفظعنـي حـيـن ردوا السـؤالا

فقالـوا : أتيـح [2] لـه نـائـمـا أعـز السبـاع عـلـيـه أحـالا

أتـيـح لـه نـمـرا أجـبـل فنـالا لعمـرك مـنـه مـنـالا

أتيحـا لوقـت حـمـام المنـون فـنـالا لعمـرك مـنـه ونـالا

فأقسمـت يـا عمـرو لـو نبهاك إذاً نبهـا منـك أمـرا عـضـالا

إذاً نبهـا لـيـثَ عِـرِّيـسـةٍ [3] مفيـدا مفيتـا نفـوسـا ومـالا

وتتوقف عند زعم قبيلة " فَهْم " قتله ؛ فتبطل زعمهم ، وتفضح زيفهم :

وقـالـوا : قتـلـنـاه في غـارة بـآيـة مـا أن ورثنـا النـبـالا

فهـلا إذاً قـبـل ريـب المنـون فقد كـان رَجْـلا وكنتـم رجـالا

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 ــ 586 . وانظـر : البحتـري : الحماسة ، ص273 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص215 ــ 216 . المبرد : الفاضل ، ص60 ــ 61 . العسكري : الصناعتين ، ص142 . المعري : رسالة الصاهل والشاحج ، ص296 . ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص31 . ابن هشام : شذور الذهب ، ص233 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج10 ، 383 .

2- أتيح : قضي له ، قدر له . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص584 .

3- عريسة : العريسة ، والعريس : الشجر الملتف ، وهو مأوى الأسد . ابن منظـور : لسان العرب ، مادة (عرس) .

وقـد علمـت فهـمُ عنـد اللقـاء بأنهـم لـك كـانـوا نـفـالا [1]

يزعمـون أنهم قتلوه في غارة إشهارا لتفوقهم عليه بدليل أنهـم قـد ورثوا سلاحه ، فتهزأ بهم وتكذبهم ، فلم يكن هذا موقفهم قبل موته بل كـانوا غنائم له .

ثم تدأب على الاستعراض العام لمناقب فارسـها ؛ فتوشـيّه بـصفات الفارس المقدام الشجاع ، الكريم ، المغيث إلى أن تنتهي بتـشبيهه بالـشمس نهارا ، وبالهلال ليلا ؛ إبرازا لفائق جوهره ، ورفيع منزلته ، وجميل أخلاقه :

فكنـت النهـارَ بـه شـمـسَـه وكنـت دجـى الليـل فيـه هلالا

وتشبيهها هذا وتشبيه النابغة الذبياني ، يعتنقان المعنى نفـسه ؛ قـال النابغة مادحا النعمان بن المنذر ملك الحيرة [2] :

فإنـك شمـس ، والملـوك كواكب إذا طلعـت لم يبـد منهـن كوكب

1- نفالا : غنائم . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص585 .

2- النابغة الذبياني : ديوانـه ، ط1 ، قدم له وبوبه وشرحه : علـي أبـو ملحـم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ــ لبنان ، 1991م ، ص42 .

وتمضي حِقبة من الزمن ، فترى نفسها وحيدة بغيـــر مـــساند لهـــا ، تفزع إليه إذا نابها نائب ، أو حزبها أمر ؛ فتتذكر أخاها وتتمنى لو لم يُقْـــدِم على غزو بني فَهْم والهبوط في واديهم المُسْبِع ، تقول [1] :

يـــا ليـــت عَمْـــرا وما ليت بنافعة لـــم يغزو فَهْما ولم يهبط بواديهـــا

شبـــَتْ هذيـــل وفهم بينها إرَة [2] ما إن تبوخ [3] ومـــا يرتـــدّ صاليها

وتبيّن العَداء المتَّقدَ بين قبيلتها هذيل ، وقبيلة فهم بسبب مصرعه بأنه لا يسكن ولا يتوقف رجاله من ولوج ناره .

وربّ ليلة باردة عانت فيها الشاعرة من ملهبة الجوع ذكّرتها بليـــالي أخيها الكريمة التي كان يطعم فيها من خير وأعزّ مـــا يملـــك مـــن الإبـــل ؛ ليختصّ بهذا الكرم المثرين مباهاة لهم بكرمه في الوقت الذي يبخلون فيه :

وليلـــة يصطلـــي بالفرث جازرهـــا يختص بالنَّقَرى المثرين داعيها [4]

أطعمت فيها على جـــوع ومسغبـــة شحْم العِشار إذا ما قـــام باغيهـــا

1- السكري: شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص582 ــ 583 . وانظر : ابن طيفـــور : بلاغات النساء ، ص233 . المرتضى : الأمالي : ج1 ، ص345 ، " قال بعض هذيل "

2- إرة : الإرة : موقد النار . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص582 .

3- تبوخ : تسكن . المصدر السابق ، ج2 ، ص582 .

4- " يقول : من شدة البرد يصطلي بالفرث ، يدخل يديه ورجليه في الكرش مـن شـدة البرد ، " والنقرى " أن يدعوا واحدا واحدا ، الرجل من ها هنا ، والرجل من هـــا هنـــا ، يخص ولا يعم ، والجفلى أن يعم في دعائه " . السكري : شرح أشعار الهـــذليين ، ج2 ، ص582 .

وتذكر لنا بعض المصادر قصيدة بائية لها أيضا في رثاء أخيها هذا ، مطلعها [1] :

كلّ امرئ بطوال العيش مكذوبُ وكلّ من غالب الأيام مغلوبُ

وقد تشاطرت نسبتها مع " سَريع بن عِمران الصاهلي [2] قالها يرثي عَمْرا [3] " ، والقصيدة ــ كما أرجّح ــ ألصق نسبة به منها بأخت عمرو ، وآية ذلك إنها سألت في القصيدة اللامية الأولى أصحاب أخيها عندما رجعوا من غزاتهم عنه ، جاهلة بحاله حتى أخبروها : " سالت بعمرو أخي صحبه " ، بينما هي في القصيدة البائية تخبر بالحدَث وكأنها عاشته ؛ فأقبلت تبلّغ به قومها ، وهذا يتنافى مع المعنى الحاصل من القصيدة اللامية في الوقت الذي يستقيم احتمال صحته مع نسبة القصيدة إلى سريع الصاهلي ، يقول [4] :

أبلغ هذيلا وأبلغ من يبلغها عني حديثا وبعض القول تكذيب

بان ذا الكلب عمْرا خيرهم حسبا ببطن شِريان يعوي عنده الذيب

1- انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص578 ــ 581 . البحتري : الحماسة ، ص273 . الأصفهاني : الأغاني ، ج23 ، ص10 ــ 11 . المعري : رسالة الصاهل والشاحج ، ص297 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج10 ، ص390 ــ 400 .

2- لم أعثر له على ترجمة غير ما ذكر .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص578 .

4- المصدر السابق ، ج2 ، ص578 .

كمـــا أن القصيدة بـــدأت بالحكمة ، وهـــذا يتنـــافى مـــــع طبيعـــة المـــرأة الانفعالية ، التي ـــ غالبا ـــ لا تتقبل الأمور في مثل هذه المواقـــف إلا بما ينسجم مع فطرتها بالتأثر والانفعـــال ، لا بالإرعـــــواء والحكمـــة ، ومما يقوّي لديّ هذا الاحتمال هي الأناة التي ظهرت في الأبيات الخمـــسة الأُولِ ، فأنّى لشاعرة يمـــوت أخوها وتتأنى حتى تقـــول خمسة أبيـــات ولا تصرخ ؟! .

ثم نراها في قصيدة أخرى مع المرثي نفسه تناديه دون أن تـــصرّح باسمه علانية كما فعلت في قصيدتيها السابقتين ، تقول [1] :

يـــا مـــن بمقتله زُهـــى [2] الدهـــر قـــد كـــان فيـــك تضـــاءل البـــدر

ماذا أحدث موته ؟ أحدث تكبّرَ الدهر على الشاعرة التـــي افتقـــدت عضدها ، والقبيلة التي ودّعت فارسها ، الذي كان يكشف بطلعته في ساحات الوغى ما لا يكشفه بدر السماء في حنادس الدجى ؛ لـــذا تـــضاءل البـــدر ، ولصفات أخر هي :

كـــنـــت المجيـــر علـــيـــه تقهـــره فـــإذا ســـطـــوت ســـطـــا القهـــر

1- المبرد : الفاضل ، ص59 ـــ 60 . وانظر : القالي : الأمالي ، ج1 ، ص39 ، 40 ، " لامرأة على راحلة لها تطوف على قبر " . السراج : مصارع العشاق ، ج1 ، ص216

2- زهى : طائية ، تريد زهي . المبرد : الفاضل ، ص59 .

الزهو : الكبر والتيه والفخر والعظمة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زها) .

وإذا سكتَ فإنها عدة وإذا نطقت تدفق البحر

وإذا نظرت إلى أخي عدم أثرى وزال بلحظك الفقر

وإذا رقدت فأنت منتبه وإذا بدوت فوجهك البدر

فهو مجير من يلجأ إليه ، وهو القهر نفسه إذا سطا ، والواعد أو المتوعد إذا سكت ، والطليق الفصيح إذا نطق ، وما إن ينظر إلى فقير حتى يتيقن بحصول الثرى وزوال الفقر ، وهو الراقد المنتبه في وقت معا حذرا من الغائلة ، وإذا بدا فوجهه مشرق ، لما يراه من ترحاب من عافي إنائه ، وشاكري نعمائه،إذ كان شأنه هذا بينهم أبدا مستمراً ودائما دائبا . ثم تحلف :

والله لو بك لم أدع أحدا إلا قتلت لفاتني الوِتْر [1]

ما زال يحسد بطنُ أرضك ظهرَها إذ تم أمرك واستوى القَدْرُ

حتى حللت ببطنها فتقدّستْ فاليومَ يحسد بطنَها الظهرُ

تعبر عن أبلغ انفعالها فتقسم ، فتتمنى قتل الجميع بأخيها وإن فاتها إدراك ثأرها كله ؛ لرجحان كفة أخيها على كفة سواه من الناس ، ثم تشخّص بطن الأرض ، وتجعله حاسدا لظهرها ، في الطرف الذي صار فيه أخوها سيدا يمشي بثبات على الأرض إلى أن انتهت تلك الغاية الزمنية ، وانتقل

1- الوتر : الوتر والوتر والترة والوتيرة : الظلم في الذحل . المصدر السابق ، مادة (وتر) .

إلى الغاية المكانية " القبر " ، فانقلب الحاسد إلى محسود ، فحسد ظهرُ الأرض باطنها ، " وهذا من أحسن المعاني وألطفها [1] " .

ونلمس في رثاء سُعدى [2] أخاها انتقالا من جوٍّ حزين عامّ تعيشه الشاعرة إلى جوٍّ حزين خاصّ ،ففي الأول حوادث ،ومنون وخوف ،وسهر ، وفي الآخر بكاء مفرد لموت أخيها حسب ، وكأنها مهّدت بالعامّ الكثير لاستقبال الخاصّ الجليل الذي تجاوز حزنُه وجدّها القديم ؛ فباتت تبكّي أخاها الحقيق بالبكاء ، موقنة بكلل عينها ، تقول [3] :

أمن الحوادث والمنون أروع وأبيت ليلي كله لا أهجع

وأبيت مُخلية [4] أبكّي أسعدا ولمثله تبكي العيون وتهمع

1- المبرد : الفاضل ، ص60 .

2- هي سعدى أو سلمى بنت الشمردل الجُهَنيَّة ، أخت أسعد بن مجدعة الهذلي ، قتلته بهز من بني سليم ابن منصور . انظر : الأصمعي : أبا سعيد ، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ، (ت216هـ) : الأصمعيات ، ط7 ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ، 1993م ، ص101 ــ 102 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص219 . الجاحظ : الحيوان ، ج5 ، ص554 . ابن دريد : الاشتقاق ، ج1 ، ص207 . ابن منظور : لسان العرب ، مواد (حضر) و (سلع) و (سمل) .

3- الأصمعي:الأصمعيات ، ص101 ــ 104 . وانظر ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص219 . الجاحظ : الحيوان ، ج5 ، ص554 . ابن دريد :الاشتقاق ، ج1 ، ص207 . ابن منظور : لسان العرب ، مواد (حضر) و (سلع) و (سمل) .

4- مخلية : خالية [مفردة] . المصدر السابق ، مادة (خلا) .

وتبيـــن العيـــن الطليحـــة [1] أنها تبكي مـــن الجزع الدخيـــل وتدمع

ثم يسكن نشيجها ، وتحاول حبس دموعها ؛ لتفـــسح لعقلهـــا بتـــذكر العظات من حوادث ما سبق من الزمان ، فتتنهد بالحكمة :

ولقـــد بدالـــي قبل فيمـــا قد مضى وعلمـــت ذاك لـــو ان علمـــا ينفع

أن الـــحـــوادث والمنـــون كليهمـــا لا يعتِبان [2] ولو بكى مـــن يجـــزع

ولقـــد علمـــت بـــأن كـــل مؤخـــر يومـــا سبيـــل الأوليـــن سيتبـــع

ولقـــد علمت لـــو ان علما نافـــع أن كـــل حـــي ذاهـــب فمـــودع

أفليس في من قد مضى لي عبـــرة هلكوا ولقد أيقنت أن لـــن يرجعوا

ويلـــمّ قتلـــى بالرّصاف [3] لو انهم بلغوا الرجاء لقوهـــم أو متعـــوا

كم من جميع الشمل ملتئم الهـــوى كانوا كذلـــك قبلـــه فتصدعـــوا

ثم تخاطب صحب أخيها ، علّهم يشاركونها المصاب ؛ فيخفّ عنهـــا بعضه :

فلتبـــك أسعـــد فتيـــة بسباســـب[4] أقـــووا [1] وأصبـــح زادهم يتمزع [2]

1- الطليحة : الطلح والطلاحة : الإعياء . المصدر السابق ، مادة (خلا) .

2- يعتبـــان : الإعتاب والعتبى : رجـــوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب . ابـــن منظور : لسان العرب ، مادة (عتب) .

3- الرُصاف : موضع . البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص654 .

4- سباسب : القفر والمفازة . المصدر نفسه ، مادة (سبسب) .

ولا تنسى أن تذكّرهم بأن أخاها قد جاد بنفسه في وقت كان المكــرّ عليهم شنيعا ، وبما له من صفات وبطولات :

جــاد ابــن مجدعة [3] الكميّ بنفسه ولقــد يــرى أن المكــرّ لأشنــع

ويلــمّــه [4] رجــلا يليــذ بظهــره إبــلا ، ونسّــال [5] الفيافــي أروع

يرد المياه حضيرة [6] ونفيضــة [7] ورِدَ القطاة إذا اسمألّ [8] التبــع [9]

وبه إلى أخرى الصحــاب تلفــت وبه إلى المكروب جري زعــزع

ويكبر القدح [10] العنــود [11] ويعتلــى بألى الصحاب إذا أصات [12]

الوعوع[13]

1- أقووا : أقوى الرجل إذا نزل بالقفر . المصدر نفسه ، مادة (قوا) .

2- يتمزع : التمزيع : التفريق . المصدر نفسه ، مادة (مزع) .

3- ابن مجدعة : تريد بذلك أخاها .

4- وَيْلُمِّهِ : ووَيْلُمِّهِ : بريدون ويل أمه . وقيل : وَيْ كلمة مفردة ولأمّه مفردة وهي كلمة تفجع وتعجب ، وحذفت الهمزة من أمه تخفيفا ، وألقيت حركتها على اللام ، وينصب ما بعدها على التمييز . انظر : لسان العرب ، مادة (ويل) .

5- نسال : نسل : أسرع ، وأصل النسلان للذئب . المصدر نفسه ، مادة (نسل) .

6- حضيرة : النفر يغزى بهم . المصدر السابق ، مادة (حضر) .

7- نفيضة : الطلائع . المصدر السابق ، مادة (حضر) .

8- اسمألّ : أي رجع الظل إلى أصل العود . المصدر السابق ، مادة (سمأل) .

9- التبع : الظل . المصدر السابق ، مادة (تبع) .

10- القدح : بالكسر : السهم قبل أن ينصل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قدح).

11- العنود : قدح عنود : هو الذي يخرج فائزا على غير جهة سائر القداح . المصدر السابق ، مادة (عند) .

1- أصات : نادى . المصدر نفسه ، مادة (صوت) .

2- الوعوع : الجبان . المصدر نفسه ، مادة (وعع) .

ثم تحقق موته بتعبير (ذهب) ؛ أي قتل ، وتذكر قاتله ؛ وهي قبيلة بَهْز التي أصبح حظها عاليا ؛ بقتل أشد الفرسان جرأة عليها ، بينما أصبح حظ قومها خاشعا بسبب فقدهم فارسهم المقدم :

ذهبت بـــه بهـــز فأصبـــح جدهـــا يعلـــو وأصبح جد قومي يخشع

ثم تسأل قاتله منكرة عليه صنيعه بأخيها ، داعية عليه :

أجعلـــت أسعـــد للرمـــاح دريئة [1] هبلتك [2] أمـــك أيَّ جَـــرْد [3] ترقـــع

ثم تلتفت مستأنسة بحواره وكأنه بجوارها تتملق إليه بأحب الـــصفات إليه ؛ تعبيرا عن مودتها وحبها له :

يا مطعـــم الركـــب الجياع إذا هـــم حثوا المطي إلى العلى وتسرعـــوا

وتجاهدوا سيـــرا فبعـــض مطيهم حســـرى مخلفـــة وبعـــض ظلـــع

جـــواب أوديـــة بغيـــر صحابـــة كشـــاف داوي الظـــلام مشيـــع

هذا على إثـــر الـــذي هـــو قبلـــه وهـــي المنايـــا والسبيـــل المهيع

هذا اليقيـــن فكيـــف أنسى فقـــده إن راب دهـــر أو نبـــا بي مضجع

إن تأتـــه بعـــد الهـــدو لحاجـــة تدعـــو ، يجبك لها نجيـــب أروع

3- دريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها . المصدر نفسه ، مادة (درأ)

4- هبلتك : الهبل : الثكل . المصدر نفسه ، مادة (هبل) .

5- جرد : ثوب جرد : خلق : المصدر نفسه ، مادة (هبل) .

متحلـــب الكفيـــن أميث [1] بـــارع أنـــف طوال الساعدين سَميدَع [2]

سمح إذا ما الشول حـــارد رسلها واستروح المـــرق النساء الجـــوع

من بعد أسعد إذ فجعـــت بيومـــه والمـــوت مما قـــد يريـــب ويفجع

ثم تختتم قصيدتها برغبتها في فداء أخيها بكل غال لو كـــان الـــسبيل إلى ذلك ممكنا ، ومشهد مقتله يوم الرصاف لا يزال شاهدا شنيعا أمامها :

فـــوددت لـــو قبلـــت بأسعـــد فدية ممـــا يضـــن بـــه المصاب الموجع

غادرته يـــوم الرصـــاف مجـــدلا خبـــر لعمـــرك يـــوم ذلـــك أشنـــع

1- أميـــث : الأرض الميثـــاء : الأرض السهلـــة ، ولعلها أرادت بأميث ؛ أي ســـهل . انظـــر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ميث) .

2- سَميدَع : الكريم السيد الجميل الجسم الموطأ الأكناف ، والأكناف : النواحي ، وقيل : هو الشجاع . المصدر السابق ، مادة (سمدع) .

الفصل الرابع

رثاء الأزواج

يُبيّن ربُّنا سبحانه وتعالى العلاقة الزوجية ، فيجعلها من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته ، يقول [1] : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

لقد خلق لنا من جنسنا البشري أزواجا لا من جنس آخر من جانّ أو غيره " وذلك لما بين الاثنين من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ، وجعل لنا التوادّ والتراحم بعصمة الزواج ، بعد أن لم تكن بيننا سابقة معرفة ، لا لقاء ، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم [2] " .

هذا هو الأساس الرباني الذي تسير عليه العلاقات الزوجية ، وتُبنى به الأسر ، ويتكوّن به المجتمع ، ولضرورته يدعو رسولنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ معشر الشباب مشترطا عليهم الاستطاعة قائلا [3] : " يا

1- سورة الروم ، الآية 21 .

2- الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت538هـ) : الكشاف ، ط1 ، دار الفكر ، بيروت ــ لبنان ، 1397هـ ــ 1977م ، ج3 ، ص218 . وانظر : محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ج2 ، ص438 .

3- البخاري ، أبو عبدالله ، محمد بن إسماعيل ، (ت256هـ) : صحيح البخاري ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، مج3 ، ج7 ، ص3 .

معشر الشباب من استطاع منكم الباءة [1] فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء [2] " . ومن فوائد الزواج " أنه سبب لوجود النوع الإنساني ، والتمتع بالنعمة ، وغضّ البصر ، وكفّ النفس عن الحرام [3] " .

يروي القالي قصة عن ملكة يمانيّة ، خلّفت والدها في حكم قومها ، فقرّبت النسوة اللواتي ربّيْنها تشاورهن ، فقلن لها يوما [4] : " لو تزوجتِ لتمّ لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عزّ في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبتِ عطف ، وإن مرضتِ لطف ، وقالت الثانية : الزوج شعاري [5] حين أُصرد [6] ، ومتكئي حين أرقُد

1- الباءة : النكاح . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بوأ) .

2- وجاء : أوجأ عنه : دفعه ونحاه. ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وجأ) .

3- السالمي ، نور الدين ، أبو محمد ، عبدالله بن حميد ، (ت1332هـ) : شرح الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، د.ط ، صححه وعلق عليه : عز الدين التنوخي . مكتبة الاستقامة ، مسقط ـ سلطنة عمان ، د.ت ، ج3 ، ص2 .

4- القالي : الأمالي ، ج1 ، ص80 .

5- شعاري : ما ولي شعر جسد الإنسان دون سواه من الثياب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شعر) .

6- أصرد : أبرد . القالي : الأمالي ، ج1 ، ص81 .

، وأنسي حين أُرد ، وقالت الأخرى : الزوج لما عناني كاف ، ولما شفني [1] شاف ، يكفيني فقد الآلاف " .

فماذا تقـول الشاعـرة الجاهلية إذا مـات زوجهـا عنهـا ؟ وكيف تقـول ذلك ؟ وما تأثيره عليها ؟

ذلك ما يأمل الإجابة عنه هذا الفصل .

يقتل جسّاس بن مُرَّة كُليب بن ربيعة ، وجليلة [2] أخت جساس تحت كليب ؛ فتعود إلى أهلها وأخت كليب تقول [3] : " رحلة المعتـدي ، وفـراق الشامت ، ويل غدا لآل مرة ، من الكرة بعد الكرة ! . فبلغ قولهـا جليلـة ،

1- شفني : شفه الهم أي هزله وأضمره . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شفف) .

2- هي جليلة أو ماوية بنت مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة أخت جساس بـن مـرة ، وزوجة كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم التغلبي . انظـر : أبا عبيـدة : أيـام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، 165 ــ 166 . أبا تمـام : الوحـشيات (الحماسـة الصغرى) ، ص128 ــ 129 . المبرد : التعازي والمراثي ، ص291 . الأصـفهاني : الأغاني ، ج5 ، ص24 و40 . المرزباني : أشعار النساء ، 117 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج5 ، ص40 . وانظر : البكـري : سـمط اللآلـئ ، ج2 ، ص756 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص527 . النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مج3 ، ج5 ، 216 .

فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقّب وِترها ! أسعد الله جَدَّ أختي ، أفلا قالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ! " ثم أنشأت تقول [1] :

يا ابنة الأقوام إن لُمتِ فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي

فإذا أنتِ تبينتِ الذي ... يوجب اللوم فلومي واعذلي

إن تكن أخت امرئٍ لِيمتْ على ... شفق منها عليه فافعلي

يزلزلها خبر مقتل زوجها بيدِ أخيها وكلاهما لديها عزيز مكين ، فيحبس الحزن لسانها عن البكاء ، فلا تنبُس ببنتِ شفةٍ حتى تجرحها أخت زوجها المقتول ، فيجيش صدرها بالشعر وتنطلق حَبْستها ، بعدما استطاعت بصلابتها أن تتحدّى أشدّ المواقف مُفسحة لجوهر عقلها أن يمُدّ لعاطفتها

1- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، (ت231 أو 232 هـ) : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ط3 ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت ، ص128 ـ 129 . وانظر : المبرد : التعازي والمراثي ، ص291 ـ 292 . الأصفهاني : الأغاني ، ج4 ، ص41 . المرزباني : أشعار النساء ، ص118 ـ 119 . ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص153 ـ 154 . البكري : سمط اللآلئ ، ج2 ، ص756 . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص386 ـ 387 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص528 ـ 529 . نفسه : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج1 ، ص306 . الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ج2 ، ص507 . النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مج3 ، ج5 ، ص216 ـ 217 .

المتقدة أسباب النجاة ؛ لينقذها من موقفها الخائر ، فتبدأ بالحوار الفكري منادية عاذلتها بعدم العجلة ، والتثبّت مما يُوجب لومها ، أو لا ، راضية باللوم إن ثبتتْ شماتتها حقا بأهل المقتول ، وشفقتها على أخيها القاتل .

إنه حوار غير متكافئ بين عقل يستضيء بالأدلة ، وبين عاطفة موتورة تستجير بالحزن ، ولاثمة ميزان ؛ لينصف الأولى فيعدل ، أو شفيق على الأخرى فيعذر ، فكلتاهما على موقفها غير ملومة .ثم تنتقل إلى الكلام عن الحدَث ، وعرض موقفها الذاتيّ منه :

فعْل جساس على وجدي [1] به قاطع ظهري ومُدْنٍ أجلي

لو بعين فقئتْ عيني سوى أختها فانفقأتْ لم أحفل

تحمل العين قذى العين كما تحمل الأمُّ أذى ما تفتلي

يَقتل أخوها الذي هو يَسارها وسعتها زوجَها ؛ فيحُول بفعله هذا بين أخته وسعادتها ، وبينها وبين ما تأمله منه من عون فيقطع ظهرها ، ويعجل بيومها ؛ ولكانت غيرَ حافلة بالأمر ، لو فُقئت عينها قصاصا لعينٍ غير عينها ؛ لأن في اقتصاص الآخرين من إحدى عينيها إبقاءً لواحدة منهما ، أما في اقتصاص عينها الأولى من عينها الأخرى ذهاب لعينيها الاثنتين معا ، وفي هذا الكلام تشبيه لأخيها وزوجها بالعينين اللتين هما أغلى أعضاء

1- وجدي : الوجد : اليسار والسعة . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وجد) .

الرأس ، وأرفعهما ، ترى بهما النور ، وتهتدي بهما السبيل ، ثم إنها هي نفسها عين ثالثة في نظر أخيها تحتمل قذاه كما تحتمل الأم أذى قلي رأسها .

ثم تدلف إلى وصف معاناتها إثر مقتل زوجها ، والأثر الذي تركه لها :

يا قتيلا قوّضتْ صرعتُه سقف بيتيَ جميعا من عل

قوّضت بيتي الذي استحدثته وانثنت في هدم بيتي الأول

ورماني قتله من كثب رمية المُصمى به المستأصل

تنادي غائبا مُعيّنا غير حاضر ، فتنكّر بقصْد ؛ ولو كان حاضرا شاهدا لواقع الكلام لرفعت المنادي ، وسدّدت الوزن ، جاعلة من التنكير أمارة على الغياب ، ومن التعريف آية على الحضور ، ثم تصفه وصفا غير مباشر ؛ فردّت انهدام سقف بيتها إلى " صرعته " تأدّبا واحتراما لزوجها القتيل ، الذي قُتل عن قصد أخيها به ؛ فخسرت بيت زوجها الذي استحدثته بالزواج ، كما خسرت بيتها الأول ، بيت أخيها بما تتوقعه من قتل قوم زوجها أخاها ؛ إدراكا لثأرهم منه ، ويمكن أن نفهم أن البيتين هما زوجها وأخوها نفساهما ، ويدلنا تكرار لفظ " بيتي " على حرصها على سلامة بيتها حرصَ أيّ امرأة تكون ربة بيت ، تُوليه عنايتها واهتمامها ، بما يضمّ هذا البيت من أفراد ، كما يثبت لنا هذا اللفظ أن الشعر لامرأة ، إذا ما استبعدنا معرفة القائل له مثلا .

وتوضّح أن القتل كان " من كثب " أي من قرب ، فإما أن يكون هذا القرب من ناحية الرحم الذي بينها وبين أخيها ، وإما أن يكون قد قصدت بالقرب العلاقة الزوجية الحديثة العهد ، التي ما إن لبثت حتى رُميتْ فيها بنوع من الرمي يسمى " رمية المُصمي " ، وهو رمي يُصيب ولا يُخطئ ، ويستأصل الروح من أعماق الجسد ، ثم تتمنى أن تكون مكان زوجها فتُقتل عوضا عنه ، ويهراق دمها غزيرا من أكحلها :

ليته كان دمي فاحتلبوا دركا منه دمي من أكْحلي

يروي الأصفهاني [1] : " لما قتل جساسُ بن مرة كليبَ بن ربيعة ... ، اجتمع نساء الحيّ للمأتم ، فقلن لأخت كليب : رحّلي جليلة عن مأتمك ، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ؛ فقالت لها : يا هذه اخرجي عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا ، فخرجت " ؛ لأجل هذا رصدت جليلة لهن قطعة من خطابها فنادت :

يا نسائي دونكن اليوم قد خصّني الدهر برزء معضل

خصّني قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي

ليس من يبكي ليوميه كمن إنما يبكي ليوم بجل [2]

1- الأصفهاني : الأغاني، ج5 ، ص40 .

2- بجل : البجل : العجب . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بجل)

تُبين لهن أن الدهر قد خصّها دونهن بهذا المصاب المعضل ، في الوقت الذي رمينها فيه بالشماتة ، وأن مصابها هذا سائرٌ أمامَها بقتل زوجها ، ورديفٌ خلفَها بتوقّع الثأر من أخيها وقومه ؛ فهي في مصاب مستمر ، ليس كمصابهن الذي ما إن يمرّ عليه يومان حتى يبرد ، فـ " ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة [1] " .

لقد أوقعها القضاء في غمٍّ لا تستطيع أن تشتفي منه بثأر ؛ لأن قاتل زوجها هو أخوها ، فلا تبرح لو فعلت ذلك إلا أن تكسر جناحها بيدها ، فيتضاعف مصابها ، ويدلهمّ خطبها :

درك الثائر يشفيه وفي ... دركي ثأري ثكل المثكل

إنني قاتلة مقتولة ... ولعلّ الله أن يرتاح لي

هي قاتلة لكون القاتل أخاها ، مقتولة لأن المقتول زوجها ، تعبير عن حالتها التي تحيا النقيضين المرّين معا ، فلا تجد منهما خلاصا إلا أن تستعطف راجية ربّ القضاء أن يريحها بقضاء آخر لا يقدر عليه إلا هو وحدَه .

1- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج3 ، ص228 .

وتُشبـــَه فاطمة [1] بنت الأجْحم زوجها المتوفى بأنه قد كـــان جـــبلا يظلها، وسترا يعفّها ، وجناحا يحملها ، ثم صارت إلى حال مغاير بعدَه ؛ إلى ذِلّةٍ بعد عزّ ، وظلم بعد عدْل ، وحزن بعد سرور ؛ تقول [2] :

قـــد كنـــت لي جبـــلا ألـــوذ بظلـــه فتركتني أضحـــى[3] بأجردَ ضاحـــي

قد كنت ذات حمية [4] ما عشـــت لي أمشي البَراز [5] وكنت أنت جناحـــي

فاليـــوم أخضـــع للذليـــل وأتقـــي مـــنـــه وأدفـــع ظالمـــي بالـــراح

وإذا دعت قُمريـــّة شجنـــا لـــهـــا يومـــا على فنن دعوت صبـــاحي

وأغض من بصـــري وأعلـــم أنـــه قـــد بان حـــدّ فوارسي ورماحـــي

1- سبقت ترجمتها ، ص51 .

2- القالي : الأمالي ، ج2 ، ص1 ــ 2 . وانظر : المرزوقي : شرح ديوان حماســة ، أبي تمام ، مج1 ، ج2 ، ص909 ــ 912 . البكري : سمط اللآلـئ ، ج2 ، ص626 ، وفيه تنسب أيضا ليلى بنت يزيد بن الصعق ، ترثي ابنها قيس بن زياد ، وفيه نفسه إنهـا لامرأة من كندة . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص577 ــ 578 . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص449 ، " ترثي أباها " .

3- أضحى : انكشف . أجرد : أملس . ضاحي : بارز للشمس . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص577 .

4- حمية : حميت الشيء أحميه حمية : أي أنفت وغضبت . المصدر الـسابق ، ج1 ، ص587 .

5- البراز : الفضاء من الأرض . المصدر نفسه ، ج1 ، ص587 .

وقد اختلفت الروايات ــ انظر التخريج ــ في مرثيتها ، وأرجح أنها لزوجها بدليل أنها قالت " فتركتني أضحى بأجرد ضاحي " أي " انكشفت بعد أن كنت في ستر [1] " ، وهذا كلام ألصق بالزوج منه بالأب ؛ لأن الزوج مَظِنَة الستر ، وبدليل قولها : " وأغض طرفي " ؛ لتتقيَ هيجان رغبتها في الرجال عند النظر إليهم ؛ لوجود الغريزة الفطرية التي تدفعها إلى ذلك ولكنها تأبى وفاءً لزوجها وإكراما لعفتها ، وهذا ما لا أرجح أن تقولَه في رثاء أبيها بدليل أن البكريَ في سِمطه ذكرَ مطلعا آخر لهذه الأبيات هو :

يا عين جودي عند كل صباح جودي بأربعة على الجراح .

فعرّف الجرّاح بأنه زوجها [2] ، أما الدليل الأخير فهو أن هذه " الأبيات تمثلت بها عائشة ــ رضي الله عنها ــ بعد وفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ [3] " وغالبا لا يكون التمثُّل والاستشهاد بالشيء إلا لمشابهة في موقف أو حال .

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص577 .

2- انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج2 ، ص626 .

3- القالي : الأمالي ، ج2 ، ص2 .

ويلفتنا بيتها : " وإذا دعتْ قُمريّة ... " إلى أن موت زوجها أذكى في نفسها الحِسّ الرهيف ؛ فجعلها تشجى لصوت الحمام ، وتهتاج به ؛ فتعلو زفراتها وجْدا على فقيدها .

ومن الشاعرات الجاهليات اللواتي نقف لهن على بيت واحد في رثاء الأزواج دَخْتَنوس [1] بنت لَقِيط فقد رثتْ زوجها عُمير [2] بن مَعْبَد ، تقول [3] :

أعينيْ ألا فابكي عُمير بن مَعْبَد وكان ضروبا باليدين وباليد

تخاطب زوجها في بيتها هذا ؛ فتستخدم لندائه الهمزة ، دلالة على قربه من فؤادها ، وإن باعد الموت بينهما ، ثم تستفتح ب " ألا " منبّهةً لنا بها أن ثمة خطْبا دهاها ؛ فدعاها إلى أن تطلب من عينها أن تسعفها بدمع يثِجّ بغزارته ؛ ليغسل ما تعانيه من فقْد إلفها الذي عرفته مبالغا في الضرْب ماهرا فيه ، وإذا أقدم على أمر لا يلوي عنه عنانه حتى يدرك بُغيته ، بإحدى قوتيه ؛ قوة اليدين معا أو قوة اليد الواحدة ، وهما قوتان تحددهما مهارة صاحبهما ؛ أين يوضعان ، ومتى يستخدمان .

1- تقدمت ترجمتها ، ص17 .

2- لم أعثر له على ترجمة .

3- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج2 ، ص700 .

ويقتل على عَقَبَة قُلاب [1] بِشْر [2] بن عمرو ، زوج الخِرْنِق [3] ، وابنهما عَلْقمة بن بِشْر ، وأخواه حسّان وشرحبيل ، وجماعة من قومهم [4] ؛ فيعصف الأسى ببالغ قوته على الشاعرة عصْفا يزعزع صبرها ويقتلع احتمالها ، ويرمي بها في لُجة الحزن الذي لا يمكن أن تعايش مثيلا له في قادم الأيام ، ومستقبل الزمان ؛ لأنه جاء على أغلى ما تملك وأنفس ما لديها ، ولم يبق لها شيء آخر يمكن أن نحزن عليه كحزنها على ما حلّ بساحتها ، تقول [5] :

ألا أقسمت آسى [6] بعد بِشْر ... على حيٍّ يموت ولا صديق

وبعد الخير علقمةَ بن بشر ... إذا نزَتِ [7] النفوس إلى الحلوق

1- عقبة قلاب : جبل ، وهو من محلة بني سعد على ليلة ، وفي عقبة قلاب قتلت بنو أسد بشر بن عمرو بن مَرْثَد الضبُعي ، قتله عُمَيْلة الوالبي . البكري : معجم ما استعجم ، مج2 ، ج3 ، ص1088 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج4 ، ج7 ، ص78 ــ 79 .

2- بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة . البكري : سمط اللآلئ ، ج2 ، ص780 .

3- سبقت الترجمة لها ، ص57 .

4- انظر : البغدادي : خزانة الأدب ، ج5 ، ص51 .

5- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص25 ــ 26 .

6- آسى : أسيت عليه أسى : حزنت . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أسا) .

7- نزت : النزو : الوثَبان . المصدر السابق ، مادة (نزا) .

وبعـــد بني ضُبيعـــةَ حـــول بشـــر كما مال الجـــذوع مـــن الحريـــق

مَنَـــتْ [1] لهـــمُ بوالبـــةَ [2] المنايـــا بجنب قُـــلاب للحَيـــنْ [3] المســـوق

فكم بقُلاب من أوصال [4] خِـــرْق [5] أخـــي ثـــقـــة وجمجمـــة فليـــق

نـــدامـــى للملـــوك إذا لَقـــوهـــم حُبـــوا وسُقـــوا بكأسهـــمُ الرحيق

هـــمُ جدعوا الأنوف وأوْعبوها [6] فما ينساغ لي مـــن بعـــد ريقـــي

تستفتح الشاعرة التعبير عن مصابها بـــ " ألا " ثم بلفظ " أقـــسمت " وكلاهما يفيدان التأكيد ، فماذا تؤكد ؟ تؤكد أنهـــا لن تحزن بعـــد حزنهـــا ذلك على حيّ يموت في مستقبـــل الزمـــان ، لمـــاذا ؟ لأنـــه لـــم يبـــق مـــا ستحـــزن عليه ؛ فقد ذهب المقرّبون منها ؛ زوجها وابنهـــا ، وجماعـــة من قومها ، فتنامى الحزن وبلغ حدَّه ؛ فهان كلّ شيء دونه ! .

1- منت : المَنى : القدر ؛ مناه الله يمنيه : قدره . المصدر نفسه ، مادة (مني) .

2- والبة : موضع بأذربيجان . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج4 ، ج8 ، ص440 .

3- الحين : الهلاك . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حين) .

4- أوصال : المفاصل ، أو الأعضاء ، أو مجتمع العظام . المصدر الـــسابق ، مـــادة (وصل) .

5- خرق : الخرق من الفتيان : الظريف في سماحة ونجدة ، وتخرّق في الكرم : اتسع . المصدر نفسه ، مادة (خرق) .

6- أوعبوها : وعب الشيءَ : استأصله أجمع . المصدر نفسه ، مادة (وعب) .

وقد وجدَتْ على زوجها وجْدا ، أذكى فيها عذوبة تكرار اسمه ثلاثـا ، وكأنها أرادتْ بذلك أن تُوهِم نفسَها ــ ولو للحظات ــ أنها تخاطبه خطابها الزوجيَّ العَفْويَّ الذي يكون بينَها وبينَه في حنايا بيتهما ، وتنتقل إلـى ذِكْـر ابنها الذي سمّته " الخير " بما يحوي هذا الاسم من فضائل ، ولو أنها وقفـتْ قليلا لترقّبنا بدلاً يدلنا على هذا " الخير " ، أو عطف بيان يفسّر لنا المقصود به ، فيظهر لنا المعنى جليّا وضّاء ، وهذا ما فعلته ؛ إذ سكبتْ لنا في الكأس ما توقعّناه منها ، فباحت باسم ابنها مجاورا لاسم أبيـه ؛ فوضـعتِ الفـرع جانبَ الأصل ، ثم اشترطتْ لابنها موقفا عرَفته وثّابا إليـه ؛ عنـدما تثِـبُ النفوس إلى الحلوق هلَعا من الحرب ؛ فيفرّجها ويكشف غمارها ، وتتقدّم إلى بني ضُبيعة ؛ قوم زوجها ، فتصف مصرعهم مجدلين كأنهم جـذوع نخـل أصابها حريق فأمالها ، وفي هذا وصف دقيق لحال الموتى ولـونهم معـا ؛ فكل منهم مرميّ متمدّد على الأرض ، وقد أحالت الـشمس ألـوانهم إلـى السواد ؛فتشبيهها هذا وتشبيهها السابق لابنها يذكران معنىً بما نزل به الآي الحكيم ، فقوله تعالى [1] : (وبلغتِ القلوبُ الحناجر) ، يرادف قولها : " إذا نزت النفوس إلى الحلوق " ، وقوله تعالى [2] : (كأنهم أعجازُ نخْلٍ مُنقعـر)

1- سورة الأحزاب ، الآية 10 .

2- سورة القمر ، الآية 20 .

يقارب أيضا قولها : " كما مال الجذوع من الحريق " ، وفي هذه دلالة ساطعة على استقامة ألسنة هذه الأمهات اللواتي قلن وولدن مَن يقول قولا مبينا ، يتنزل القرآن العظيم بلسانهم وبيانهم ؛ فيخاطبهم خطابا لا يبعد عن سلائقهم اللغوية التي اعتادوا عليها ، بل يرفدها من معينه بما يؤهلهم أن يكونوا أفصح الأمم .

ويقفنا تعبيرها بلفظ " الجذوع " على البيئة التي تعيشها ؛ فتستعير هذه الصورة من بيئتها التي تدأب على زراعة النخيل ، وإلا فقد يكون من الأحرى أن تصف الواقع بصورة بدَويَّة ، تستعيض فيها عن " الجذوع " بذِكْرَ شيءٍ آخرَ يليق بالبداوة والصحراء .

وتضيف إلى صورة الجذوع المحروقة صورة أخرى ، ترسم فيها مشاهد الأعضاء المبتورة ، والجماجم المفلوقة ، المترامية هنا وهناك على ميدان المعركة ، ولتحسين هذا المشهد المفزع في عين الرائي تعمد إلى إلباس تلك الأعضاء ثياب كرَمِ أهلها وثقتهم ، ومواقفهم عند الملوك قدرا وإكراما .

ثم تختتم ببيانٍ أكثرَ إيضاحا لمكانة أهلها بأنهم كانوا أنوفا أي سادة مطاعين في قومهم وخصّتِ الأنوف لأنّ الحميّة والغضب والأَنَفَة يبدو في

شممها وارتفاعها والتعبير بهذا التشبيه مشهور بين العرب ، ولا أشهر من قول الحطيئة يمدح [1] :

قومٌ هم الأنْفُ والأذنابُ غيرُهمُ ومَن يسوّي بأنفِ الناقةِ الذَّنبَا

وببوْنهم عنها دخلها من الفزع والخوف ما جعلها تتوجّس عواقب ما قد تصير إليه من سوء الحال ؛ من أجل ذلك جفّ ماء حلقها استجابةً لداعي ما شعَرتْ به .

وترسم لنا ببيتين آخرين مشهد المأتم الذي أُقيم لتأبين زوجها ؛ تقول [2] :

وبِيضٍ قد قعدْنَ ، وكلُّ كُحْل بأعينهن أصبح لا يليق

أضاع بُضُوعَهنّ [3] مُصاب بِشْرٍ وطعنةُ فاتكٍ فمتى تفيق

الواو في " وبيض "واو ربّ للتكثير ؛ فلا يتفق هنا أن تكون للتقليل ، لأنّ في هذا إنقاصا لشأن المرثي ، وهذه البيض قد أقعدهن من قيام هولُ الفجيعة بمقتل بِشْر ، فبكين وسالَ ماؤهن غزيرا من عيونهن الكحيلة ، فساح الكحل على وجناتهن في مشهد يمتزج فيه سواده بخدودهن البيض ، المفعمة بماء الشباب ورونقه ، في وقت يأملن فيه المهور الغالية بسبب عزتهن

1- الحطيئة ، جرول بن أوس : ديوانه ، ط1 ، رواية وشرح : ابن السكّيت ، دار الفكر العربي ، بيروت ـ لبنان ، 2001 م ، ص34 .

2- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص28 .

3- بُضُوعَهُنّ : جمع بُضْع : النكاح . انظر: ابن منظور : لسان العرب ، مادة(بضع).

لوجود بشر ، ولكنّ مصابه أذلهن بعد عزّة ، فرخُصت مهورهن ، فـأنكرت الشاعرة باستفهامها : " فمتى تفيق " خلاصَهنَّ من تلك الحال .

ويظلّ الحزن في فؤاد زينب [1] اليشْكُريّة متجدّدا لا ينقطـع ، تُذكيـه الحسرة كما تُذكي الريح النار إذا خبَت ؛ فترى نفسها موقنة ببصيرتها أنهـا كقطيعٍ حيل بينَه وبين إلفِه الذي هو من جنسه ، يطمئنّ بقربه ، ويرتاح إلـى أُنسه وينعَم في ظلّه فغادره في صحراء واسعة البطون ، بعيدة الأرجـاء ، لا يُهتدى من ضلالها ، تقول راثية زوجها [2] :

علـى مالكِ بنِ الفِنْدِ أُرزاه حسرةٌ تجـدّد لـي حزنـا إذا قلـتُ ولّتِ

أراني كسِـرْبٍ حيل عنـه أليفُـهُ قوافِزُهُ [3] في مَهْمَهِ [4] الخَبْتِ [5] ضلّتِ

1- هـي " زينـب بنت مهرة بن الرائد اليشكرية ، شاعرة من شـواعر العـرب فـي الجاهلية ، حارب زوجها مالك بن فنده بن شيبان في حرب البسوس ، حتى قتل " . عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي الجاهلية والإسلام ، ج2 ، ص119 .

2- بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص61 . وانظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي الجاهلية والإسلام ، ج2 ، ص119 . عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص150 . عبد مهنا : معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ، ص117 ـ 118 . عمر الأسعد : ديوان رثاء الأزواج ، ص175 . عزيزة فوال : معجـم الشعراء الجاهليين ، ص161 . عبد الحكيم الوائلي : موسوعة شاعرات العـرب ، ج1 ، ص260 .

3- قوافزه : الخيل التي تثب في عدوها . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قفز) .

4- مهمه : المفازة البعيدة . المصدر السابق ، مادة (مهه)

5- الخبت : ما اتسع من بطون الأرض . المصدر نفسه ، مادة (خبت) .

ويكون من المتوقع لنا أيضا أن تتعرض الشاعرات وهنّ ينـدبن أزواجهن إلى ذكر الليل ؛ لأنه الوقت الذي يخلو فيه الإلف بألفه ، فيتهامسان فيه بما يحلو لهما من لذيذ الكلام ، والسرير واحد ، واللحاف مشترك ، فهـا هي سهية [1] زوج شداد العبسي تصف لنا حال مات عنها زوجهـا فحرمـت مما كانت تنعم به ، وجنّ الليل عليها ، فمدّت يدها إلى مكـان نومـه مـن سريرها ، فَوَجَدَتْهُ خاليا ، فأوجستْ بجفاء النـوم عـن مقلتيهـا ، وأحـستْ بهملان الدموع من عينيها ، تقول [2] :

جفانـي الكرى [3] وأنا في الغسقْ [4] وساعدنـي الدمـع لمّـا اندفـقْ

لفقـدِ هُمـامٍ مـضـى وقضـى وقـد زاد منّـي عليـه القلـق

فمَن بعـد شدادَ يحمـي الحريـم إذا الحـربُ قامتْ وسال العـرَق

1- هي سهية أو سمية زوج شداد بن معاوية بن قراد العبسي ، خالة عنترة بن شـداد . انظر : عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج2 ، ص226 . بـشير يمـوت : شـاعرات العرب ، ص65 . عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، ص182 .

2- الخنسـاء ومراثـي ستيـن شاعـرة ، ص159 . بشيـر يموت : شاعرات العرب ، ص65 ــ 66 . عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ص266 . عبـد البـديع صـقر : شاعرات العرب ، ص172 . عبد مهنا : معجم النـساء الـشاعرات ، ص137 . عبـد الحكيم الوائلي : موسوعة شاعرات العرب ، ج1 ، ص323 . : عفيف عبد الـرحمن : ديوان شعر الأيام ، ص351 .

3- الكرى : النوم والنفاس . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كرا) .

4- الغسق : أول الليل . المصدر السابق ، مادة (غسق) .

ومن يردعُ الخيلَ يومَ الوغى ومن يطعنُ الخصمَ وسطَ الحدَق [1]

ومن يكرم الضيفَ في أرضِهِ ومن للمنادي إذا ما زعَق [2]

لقد صرتُ مِن بعدِه في ضنى [3] وقلبي لأجلِ الفراق احترقْ

تساعدنا كلماتها " جفاني ، الدمع ، اندفق ، القلق ، ضنى ، احترق " على وْصفِ حالتها النفسية بكلّ ما تحمل هذه الدوّال من مدلولات ؛ فهي مسهّدة الطرف ، باكية العين ، قلقة الحال ، مُضنية الجسم ، مشتعلة الوجدان ، على فراق زوجها المحامي عن الأعراض ، الماهر في الطعن ، ذي الكرم والنجدة ، وهذه من عيون المناقب التي تحبّها المرأة في الرجل " ، قيل لابنة الخُسّ [4] : [5] " أيّ الرجال أحبّ إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمْح الحسيب ، الندْب [6] الأريب ، السيد المهيب " ، أما بيت الشاعرة الأخير فقد اختارت أن تزفر به آهاتها وملؤه التأكيد والتحقيق لما آلت إليه من مرض وسقم ، وكيف لجسم أن يصحّ بقلب أحرقته لوعة الفراق ؟ ! .

1- الحدق : جمع حدقة : السواد المستدير وسط العين . المصدر نفسه ، مادة (حدق) .

2- زعق : الزعق : الصياح . المصدر نفسه ، مادة (زعق) .

3- ضنى : المرض . المصدر نفسه ، مادة (ضنا) .

4- ابنة الخس أو الخص : هي هند بنت حابس الإيادي ، وهي الزرقاء . انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص312 ــ 313 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص68 .

5- السيوطي ، عبدالرحمن ، جلال الدين ، (ت911هـ) : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، د.ط ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ج2 ، ص541 .

6- الندب : رجل ندب : خفيف في الحاجة ، سريع ظريف . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ندب) .

الفصل الخامس

الرثاء القبلي

أولا : الرثاء الجماعي :

لم تكن الشاعرات الجاهليات وهنّ يعشن أحداث قبائلهن ليرثين الأفراد المقرّبين منهنّ نسبا حسب ، بل شمل رثاء بعضهن أبناء قبائلهن الذين سقطوا في معمعان الحرب ذوْداً عن القبيلة ؛ أرضها وعرضها ، فبثثن ما شعرْنَ به تجاه فقْد هؤلاء الأبطال ، وعبّرن عن فداحة الخسارة التي تلحق بالقبيلة ، جرّاء ذلك من نقصان في العدد الذي يمثّل قوة دفاع تثبُتُ به أمام المعتدين ؛ " ولذلك شاع في هذا الرثاء البكاءُ على أبطال القبيلة والقَبول بالقدر المقدور ؛ لأن القبائل العربية كلها أو جلها تلتقي في ملتقى واحد هو النزوع الدائم إلى القتال ، والرحيل عن المنازل إلى المقابر ، في موكب لا ينقطع [1] " .

نقرأ من ذلك مقطوعة للخِرْنِق [2] بنت بدْر بن هَفّان ، تجسّد فيها تلاحم قومها ، وقوتهم في درء أعدائهم عنهم ، وسلوكهم الأخلاقية فيما بينهم ، تقول [3] :

لا يبعدن قومي الذين همُ سمُّ العُداة و آفة الجُزْرِ

1- غازي طليمات ، و عرفان الأشقر : الأدب الجاهلي ، ط1 ، دار الإرشاد ، حمص ــ سورية ، د.ت ، ص202 .

2- سبقت الترجمة لها ، ص .

3- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ط1 ، تحقيق : يُسْري عبد الغني عبدالله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، 1410هـ ــ 1990م ، ص43 ــ 46 .

النـــازلـــون بـــكـــلّ مُـــعـــتـــركٍ والطيـــبـــيون مـــعـــاقـــدِ الأُزُرِ

إن يشربـــوا يهبـــوا وإن يدعـــوا يتواعظـــوا عـــن منطـــق الهجـــر

قـــوم إذا ركـــبـــوا سمعـــت لهـــم لغطـــا [1] مـــن التأييـــه [2] والزجـــر

والخالطين نحيتهـــم [3] بنضارهـــم [4] وذوي الغنى منهـــم بـــذي الفقـــر

هـــذا ثنائي مـــا بقيـــت عليهـــم فـــإذا هلكـــت أجننـــي [5] قبـــري

تستهل رثاءها إياهم بدعائها لهم : " كأنها قالت : لا يبعد الله قومي النازلين [6] " بساحات الحروب ، وتلجأ إلى التشبيه البليغ ؛ فتشبههم بسمّ العُداة ، وكأنهم أفعى ذات سمّ قاتل يقضي على الملدوغ قضاءً محتوما ، ثم إنهـــم هُـــمْ آفـــة الجزر لكثرة ما ينحرون لإكرام ضيوفهم ، وقد أحسنتْ عطف " آفة الجزر " على " سمّ العداة " فكلا الأمرين هو جزْرٌ في الواقع ؛ فهم يقطعـــون رقـــاب أعدائهم في الحرب ، وهم يذبحون الجزور لضيوفهـــم ، وكأنهم آفـــــة أي عِلّةٌ تقضـــي على مـــا أرادوا القضـــاء عليه من رقاب فلا تبقى .

1- لغطا : الأصوات المبهمة المختلطة ، والجلبة لا تفهم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لغط) .

2- التأييه : الصوت ، أيهتُ بفلان تأييها إذا دعوته وناديته . المصدر السابق ، مـــادة (أيه) .

3- نحيتهم : الدخيل في القوم . المصدر نفسه ، مادة (نحت) .

4- نضارهم : الخالص من كل شيء . المصدر نفسه ، مادة (نضر) .

5- أجنني : جن الشيء يجنه جنا : ستره . المصدر نفسه ، مادة (جنن) .

6- المرزباني : أشعار النساء ، ص106 .

ثم تنتقل إلى وصف مكانٍ محدّد من أجسادهم هو مكان معاقد الأزر ؛ حيث يعقد الرجل إزارَه عند سُرَّتِه ؛ فتصف ذلك المكان بالطيب كنايةً عن عِفَّة فروجهم التي لا تأتي الفاحشة ، وهي بهذا الكلام أيضا تدلنا على بعض أنواع الكسوة العربية التي كان يلبسها العرب في جاهليتهم ، ومن بينها الإزار [1] .

تلك غريزة الشهوة لديهم مَصونة بالعفّة ، أما غريزة البطن فيهم فلا أَثَرَةَ لها بطعام أو شراب دون جماعتهم ، فهم إذا شربوا انتَشَوْا ؛ فوهبوا وأعطوا ، وإذا أمسكوا عن الشرب ؛ تناصحوا بعدم الفحش في الكلام ؛ فطهُرَتْ أفواههم كما طهرت أنسابهم ، وهم من كثرة العدد ما يجعلك تسمع لهم جَلَبَةً وأصواتا مبهمة لا تعرِف لها مصدرا إلا مصدرا لهُمْ جميعا ، حتى ليتخيلهم المرء أنهم يسيرون في صفوف يصاقب بعضها بعضا ، ويقارب أولها آخرَها ، مقاربة الخيوط في الثوب الواحد ؛ فلا مكان فيه لخرْق يحتاج إلى رقْع . ويبدو من هذا فخر الشاعرة بكثرة قومها وتعاضدهم .

وتُجَلِّي هذه الأبيات مَنْقبة أخرى لهم هي المساواة وعدم ظهور الطبقيّة بينهم ؛ فلا تمييز بين أصيل النسب بالقبيلة ، وبين الدخيل عليها ، وبين الغني وبين الفقير ؛ فنسبهم واحد هي القبيلة ، ومالهم مشترك بين

1- انظر : الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج3 ، ص460 .

أفراد القبيلة أيضا . ثم تختتم بأن ثناءها بـــاق فيهم تـــدأبُ على نـــشـــرِه ، والتغنّي بـــه ، فإذا ماتـــت قام عذرُهـــا في ترك الثناء عليهم .

وتُؤبِّن عاصية [1] البولانيّة بعض من قتل من قومهـــا بالـــدموع المنهمـــرة ، مازجةً رثاءها بالهجاء والانتقاص من قاتليهم ؛ تقول [2] :

أعاصي جودي بالدموع السواكـــب ... وبكـــّي لك الويلات قتلى محارب [3]
فلـــو أن قومـــي قتّلتهـــم عمارة [4] ... من السروات [5] والرؤوس الذوائب [6]
صبرنـــا لما يأتي به الدهر عامدا ... ولكنمـــا أثـــآرنـــا [7] في مُحـــارب
قبيـــل لئـــام إن ظهرنـــا عليهـــم ... وإن يغلبونـــا يوجـــدوا شرَّ غالب

1- هي عاصية من بولان بين غصين بن عمرو بن الغوث بن طيء . عدتها المراجـــع المتأخرة جاهلية ، وهذا ما أميل إليه ؛ بآية ما تشي به لغة الأبيات وأسلوبها ، ومـــا يـــنم عنه الموقف من أثآر بين القبائل العربية قبل الإسلام ، فضـــلا عـــن كـــــون شـــعرها مقطوعة توافـــق جل شعر بنات جلدتها . انظر : التبريزي : شرح ديـــوان الحماســـة ، لأبي تمام ، ج2 ، ص921 . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص400 . وانظـــــر : عفيف عبد الرحمن : معجم الشعراء الجاهليين ، ص141 . عزيزة فوال : معجم الشعراء الجاهليين ، ص205 . عبد مهنأ : معجم النساء الشاعرات ، ص169 .

2- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج2 ، ص921 ــ 922 .
والأبيـــات لـــ " امرأة من طيء " في شـــرح المرزوقي لديـــوان الحماسة لأبـــي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1548 ــ 1549 .

3- محارب : قبيلة من فهر . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حرب) .

4- عمارة : حي عظيم يطيق الانفراد . التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبـــي تمـــام ، ج2 ، ص921 .

5- السروات : الرؤساء . المصدر السابق ، ج2 ، ص921 .

6- الذوائب : الأعالي . المصدر نفسه ، ج2 ، ص921 .

7- أثآرنا : جمع ثأر . المصدر نفسه ، ج2 ، ص922 .

تنادي نفسها باستخدام أداة النداء " أ " وهي تدلّ على قرب المنادى منها ؛ فلا أحد أقرب إليها من نفسها ، قاصدة بأسلوب النداء التنبيه والتنويه لعظم رزيتها بقومها ، ثم ترخّم اسمها " عاصي " وفي الترخيم ما يدلّ على السرعة أو المرض ، وهي هنا إلى المرض ألصق منها بالسرعة ؛ لأن الحزن عاطفة مشبوبة متوتّرة تصل أحيانا إلى حدّ المرض نتيجة موت عزيز غال على الإنسان ، ثم تطلب من نفسها أن تكون كريمة بسكب الدموع وهو طلب النفس من النفس ؛ فتبالغ في الطلب بالفعل " بكّي " ؛ لتستمطر أكثر ما تستطيعه من ماء شؤونها ، ثم هاهي تُفصح عما أورثها المصاب بقولها : " لك الويلات " أي : " الحزن والهلاك والمشقة من العذاب 1 " الذي ضاعفه عليها أن قاتلي قومها ليسوا من أندادهم الأكفاء ، بل هم من قبيلة " مُحارب بن خَصَفَةَ بن قَيْس عَيْلان ، قبيلة محقورة عند العرب 2 " ، " فإن ظفر قومها بهم لم يستحقّوا الافتخار للؤم عدوّهم ، وإن هم غلبوا قومها وُجِدوا شرَّ غالب 3 " . يقول امرؤ القيس 4 :

1- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ويل) .

2- الأندلسي : نشوة الطرب ، ج2 ، ص526 .

3- انظر : التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج2 ، ص922 .

4- امرؤ القيس: شرح ديوان امرئ القيس ، ط7 ، شرح : حسن السندوبي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ــ لبنان ، 1402هـ ــ 1982م ، ص49 . وانظر : امرأ القيس : ديوانه ، شرح : محمد الاسكندراني ، و نهاد رزق ، ص57 .

وإنـــك لـــم يفخـــرْ عليـــك كفاخـــرٍ ضعيـــفٍ ولم يغلبْكَ مثـــلُ مُغَلَّـــبِ

وكفى بقولها : " فلـــو أن قومـــي قتّلتهـــم عمارة " أنْ يذكّرنا كذلك بالمثـــل العربي الذي يقول : " لـــو ذات سوار لطمتني . وأصله أن امـــرأة لطمـــت رجلا ؛ فنظر إليها فإذا هي رثّة الهيئة عاطل [1] " ، فقال المثل .

وتُفجـــع سارة [2] القُرظيـــّة بقومها مـــن يهود عندمـــا يقتلهم أبـــو جُبَيْلَة [3] بذي حُرُض [4] ، تقول [5] :

بنفســـي أمـــة[6] لـــم تغـــنِ شيئـــا بـــذي حُـــرُض تُعفّيها [7] الريـــاحُ

1- العسكري : جمهرة الأمثال ، ج2 ، ص193 . وانظر : البكري : فـــصل المقـــال ، ص381 . الميداني : مجمع الأمثال ، ج2 ، ص202 .

2- شاعرة جاهلية كانت من يهود يثرب من بني قريظة من ولد الكاهن بن هارون بـــن عمران أخي موسى بن عمران . انظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج22 ، ص77 ــ 81 .

3- أبو جبيلة الغساني ، أحد ملوك اليمن . انظـــر : الأصـــفهاني : الأغـــاني ، ج22 ، ص79 . البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص439 . الحموي ياقوت : معجـــم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص136 .

4- ذي حرض : وادي يليل بالمدينة عند أحد . انظر البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص439 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص136 .

5- الأصفهاني : الأغاني ، ج22 ، ص80 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلـــدان ، مج2 ، ج3 ، ص136 .

6- أمة : وردت في الأغاني بالرفع وأميل إلى نصبها بفعل محذوف تقديره أفدي ؛ فهـــو أنسب لموقف الرثاء .

7- تعفيها : عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عفا) .

كـــهـــولٌ مـــن قريـــظـــة أتلفتهـــا سـيـــوفُ الخزرجيـــةِ و الرمـــاحُ

رُزِئْـــنـــا والرزيـــةُ ذاتُ ثـــقْـــلٍ يَمُـــرُّ[1] لأهلهـــا المـــاءُ القَـــراحُ[2]

ولـــو أُربُـــوا[3] بأمرِهـــمُ لجالـــتْ هنالـــكَ دونَهـــمْ جَـــأْوا[4] رَداحُ[5]

يُحكى أنه " لما استولى اليهود في الزمن القديم على المدينة ، وتغلّبوا عليها كان لهم ملك يقال له الفِطْيُون ، وقد سَنَّ فيهم سنَّةً ألا تدخل امرأة على زوجها حتى يكون هو الذي يفتضُّهـــا[6] قبلَـــه فبلـــغ ذلك أبا جُبَيْلَةَ أحدَ ملوك اليمن فقصد المدينة وأوقع باليهود بذي حُرُض وقتلهم " .

" تبكي أمَّتَها التي لم تعدْ تملك من أمرها ولا من أمر غيرها شـــيئا ، ولم تستطع أن تدفع عنها ما رُزِئَتْ به ، وسارةُ جزِعة أيضا ؛ لأن قومها لم يتدبّروا الأمرَ قبل وقوعه ، ولم يفطِنوا لما كان يُبيّت لهم وقد زعمت أنهم لو

1- يمر : مر الشيء يمر . المر نقيض الحلو . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مرر) .

2- القراح : الماء الذي لم يخالطه شيء . المصدر السابق ، مادة (قرح) .

3- أربوا : أرب بالشيء : درب به وصار فيه ماهرا ، فهو أرِبٌ . المصدر نفسه ، مادة (أرب) .

4- جأوا : تخفيف جأواء : كتيبة جأواء : عليها صدأ الحديد وسواده . المصدر نفـــسه ، مادة (جوأ) .

5- رداح : كتيبة رداح : ضخمة . المصدر نفسه ، مادة (ردح) .

6- الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج 2 ، ج3 ، ص136 .

بصروا بأمرهم مع ما في حوزتهم من العدة والعتاد ما وقع الذي وقع ، وما كانوا أحيط بهم [1] " .

ويمكن وصف أبياتها ببُعدٍ دَلاليٍّ آخرَ ؛ فهي تبدأ مفدِّيةً قومها بنفسها ، وتسمِّيهم " أمّة " ، و " كلُّ جِيلٍ من الناس هم أمّة على حِدَة ، والجنْس من كلّ حيَ [2] " . وفي القرآن الكريم : (... لَيْسُوا سَواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أمّة ... [3]) ؛ فميّزتِ الشاعرة بلفظ " أمّة " جنسَها اليهوديَّ عن سواه ، الذي لم يعدْ يملك شيئا يدفع به القوة الهائلة التي اقتلعتهم ؛ فأفنتهم ، وهي " الرياح " ، وتقصد بذلك جيش أبي جُبيلة والخزرج بالمدينة ، ولم يغن قومها كونهم كهولا ذوي عقل وتجربة ؛ ليسوا بأحداث ، من تدبير وسيلة مُحكمة لنجاتهم ، بل وقعوا في شرَك القضاء المحتوم ؛ لذلك ثقلت عليها المصيبة ، وذاقت مرارة الفجيعة ، وتمنَّت لو فطنوا لما دُبِّر لهم ؛ فخاضوا عَوان الحرب بكتيبتهم الضخمة المتحصِّنة بالحديد .

ولموقع يهود يثرب بين ظهراني العرب لم تتعرض الشاعرة لقاتلي قومها بهجاء أو تعريض بانتقاص ، وآثرت عدْمَ تهييجهم ؛ حرْصًا على حياة

1- أحمد محمد النجار : شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، د.ط ، دار النهضة العربية ، 1978م ، ص69 .

2- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أمم) .

3- سورة آل عمران ، الأية 113 .

مَن بقيَ منهم ، يقول الله عزّ وجلّ في اليهود : [1] (ولَتَجِدنَّهمْ أحرصَ النـــاسِ على حياة ...) .

وتقِف رَيْطَة [2] بنت عاصِم بدارِ عشيرتها ، وربما كانت غائبةً عنهـــا ، فـــإذا بالبواكي حاسراتِ الرؤوس ، فيفجؤها الحال ؛ فتقول [3] :

وقَفــتُ فأبكتني بـــدارِ عشيرتـــي على رُزئهنَّ الباكيـــات الحواســرُ

غَـــدَوْا كسيوفِ الهندِ وُرادَ حومَةٍ[4] من الموتِ أعيا وِردَهُنَّ المَصادِرُ

1- سورة البقرة ، الآية 96 .

2- هي ريطة بنت عاصِم فقط في شرحَيْ المرزوقي و التبريزي لديوان حماسة أبي تَمّام ، والمنازل والديار لأسامة بن مُنقِذ . وفي أعلام النساء لعمر رضا كَحّالة : " شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية " وفي شواعر الجاهلية لرغداء ماردِيني : " ويبدو أن قولهـــا كانَ في يومٍ من أيامِ العرب في الجاهلية " .

انظر : المرزوقي : شرح ديـــوان حماســـة أبـــي تمـــام مـــج 2 ، ج 3 ، ص 1100 .

التبريزي: شرح ديوان حماسة أبي تمام ، ج 1 ، ص 681 . ابن منقذ المنازل والديار ، ص 278

وانظُر عمر رضا كحّالة : أعلام النساء ، ج 1 ، ص 477 . رغداء ماردِيني : شـــواعر الجاهلية ، ص 72 .

3- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمـــام ، مـــج 2 ، ج 3 ، ص 1100- 1102 .

وانظُر : الفرزدق : ديوانه ، ج1 ، ص216 ، تنسب الأبيات إليه ، وأرجح أنها لريطـــة المذكورة ؛ بدليل أن كلا من المرزوقي والتبريزي وابن منقذ قد نـــسبوها إليهـــا ، ولـــم يتعرضوا بالإشارة إلى نسبتها للفرزدق ، كما أن لغة الأبيات تقربنا من كونها لـــشاعرة ؛ ألا نرى أن الشاعرة قد أوقفتها الباكيات الحواسر ؛ فأبكتها ، وهذا ما لا يليـــق أن يقولـــه رجل كالفـــرزدق إذ يكـــون من الأحـــرى بـــه أن يقصد مكان الرجال لا أن يقصد مآتم النساء . التبريزي ، ج1 ، ص 681-682 . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص 287 .

4- حومَة : حومة القتال : مُعظَمُه وأشد موضعٍ فيه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حوم) .

فوارِسُ حامَوْا عن حريمٍ[1] وحافظوا بـــدارِ المنايـــا والقنـــا متشاجِرُ[2]

ولو أنَّ سَلمى[3] نالَها مِثـــلُ رُزئِنـــا لَهُدَّت[4] ولكـــن تَحمِلُ الرُزءَ عامِرُ[5]

تقـــف بدار عشيرتهـــا فيشُجيها بكـــاءُ الباكيـــات وهـــنّ حواســـر ؛ كاشفات الـــرؤوس والذراعيـــن [6] في مشهـــد مأتميٍّ جماعـــيٍّ ؛ فـــيحملن الشاعـــرة علـــى البكـــاء معهـــن ، وكأنّ وقوفهـــا كان بـــإرادة منهـــا ، بينمـــا كان بكاؤهـــا لسبب خارجيٍّ فـــرَضَ نفسَـــه عليهـــا ؛ فلم تـــستطـــعْ دفعـــَه لغلبتِـــه عليهـــا فبكـــتْ على رجـــال عـــشيرتهـــا الذيـــن " ابتكـــروا في خِلَقِهـــم وتجرُّدهـــم وصفائهـــم ونفاذهم كسيـــوف الهنـــد [7] " فوردوا أشـــدَّ موضعٍ مـــن المعركـــة ، فلم يتمكّنـــوا من الـــصدور عنـــه وأعجزهـــم ذلك منـــه ؛ فهلكـــوا ! وبهلاكهـــم عـــزَّ المحامـــي عـــن

1- الحريم : الذي حرُمَ مَسُّه فلا يُدنى منه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حَـرُم)

2- متشاجر : متداخل . المصدر السابق ، مادة (شجر) .

3- سلمى : على وزنِ فَعلى : سُمِّيَ باسمِ المرأة التي نزلته ، وهو أحـد جبلَـيْ طـيء ، البكري : معجم ما استعجَم ، مج 2 ، ج 3 ، ص 750 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مـج 3 ، ج 5 ، ص60 .

4- لهُدَّت : الهَدُّ : الهدم الشديد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هدد) .

5- عامر : أبو قبيلة ، وهو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازِن . المـصدر السابق ، مادة (عمر) .

6- انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (حسر) .

7- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1101 .

حرمات العشيرة ، حالَ الرماح متداخلة ، مُشيرة بذلك إلى " أنّ للطعن تلاحقاً كما أن للقنا في الاختلاف تداخلا [1] " .

ثمّ تعقد مقارنة في الصبر والاحتمال بين " سلمى " ؛ الجبلِ ، وبين قومها بني " عامر " ، فتضَعُ من احتمال الجبل بقولها " فَهُدَّتْ " ، وترفع من احتمالِ وصبْرِ قومها بقولها : " تحمِل الرزْءَ " . وفي هذا بيان لما في اتحاد العشيرة مِن تماسكٍ وثباتٍ يفوقان ثباتَ الجبال وصلابتَها .

وتستفتح ذِئْب [2] ابنة نُشْبَة تأبينها قومَها بـ " ألا " ؛ لتنبِّهنا إلى الرُّزْء الذي دهمَهم ونزل بساحتهم ، فتقول [3] :

ألا إنّ يومَ الشرِّ يومٌ بصُورةٍ [4] ويومُ فناء الدمعِ لو كان فانيا

1- المصدر السابق ، مج2 ، ج3 ، ص1102 .

2- هي ذئب ابنة نشبة بن لأي أو ذبية بنت بيشة الفهمية . انظر السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج3 ، ج5 ، ص210 .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج3 ، ج5 ، ص210 .

4- يوم صورة : يوم لبني قريم بن صاهلة على بني لأي من فهم بمكان في صدر يلملم من أراضي مكة . انظر السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص839 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج3 ، ج5 ، ص210 .

لعمـــري لقد أبكتْ قُرَيْمٌ [1] وأوجعوا بجَزْعَة [2] بطْنِ الغيل [3] من كان باكيا

قتلتـــم نجوماً لا يُحوّل ضيفُهـــم و لا يذخـــرون اللحـــمَ أخضَرَ ذاويا

قُروما [4] يَكبُون المَخاض [5] على الذُّرى ويوفُـــون بالشحـــمِ القُدورَ الغواليا

عمادُ سمائـــي أصبحتْ قد تهدمتْ فخـــرِّي سمائـــي لا أرى لكِ بانيا

تُنبِّه إلى خَطْبها ، ثم تؤكّد بـــ " إنّ " الشرّ كلّ الشرّ قد تَمثّل واقعـــاً في " يومِ صورة " ؛ يوم قُتل قومها ؛ فجرى الدمع حزنا على فقـــدهم جريـــا غزيرا جعلها تشعر بفنائه لكثرة ما هراقته من دموع ، كمـــا حملهـــا علـــى الإحساس بعدم إمكانية تكرارِه ، ثم تُقسم " لعمري " ، وتؤكّد وتحقّق بـــــ " لقد " " أبكتْ أي سبّبتِ البكاءَ بنو " قُريم " فأوجعوا قلوبا بمن أصـــابوا مـــن قومها نجومِ الرفعة ، الذين لا يُنافسون في السيادة والشهرة بالكرم ؛ لأنهـــم غير حِراص على مالِهم بدليل أنهم " لا يُحوّل ضيفُهم " عـــن أبـــوابهم إلـــى أبواب سواهم ، ولا يدّخِرون القَديد في بيوتهم لأنّ اللحم عندَهم يُؤكل حـــين ذبحه ، وكيف يبقى وصفايا إبلهم تنحر إبّان حبلها على الـــشوامخ ؛ ليهتـــدي

1- قريم : قريم بن صاهلة بن كاهل : حـــي . انظر : السكـــري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص197 . ابن منظـــور : لـــسان العرب ، مادة (قرم) .

2- جزعة : جزع الوادي : جانبه ومنعطفه . المصدر السابق ، مادة (جزع) .

3- الغيل : الشجر الكثير الملتف . المصدر نفسه ، مادة (غيل) .

4- قروما : جمع قرم : السيد العظيم . المصدر نفسه ، مادة (قرم) .

5- المخاض : الحوامل من النوق . المصدر نفسه ، مادة (مخض) .

الضيف إلى نار القرى [1] فيأكلون من قدور معدودة عهدتِ الوفاءَ منهم بسبب ما يطبخون فيها من شحمٍ كنايةً عن سمين الجَـزور وكثـرة لحمهـا ؛ لأنّ الجزور إذا صادفت مرعىً خصبا ألحمتْ فكثر شحمُها .

ثم تختتم بأنها كانت في عزٍّ رفيعٍ لوجود قومها ، لكنّ الحال قد تبدّل بقتلهم فذلّ بعد عزّة ، ووقَع بعد رفعة بسبب تهدُّم الأعمدة ، ولا سبيل إلـى من يرفع العزَّة مكانَها الأول ؛ لذهاب الرجال .

ويعصف الخلاف والقتال بين قوم أُمامة [2] بنت ذي الإصبُع العَدْواني ، فترى قومها يقتل بعضهم بعضا ؛ فينكشفون عن قلة في العدد بعد كثـرة . تقول [3] :

1- نار القرى : يوقدها الجواد الليل كله في ليالي الشتاء وغيرهـا ؛ ليـستـدل بهـا الأضياف . الأندلسي : نشوة الطرب ، ج2 ، ص800 .

2- هي أمامة بنت ذي الإصبع العَدواني حرثان بن محرث بن ثعلبة بن سيار بن ربيعة ، أحد بني عَدوان ، وهم بطن من جديلة ، حكيم شاعر فارس من قـدماء الـشعراء فـي الجاهلية ، وسبب لقبه بذي الإصبع أن حية نهشته على إصبعه فشلت ، فسمي بذلك ويقال : إنه عاش مائة وسبعين سنة ، ولأمامة ابنته هذه يقول ورأته قد نهض فسقط ، وتوكـأ على العصا فبكت ، فقال :

جزعت أمامة أن مشيت على العصا ... وتذكـرت إذ نحـن م الفتيـان

لا تعجبـن أمـام مـن حدث عرا ... فالدهـر غيرنـا مـع الأزمان

انظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج2 ، ص697 . الأصـفهاني : الأغـاني ، ج3 ، ص62 و 75 ــ 76 . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص170 . المرتضى : الأمـالي ، ج1 ، ص243 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج3 ، ص75 .

كم مـــن فتىً كانـــت لـــه مَيْعَـــةٌ [1] أبـــلـــجَ مـــثـــلِ القمـــرِ الـــزاهـــرِ

قـــد مـــرَّتِ الـــخـــيـــل بحافاتِـــهِ كـــمـــرِّ غـــيْـــثٍ لَـــجِـــبٍ ماطـــرِ

ترى القلة في قومها ؛ فتتذكر كثرتَهم ؛ من أجل هذا تبـــدأ رثاءهـــا إياهم بـــ " كم " الخبرية التكثيرية [2] ؛ لتدلنا على عدد قبيلتهـــا فـــي الزمـــان الماضي ، إذ " كانت " تزخر سماؤها بالفرسان الشباب ذوي الوجوه المشرقة كإشراقة القمر ؛ لما يجري فيها من رونـــق الشباب ونضارته ، وقد خبـــروا مرور الكتائب ورجالها ، واختلطوا بـــصخبها ؛ مـــن هَمْهَمَـــــة فرســـان ، وحَمْحمـــة خيول ، وصليـــل سيوف ، وقعقعة حديد ، وكأنّ مُعتـــركهم بمـــا فيـــه من جيَشَـــانٍ وثورانٍ سحابـــةٌ ذات قصْـــفٍ تَجِفُ منه القلوب ، وبرْق يخطف الأبصار . ثم تحقّق لنا الواقع الذي آل إليه قومها :

قـــد لقيـــتْ فَهْـــمٌ [3] و عَدوانهـــا [4] قـــتْـــلا وهُـــلـــكـــا آخـــر الغابـــر

كانـــوا ملوكـــا ســـادة في الـــذرى دهـــرا لهـــا الفخـــر على الفاخـــر

1- ميعة : ميعة الشباب : أوله وأنشطه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ميع) .

2- انظر : ابن هشام : مغني اللبيب ، ص207 .

3- فهم : قبيلة أبو حي ، وهو فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان . ابن منظور : لـــسان العرب ، مادة (فهم) .

4- عدوانها : بطن من جديلة ، وهو عدوان بن عمرو بن سعد بن قيس بـــن عـــيلان . الأصفهاني : الأغاني ، ج3 ، ص62 .

حتـــى تساقَـــوْا كأسهـــم بينهـــم بغيـــا فـــيـــا للـــشـــارب الخاســـر

تُفيـــد أبياتهـــا بأنّ قومهـــا قد قتـــل بعضهـــم بعضا ، وهـــم مـــن جرثومة واحدة ؛ قَيْس بن عَيْلان ؛ يُجلِّي ذلك قولها : " فَهْم وعَدْوانها " دليل على وَحْدَة النسب لكـــلا الحيَّين ، ويظهر تحسُّرها على ما فاتَ مـــن أيـــام اجتماع شملهم ؛ أيام كانوا ملوكا يفخرون على غيرهم بوَحْـــدتهم وأُلفـــتهم ، حتى تساقوا المنايا بينهم من كؤوس الظلم فوقعت عليهم الخسارة ؛ فانـــصدع جدارهم بعد التئام ، واندثرت أوطانهم بعد عمران :

بـــادوا فـــمـــن يحلـــل بأوطانهـــم يحلـــل بـــرســـم مقفـــر داثـــر .

وتنشب حرب الفِجار الآخر [1] ، فيسقط فيها صرعى مـــن قـــريش ، وأُميمة [2] بنت عبد شمس ترقُب الحدَث ؛ فيهولها الأمر ويـــسوؤها الحـــال ؛ فترى الليل عليها طويلا ، فتبيته سميرةَ الهموم والنجوم ، تقول [3] :

أبـــى لـــيـــلـــك لا يـــذهـــب ونـــيـــط [4] الـــطـــرف بالكوكـــب

1- حرب الفجار الآخر : بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن . أبو عبيدة : أيام العـــرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص506 .

2- أميمة بنت عبد شمس بن عبد مُناف . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإســـلام ، ج2 ، ص525 . الأصفهاني : الأغـــاني ، ج22 ، ص38 ــ 39 و 53 . ابـــن منقـــذ : المنازل والديار ، ص477 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص525 ــ 526 . وانظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج22 ، ص 53 ــ 54 . ابن منقذ : المنازل والديار ، ص477 ــ 478 .

4- نِيط : ناط الشيءَ : علّقه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نوط) .

و نـــجـــم دونـــه الأهـــــوا ل بـــيـــن الـــدلـــو و العـــقـــرب

وهـــــذا الـــصـــبـــح لا يـــأتـــي ولا يـــــدنـــــو ولا يـــــقـــــرب

يمنعها الحزن نومها ، ويتعلق طرفها بالكوكب البعيد ، إشارة إلـــى أن ما تطلبه من أمل في حياة قومها أمسى بعيد المنال ، كبعد الكوكب عنها ، ثم تقلب طرفها من نجم إلى نجم ؛ لعلها تدرك حلا أو نجاة لموقفها تـــأتي مـــن السماء ، والصبح حيث هو لا يتحرك ؛ فينكشف لها عمّا يُمكن أن تتسلى به ؛ فيخرجها من ليلها البهيم الرتيب بسبب :

بـــعـــقـــر [1] عـــشـــيـــرة مـــنـــا كـــرام الـــخِـــيـــم [2] والمنـــصـــب

أحـــــال عـــلـــيـــهـــــم دهـــــر حـــديـــد الـــنـــاب والمـــخـــلـــب

فـــحـــلَّ بـــهـــم و قـــد أمـــنـــوا ولـــم يقصـــر ولـــم يشـــطـــب [3]

ومـــا عـــنـــه إذا مـــا حـــلَّ مـــن منـــجـــىً ومـــن مـــهـــرب

إذن ، فسبب حزنها وذهاب نومها هو قتـــل عشيرتها ، التـــي هـــي منها بدليـــل قولها : " منا " ، ذات الخصال الكريمة ، والرُّتَـــب الـــشريفة ، ولكن لا نجاة لهم من الدهر الذي هجم عليهم هجوم سبُع قاتل ؛ فوقع علـــيهم

1- عقر : يقال : ما رأيت كاليوم عقيرة وسط قوم : للرجل الشريف يقتل . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عقر) .

2- الخيم : الشيمة والطبيعة والخلق والسجية والأصل . المصدر السابق ، مادة (خيم)

3- يشطب : شطب عن الشيء : عدل عنه . المصدر نفسه ، مادة (شطب) .

دون أن يعدل عنهم إلى غيرهم ، بل كانوا مقصده الأوحد ، ولا مناص لهم عنه .

ثم هاهي يجيش فؤادها بالحزن ؛ فتستمطر من عينها أغزر الدموع ، باسطة لنا سبب بكائها على عشيرتها :

ألا يا عين فابكيهم ... بدمع منك مستغرب [1]

فإن أبكي فهم عزي ... وهم ركني وهم منكب

وهم أصلي و هم فرعي ... وهم نسبي إذا أنسب

وهم مجدي وهم شرفي ... وهم حصني إذا أرهب

وهم رمحي وهم ترسي ... وهم سيفي إذا أغضب

فتعدّ لعشيرتها أحدَ عشَرَ سبباً جعلها تبكي عليهم ، وهذه الأسباب قد سبكتها جميعا بصيغة الجملة الاسمية ؛ " فهم عزي ، وهم ركني ، وهم منكب ... " ولم تقيّدْها بزمن محدّد ، بل جعلتها صالحة لكل زمان ، فهكذا شأن حالها في زمن حياة قومها ، تاركة لنا أن نعرف منقلبها بدونهم لِعَفْوِ الخاطر ، متوقّعين لها نقيضَ ما ذكرتْ . ونسمعها في أبيات أُخَر تطرَب لتلك المكارم التي كانت تزيّن عشيرتها ، فتعدّدها على سبيل الكثرة ، تقول :

1- مستغرب : استغرب الدمع : سال . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غرب) .

فكم من قائل فيهم إذا ما قال لم يكذب

وكم من ناطق فيهم خطيب مِصْقع مُحرب [1]

وكم من فارس فيهم كميٌّ معلم مِحرب [2]

وكم من مِدْره [3] فيهم أديب حولَه مغلب [4]

وكم من جحفل فيهم عظيم النار والموكب

وكم من خضرم [5] فيهم نجيب ماجد منجب

وتطلب جَنوب [6] بنت الحَزَن من عينها أن تجود بدموع منهمرة ، كانهمار الماء الغزير من السحاب على قومها ؛ تقول [7] :

1- مُحرب : لا معنى لها ، وأضنها تصحيفا ، والتصويب عن الأغاني : " معرب " : رجل معرب : إذا كان فصيحا . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عرب) .

2- مِحرب : رجل محرب : شديد الحرب شجاع . المصدر السابق ، مادة (حرب) .

3- مدره : المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال . المصدر نفسه ، مادة (دره) .

4- مغلب : أديب حوله مغلسب : هذا العجز أشكل معناه ، ولعل الصحيح كما ورد في الأغاني : " أريب حول قلب " : حول بتشديد الواو أي بصير بتحويل الأمور ، وهو حول قلب . المصدر نفسه ، مادو (حول) .

5- خضرم : الجواد الكثير العطية ، مشبه بالبحر الخضرم ، وهو الكثير الماء . المصدر نفسه ، مادة (خضرم) .

6- هي جنوب بنت الحزن بن مرة الهذلية ، راثية عامر بن عبيد ، وهو من خزاعة ، سيد قومه ، يقال له : مجمع ؛ لأنه جمع خزاعة من أفناء القبائل على حلف بني مدلج ، فخرج بهم غازيا هو وابن أخ له ، فقتلا في تلك الغزاة ؛ فقالت جنوب ترثيهما ومن قتل معهما من قومهما . انظر : السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص860 ــ 861 .

7- المصدر السابق ، ج2 ، ص861 ــ 862 .

ألا يـا عيـن مـا جـودي بهمـر على قتلـى بني كعـب بن عمرو [1]

أصابتهـم قبـائـل مـن هـذيـل وآدتهـا [2] بنـو سعـد بـن بكر [3]

يظهر أنها تبكي على قتلى من قومها ؛ هذيل وقد تعـاورتهم رمـاح بني أبيهم ، تعينهم على ذلك قبيلة بني " سعد بن بكر " ، وإذا قاتلت القبيلـة بعضها بعضا كان الخطب أفدح ، والمصاب أعظم ؛ لأنّ الأمر يكون حينئـذ كما يقول طَرَفة بن العبد البكري [4] :

وظلـم ذوي القربى أشـد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

لأجل هذا رغبت الشاعرة في دموع منهمرة ، تخفّف عنها ما تلقـاه من أسى شديد على قتلى قومها ، وجزع على اضطراب صفوفهم ، وتفـرق جماعتهم .

وترثي الحارثية [5] قتلى قومها في يوم أرْمام [6] ؛ فتقول [1] :

1- بنو كعب بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن لحيان بن هذيل . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص196 ــ 213 .

2- آدتها : أعانتها . السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص862 .

3- بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . ابـن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص265 .

4- طرفة بن العبد : ديوانه ، ص52 .

5- لم أعثر لها على ترجمة .

6- يوم أرمام : لباهلة على بني الحارث ومراد وخثعم . ابـن الكلبي ،أبـو المنـذر ، هشام بن محمد بن السائب (ت204هـ أو 206 هـ) : أنسـاب الخيـل في الجاهليـة

شقيــقٌ [2] وحرمـــيٌ [3] أراقا دماءنا وفارس هــدّاج [4] أشابَ النواصيا

فتعبّر ببيتٍ فَــذٍّ عن ذلك اليوم الذي سُفكتْ فيه دماء قومها ، وقد تعمّدتْ من إعلان اسمي " شقيق وحرمي " إشهارا لضرهما وإيقاضا لقومهما للثأر منهما ، وكفّا لأذاهما ، بينما تذكــر " فارس هدّاج " تنويهــا بفروسيتــه ، وإعلانا بأصالة فرسه ، كمــا تعبّــر عن الهــول الذي لقيَتــْهُ يومَ مقتــل الفــارس بأنه يوم تَشيب منه مقادمُ شعر الرؤوس .

ثانيا : الرثاء الفردي :

وهو لرثاء الأباعد نسباً عن الشاعرة ، الذين لهم عليها يدُ الإحسان بمــال أو ذمّة أو موقف كريم ، يستنهض في الشاعرة عاطر الذّكر ، وجميل الذكرى ، كما قال حاتم الطائي [1] :

والإســلام وأخبارهــا ، د.ط ، تحقيــق : حسين نصار ، مطبعة دار الكتــب والوثــائق القومية ، القاهرة ــ مصر ، 1424هــ ــ 2003م ، ص101 . وانظر : أبا عبيــدة : أيــام العرب ، ج2 ، ص576 . الحموي ياقوت : معجم البلــدان ، مــج1 ، ج! ، ص128 . البغدادي : خزانة الأدب ، ج1 ، ص188 .

1- ابن الكلبي : أنساب الخيل ، ص101 . وانظر : الزّبيدي : تاج العــروس ، مــادة (هدج) .

2- شقيق : شقيق بن جزء بن رباح الباهلي . المصدر السابق ، مادة (هدج) .

3- حرمي : حرمي بن ضمرة النهشلي . المصدر نفسه ، مادة (هدج) .

4- هدّاج : ككتان فرس الريب بن الشريق السعدي . ابــن الكلبــي : أنســاب الخيــل ، ص101 .

أماويّ [2] إنّ المـــالَ غـــادٍ ورائـــحٌ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْـــرُ

لا سيَّما عند مـــوت الإنسان ؛ إذ يحلو تأبينُه بما لـــه مـــن محاســـنَ جميلة ، وأخلاق حميدة ، أو أيادٍ كانت له على الراثي ، فإذا بالموت يقطـــع تلك الصلة ، ويَحولُ الفوْت دون حصول المسألة ؛ فها هـــي أمُّ ناشِـــرة [3] ، وكانت جارية [4] لهمّام [5] بن مُرَّة " فأرادت أن تلد ، فاجتمع إليهـــا النـــساء ، فسمعهن همّام يَقْبَلْنَها [6] يقلن : قد جاء ، يعنين الولد ، فقالت أمـــه : ادققْـــنَ عنقَه ، فقال لها همّام : ويحكِ لا تفعلي ، قالت : وما يُعيشُه ؟ قال همّـــام :

1- حاتم الطائي : ديوانه ، ط2 ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ــ لبنان ، 1406هـــ ــ 1986م ، ص42 .

2- أماوي : ترخيم ماوية .

3- أم ناشرة : هند بنت معاوية بن الحارث بن بكر بن حبيب . ابن حبيب ، أبو جعفر ، محمد بن حبيب البغدادي ، (ت245هـ) : أسمـــاء المغتاليـــن مـــن الأشـــراف فـــي الجاهليـــة والإســـلام ، ط1 ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيـــروت ــ لبنان ، 1422هـــ ــ 2001م ، ص50 . وانظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص147 .

4- التصويب " جارة " ؛ لأنها لو كانت جارية لكانت وما تلد ملكا لسيدها فلا يحق لهـــا التصرف إلا بإذنه . وانظر : المصدر السابق ، ج2 ، ص147 .

5- همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وهو ممن اجتمعت له رئاســـة قبيلتـــه فـــي حـــرب البسوس . وانظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ص50 . ابن حبيب : أسماء المغتالين ، (ضمن نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص147 . ابن حبيـــب : المحبـــر ، ص254 ــ 255 .

6- يقبلنها : قبلت القابلة المرأة : إذا قبلت الولد أي تلقته عند الولادة . ابن منظور : لـــسان العرب ، مادة (قبل) .

أَمَـــةٌ تُعيشه ، ولِقْحَـــةٌ [1] ، وجمَل ذلول ، قالت : بلى ، فأعطاها إيّاهـــا ، فلمّا كان يوم واردات [2] ، وهو من أيام حرب البسوس [3] خرج همام يـــسقي الماء واللبـــن ، فأبصره ناشرة [4] ، فختلَـــه ، فطعنـــه فقتلـــــه ، وهـــــرب فلحق بقومه ؛ فقالت أم ناشرة :

لقـــد عيـــّل [5] الأيتامَ طعنةُ ناشِـــرَهْ أناشرُ لا زالتْ يمينُكَ آشِرَهْ [6] . [7] "

1- لقحة : الناقة تنتج في أول الربيع جمعها لقاح . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لقح) .

2- يوم واردات : اليوم الثالث من حروب بكر وتغلب ، لتغلب على بكـــر . البكـــري : معجم ما استعجم ، مج2 ، ج4 ، ص1362 . وانظر : الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج4 ، ج8 ، ص434 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص218 ــ 219 .

3- حرب البسوس : البسوس خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، كانت لهـــا ناقـــة تدعى سرابا ، فقتلها كليب ، فغضب عليه جساس فقتله ؛ فقامت الحرب بين بكر وتغلـــب حتى كادت تهلكهما . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبـــل الإســـلام ، ج2 ، ص165 ــ 170 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص523 ــ 539 .

4- ناشرة بن أغواث . يدل سياق القصة على أنه كان تغلبيا . انظر : ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ص50 .

5- عيل : عيل إعياله : أهملهم . وترك يتامى عيلى أي فقراء . ابن منظـــور : لـــسان العرب ، مادة (عيل) .

6- آشرة : مأشورة : مقطوعة بالمنشار . انظر : المصدر السابق ، مادة (أشر) .

7- ابـــن حبيـــب : أسمـــاء المغتاليـــن ، ص50 . وانظـــر : ابـــن حبيـــب : أسمـــاء المغتاليـــن ، ضمـــن (نوادر المخطوطـــات) ، ج2 ، ص147 . العـــسكري : جمهـــرة الأمثال ، ج1 ، ص133 ــ 134 . ابن منظور : لسان العرب ، مـــادتي (عيـــل) و (أشر) .

يُفهم من هذه الحكاية أنّ أمّ ناشرة كانت جارة لهمام بن مـــرة قبـــل نشوب حرب البسوس بزمن ، فلما قامتِ الحرب بين الحيَّين تفرقا على قتال بعضهما بعضا ، وانتحى كلّ واحد منهما عن الآخر ناحيـــةً مـــن الأرض ، فكان بينهما أن كثُرتْ الضغائن ، وتعدّدت الوقائع ، وتهافتت النفوس ؛ فلجُّوا في طلب الثارات ، وبسببها قد أُصيب همام بن مرة بيد مَن أحـــسن إليـــه ، وأنقذه من الموت ، على غير رضى أمّ ناشرة ؛ فقالت بيتها الفرْد هـــذا فـــي تأبينه ، والدعاء على ابنها ، مؤكدةً ومحقّقةً لنا الأثر الذي تركه مقتلُـــه مـــن إهمال للأيتام ، بعد رعاية لهم ، وحدَب عليهم .

وإذا كانت أمّ ناشرة قد ركّزت على صفةٍ بعينها في مرثيّهـــا وهـــي صفة الكرم بمعانيه الكُثْر ، فإن شاعرة أخرى تسمى صفية [1] بنت الخَـــرِع ، تركّز أيضا على صفةٍ بذاتها ؛ هي صفـــة الفروسيّة ، بما تحويه من معان ؛ كالشجاعة والإقدام والجرأة ، والثبات والصبر وغيرها ، مؤبِّنةً بها النعمان [2]

1- هي صفية بنت الخَرِع التيمية ، أي من ولد تيم بن عبد مناة بن أدّ وقبيلتها الرِّبـــاب . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج1 ، ص86 . ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص237 . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص198 . الأصفهاني : الأغاني ، ج16 ، ص229 .

2- النعمان بن جِساس ، سيد الرباب في يوم الكِلاب الثاني ، وهو يوم لتميم وأحلافهـــم على مَذْحِج وأحلافهم . انظر : أبا عبيدة : أيام العرب قبل الإســـلام ، ج1 ، ص71 و73 و77 و86 . أبا عبيدة : النقائض ، ج1 ، ص374 ــ 375 . الأصـــفهاني : الأغـــاني ، ج16 ، ص225 ــ 226 و 229 . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص224 ــ 229

بن جِساس ، تقول [1] :

نطـــاقُـــهُ هنـــدوانـــيٌّ[2] وجُبتـــهُ [3] فضفاضةٌ[4] كأضاة[5] النِّهْي[6] مَوْضُونهْ[7]

غابـــتْ تميـــمٌ فلم تشهدْ فوارسُها ولم يكونـــوا غـــداةَ الرَّوْعِ يُخزونَـــهْ

لقد أخذنا شفاءَ النفـــسِ لو شُفيتْ ومـــا قتلنـــا بـــه إلا امرءاً دونَـــهْ

فتجلِّيه لنا فارساً شاكيَ السلاح ؛ ينتطق سيفاً هندياً ، متسربلا درعـــا واسعة منسوجة بحَلَق الحديد ، مُحكمة الصنع ، مُتضامّة الأطراف ، كغـــدير ماء تمنعه حواجزُه من أن يفيض على الجوانب ، ويظهر لنا هذا الوصف أنه كان بَدينا ملحما يملأ جسمه درعه الواسعة .

1- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج1 ، ص86 . وانظر : ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص237 . الأصفهاني : الأغاني ، ج16 ، ص229 .

2- هندواني : إذا عمل ببلاد الهند ، وسيف هُندواني ، إذا شئت ضممتها إتباعا للـــدال . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هند) .

3- جبته : الجبة من أسماء الدرع وجمعها جُبَب . المصدر السابق ، مادة (جبب) .

4- فضفاضة : درع فضفاضة واسعة . المصدر نفسه ، مادة (فضض) .

5- أضاة : غدير . المصدر نفسه ، مادة (أضا) .

6- النهي : الموضع الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه . المصدر نفسه ، مـــادة (نهي) .

7- موضونـــة : الـــدرع المنسوجـــة ، توضـــن حلـــق الـــدرع بعـــضها فـــي بعـــض مضاعفة . المصدر نفسه ، مادة (وضن) .

ويخوض فارسها الميدان دون أحلافه من " تميم " ولو شهد " فوارسها " معركته ، وقد حميَ وطيسُها " غداة الروع " لوجد منهم النصرة على العدوّ ، والمدَد والتأييد .

أما بيتها الأخير فهي تلتمس فيه شفاء يائسا لنفسها، من حزنها عليه بطلب الثأر ، ولكنّ ثأرها الذي أدركته لم يشف ما فيها من كمد ؛ لأن المثؤور منه لم يكن بمنزلة المثؤور له . وهو نفس الانتقاص الذي صفعت به نائحة [1] عمرو [2] بن عاهان وجه قاتل مرثيها ، تقول [3] :

يا عين فابكي على عمرو بن عاهان لو كان قاتله غير الذي كانا

لو كان قاتله حيا نعجّ[4] به لكنّ قاتله بُهل [5] بن بُهلانا

1- لم أعثر لها على ترجمة .

2- هو عمرو أو مرة أو مر بن عاهان ، أحد بني الحارث بن كعب . وفي هامش سمط اللآلئ قال محققه : " وأنا أرى أن الصواب في البيت : على مر بن عاهان مرخما في غير النداء . انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج1 ، ص76 . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

3- البكري : سمط اللآلئ ، ج1 ، ص76 . وانظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

4- نعج به : عج يعج ويعج عجا وعجيجا : رفع صوته وصاح بالدعاء والاستغاثة . المصدر السابق ، مادة (عجج) .

5- بهل بن بهلان : يقال للمحتقر ، وللذي لا يعرف . انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج1 ، ص76 . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بهل) .

فلم يكــن حسبها من الرثاء البكاء والعويل فقط ، بل مزجته بهجــاء القاتل والتقليل من قدره ، فلم تره ممن يتمنى الاستغاثة به في عظائم الأمور ، ولم يكن له من الشهرة بين العربان ما يذكر به ؛ فهو مجهــول النــسب ، مشكوك في أصله وفي هذا ما يمس الشرف ، ويقدح في العرض ، ويخــدش الحياء ، وفي الحقيقة أن الصورة الواقعية القاتل هي على خلاف ما أظهرتــه الراثية في شعرها ؛ فهو المنتشر [1] بن وهب الباهلي ، ولكنهــا قــصدت أن تُغيظه ، وتؤلمه وتستفزّه .

ونسمعهــا تــردّد لفظــة " قاتلــه " ثلاث مــــرات فــي بيتيـــن اثنيــن فقط ؛ تأليباً عليه ــ وهنــا كما تروى القصة ــ يحمى أنفُهُ عليهــا ؛ فيُغير على قومها ، ويقطــع لسانها إلى يوم الدين [2] .

1- المنتشر بن وهب الباهلي ، أحد رجّلي العرب ، أخوه لأمه أعشى باهلة عمــرو بــن الحرث أو الحارث ويكنى أبا قحافة ، رثى أخاه بقصيدة ، مطلعها :

إني أتتني لسان لا أســر بها من علو لا عجب منها ولا سخر .

انظر : الأصمعي : الأصمعيات ، ص87 . الجمحي : طبقات فحــول الــشعراء ، ج1 ، ص210 . اليزيدي : المراثي ، ص57 ــ 58 . الآمدي : المؤتلف والمختلف ، ص11 ــ 12 . ابن رشيق : العمدة ، ص431 . البكــري : ســمط اللآلــئ ، ج1 ، ص75 . الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ج3 ، ص270 .

2- انظر : البكري : سمط اللآلئ ، ج1 ، ص76 .

وتهـزّ أريحيةُ الكرم امـرأةً [1] من حَنيفة ؛ فتؤبن بها يزيدَ بنَ عبـدِ الله بن عمرِو الحنفي ؛ تقول [2] :

ألا هـلـك ابـن قـرّان الحميـد أخو الجُلّى [3] أبـو عمـرو يزيـدُ

ألا هـلـك امـرؤ هلكـتْ رجـال فلـم تُفقـدْ وكـان لـه الفُقـودُ

ألا هـلـك امـرؤ حبـّاس مـالٍ علـى العِـلاّت [4] مِتـلافٌ مفيـدُ

ألا هـلـك امـرؤ ظلّـت عليـه بشـطٍّ عُنيـزة [5] بقـرٌ هُجـود [6]

سمعـن بموتـه فظللـن نـوْحـا قيامـا مـا يُـحـل لهـنّ عُـود

تبكي صاحبها ؛ فتجعله أخا للأمور العظيمة ، وتـرى فـي هلاكـه تفردا لا يشبهه موت الآخرين ؛ لأنهم يموتون فلا يفتقدون ، ويموت صاحبها

1- لم أعثر لها على ترجمة ، وكأنها جاهلية ؛ لأسلوبها ولغتها ، وتوافق عدد أبياتها مع جل أشعار المقطعات النسائية ، فضلا عن كونها غير معزية إلى اسم بعينه ، وكأنها من مجاهيل الجاهلية ، وقد تفرد المفضل الضبي بروايتها ، وهو من أوائل من عنوا بجمـع الشعر الجاهلي .

2- المفضل الضبي : المفضليات ، ص273 .

3- الجلى : الأمر العظيم . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جلل) .

4- العلات : أي على كل حال . المصدر السابق ، مادة (علل) .

5- عنيزة : من ديار بني تميم يسمى بوادي الشجي ؛ لأنه شجي بعنيـزة صـارت فـي وسطه أو من أودية اليمامة ، وهو قرب عنيزة بالبحرين . انظر : البكري : معجـم مـا استعجم ، مج2 ، ج3 ، ص976 . الحموي ياقوت : معجـم البلـدان ، مـج3 ، ج6 ، ص359 .

6- هجود : هجد وتهجد : سهر ، وهو من الأضداد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هجد) .

فيفتقد لانقطاع إحسانه على سواه ؛ فقد كـــان يحبس إبله لقـــرى ضـــيوفه ، وهو ينفق ماله على كلّ حال في الشـــدّة والرّخـــاء ، والعُسر واليُسر ؛ فـــلا عجبَ بعد هذا أنْ تظلّ نساءٌ قياما ساهراتِ الطوارف يَنُحْنَ علـــى موتـــه ، وكأنهن بقر الوحش حُرِّمَ عليهن المرعى ؛ لإقامتهن على العويل .

وينزل سامَة [1] بن لُؤَيٍّ ضيفا على أزديٍّ من أهـــل عُمـــان بجـــوف الحَميلة [2] ، ثم يرحل عنه وفي طريقه تلدغه حيّة ؛ فيموت ! فتـــسمع بـــذلك امرأة الأزدي ؛ فتقول [3] :

1- هـــو سامـــة بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النظر بن كنانة ، من قـــريش . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق: محمد فهمـــي السرجانـــي ، مـــج1 ، ج2 ، ص96 ــ 101 . ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق وشرح : مصطفى السقا وآخرين ، مج1 ، ج1 ، ص77 ــ 81 . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص12 .

2- جوف الحميلة : موضع في الطريق من مكة إلى عُمان . البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص406 . وانظر : الحموي ياقوت : معجـــم البلـــدان ، مـــج2 ، ج3 ، ص94 ــ 95 .

3- الزجاجـــي ، أبو القاســـم ، عبـــد الرحمـــن بـــن إسحـــــاق ، (ت340 هـــ) : الأمالي ، ط2 ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيـــل ، بيـــروت ــ لبنـــان ، 1407 هـــ ــ 1987م ، ص49 ــ 50 . وانظر : البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج2 ، ص406 . الحموي ياقوت : معجم البلدان ، مج2 ، ج3 ، ص95 . ابن منظـــور : لسان العرب ، مادة (فوق) . ابن قيم الجوزية : أخبـــار النـــساء ، ص22 . وتـــروى الأبيات باختلاف ، وتنسب إلى سامة مرة ، وإلى أخيه مرة أخرى . انظر : ابن هـــشام : السيرة النبوية ، مـــج1 ، ج1 ، ص101 ــ 102 . الأصـــفهاني : الأغـــاني ، ج10 ، ص162 .

عيــنُ ، بكّي لسامــةَ بــن لــؤيٍّ علقــتْ ســاقَ سامــةَ العلاّقهْ [1]

لا أرى مثــل سامــة بــن لــؤي حملــت حتفَــه إلــيــه النــاقــهْ

رب كأس هرقــت يا ابــن لــؤي حذر المــوت لــم تكــن مهراقــه

وعدوس السرى [2] تركت رذيــا [3] بــعــد جــد وجــرأة ورشــاقــه

وتعاطيــت مفــرقــا بــحــســام وتجنبــت قــالــة [4] العــواقــه [5]

تدعــو دموعها لتهمي من عينها بكاء عليه ؛ وتبين سبب موته إذ لم يكن عن جزع في معركة ، أو خوَر في ميدان ، أو ضعف من كِبَــر ، بــل كان عن لدغة أفعى لا ترياق للشفاء منها ، ثم تنفي علمها برؤية مَن أُصــيبَ كمصابه ؛ نأتْ عنه الدار ، وشطّ به المزار ، وأدركته المنية ، وهــو يغــذُّ الخُطى ، ويدأب على السير والسُّرى ، جاعلا من العسير عليه يسيرا ، ومن القوي أمامه ضعيفا، في جدٍّ من التصميم ، وجرأةٍ من العزيمة ، شاحذا سيفه

1- العلاقة : الحية لتعلقها ؛ لأنها علقت زمام ناقته ؛ فلدغته ، وقيل : العلاقة بالتشديد : المنية . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (علق) .

2- عدوس السرى : رجل عدوس الليل : قوي على السرى . المصدر السابق ، مــادة (عدس) .

3- رذيا : الرذي : الضعيف من كل شيء . المصدر نفسه ، مادة (رذي) .

4- قالة : القالة بين الناس : أي كثرة القول ، وإيقاع الخصومة بين الناس بمــا يحكــي البعض عن البعض . المصدر نفسه ، مادة (قول) .

5- العواقة : عاقه عن الشيء يعوقه عوقا : صرفه وحبسه . المصدر نفــسه ، مــادة (عوق) .

لكلّ عادٍ عليه ، بغير صاحب مُعين ، أو حليف نصير ؛ فتجنّبَ بشجاعته هذه النميمةَ عليه بالجبن ، وهكذا نأى بنفسه عن القيل والقال .

ويغير يزيد [1] بن عبد المَدان على بني عامر بن صَعْصعة ، فيأسر أبا بَراء عامرَ بن مالك مُلاعب الأسنّة وأخاه عَبِيدَةَ بن مالك ، ثم يُنعم عليهما بفكّ أسرهما ، فلمّا مات يزيد حملتْ يدُ النعمة زينبَ [2] بنتَ مالكٍ على البكاء عليه ؛ تقول [3] :

سأبكي يزيد بن عبد المدان ... على أنه الأحلم الأكبر

رماح من العزم مركوزة ... ملوك إذا برزت تحكم

فلامها قومها في ذلك ، وَعيّروها بأن بكتْ يزيدَ ، فقالت :

1- هو يزيد بن عبد المدان عمرو بن الديان ، يزيد بن قطن بن زياد بن الحارث ، كان رئيس مَذحج ، شريفا شاعرا . انظر : ابن دريد : الاشتقاق ، ص398 . الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص8 ، وج21 ، ص17 . ابن جزم : جمهرة أنساب العرب ، ص416 .

2- هي زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب ، وإذا كانت أخت ملاعب الأسنة لأمة أيضا ، فتكون أمهما معا هي أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن صعصعة ، إحدى المنجبات الثلاث في الجاهلية . انظر : أبا عبيدة : كتاب الديباج ، ص74 . ابن حبيب : المحبر ، ص458 . الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص16 .

3- المصدر السابق ، ج12 ، ص16 .

ألا أيهـا الـزاري [1] علـيّ بأننـي نزاريـة [2] أبكـي كريمـا يمانيا [3]

وما لي لا أبكـي يزيـد وردّنـي أجرٌ جديـدا مِدْرعـي [4] وردائيـا

وقالت :

بكيـت يزيـد بـن عبـد المـدا ن حـلّـتْ بـه الأرض أثقالَـهـا

شريـك الملـوك ومَـن فضلُـه يَفْضُـل في السمـجْـدِ أفضالَهـا

فككْـتَ أسـاري بـنـي جعفـر [5] وكـنـدةَ إذ نـلـتَ أقـوالـهـا

ورهـط المجالـد قـد جـلّـلـتْ فـواضـلُ نُعمـاك أجبـالـهـا

ترى الشاعرة في المرثي الصفة الكبرى التي جعلته يطلـق أخويهـا من أسرهما ، وهي صفة الحلم ، وتعظم هذه المنقبة في عينها حتَـى تعـدّه " الأحلم الأكبر " ؛ لأنه وافق حاجة ملحة في نفسها ، قد باتت ترجوها وتتعلق

1- الزاري : زرى عليه : عابه و عاتبه . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زري) .

2- نزارية : تنتسـب إلى نـزار بـن معد بن عدنان من ولد إسماعيل عليه الـسلام . انظـر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص9 .

3- يمانيا :ينتهي نسب يزيد بن عبد المدان إلى قبيلة يَمَانِيَة من ولد يعرُب بن يشجُب بن يعرب بن قحطان . انظر : المصدر السابق ، ص329 .

4- مدرعي : ضرب من الثياب تلبس ، وقيل : جبة مشقوقة المقدّم . ابن منظور : لـسان العرب ، مادة (درع) .

5- بنو جعفر : قومها : بنو جعفر بن كلاب . انظر : الأصفهاني : الأغـاني ، ج12 ، ص16 .

بها فكان أن حصلت عليها من أمر لا وسطية فيه فإما أن يسير إلى حيـــاة ، وإما أن يصير إلى ممات .

ثم تصف ثباتَه وقوة عزيمته بـــ " رماح " " مركوزة " من جـنْس " العزم ؛ فيعقد قلبَه على فعْل الشيء ؛ فيفعله بغير أَناةٍ أو تردّد ، وكأنه واثـــق من إدراك بغيته ، متحقّق من نيل مطلبه ، وهو بهذا العزْم يفصِل في الأمور ، ويقطع فيها بحُكمه المتكئ على حِلمه وعزمه ، وهكذا دأب الملوك .

ويعتب عليها قومها أنْ رثتْ أي مدحت يمانياً ، فتعلِّل ذلـــك بـــشجاعةٍ أنـــه أحسن إليها ؛ بالعفو عن أخويها ، اللذين هما عزتُها ومنعَتُها ، ووقايتها مـــن الذلّة والعار ، كوقاية المِدرع والرِّداء لجسمها ، ولعورتهـــا مـــن الظهـــور والانكشاف .

ويتأكّد لنا باعتذارها هذا أنها نأتْ بنفسها عن السقوط فـــي مزالـــق العصبيّات القبائليّة ، التي لا تُنصف الآخـــرين ، واختـــارت الحـــقَّ ميزانـــا أخلاقيا وسلوكيّا لها .

وتصوّر موتَ مرثيِّها أمرا ثقيلا ؛ بسببه " حلتِ الأرض أثقالهـــا " ، وكأن الأرض دابّة مُحمّلة بالبضائع ؛ فيحِلّ بها مكروه ؛ فـــلا تقـــوى علـــى السير فتسقط وترزُم عن القيام ؛ لعظيم مكانة المتوفى ، ونباهة ذِكْرِه ، لماذا

؟ لأنه شريك الملوك فيما يملكون ، ويفضلهم مجْدا بحلمه علـــى الأســـير ، وكرمه الذي يَطمُّ على الجبال .

ومن حُمادى ما يجمُل ذكرُه للشاعرة أنها تستخدم الألفاظ ؛ " ســـأبكي ، أبكي ، بكيت " ، وهي أبنية تتضمّن ثلاثة أزمنة للفعل بكى ؛ الأول سأبكي للمستقبل القريب ، والثاني أبكي للمضارع ، والآخر بكيت للماضي ، وكأنها تريد بذلك بقاءها الدائم على ما هي فيه من الحزن والتوجّع على فقْد هذا الطِّراز من الرِّجال الكرام .

الباب الثاني

دراســـة فنيـــة لشعـــر الرثـــاء

الـــفـــصـــل الأول

بـــنـــيـــة الـــمـــرثـــيـــة

الموضوع :

توصف كثيرٌ من قصائد الشعر الجاهليّ بتعدّد موضوعاتها ؛ فنقرأ في القصيدة الواحدة مجموعةً من أبياتها تمثّل لوحة وصفيّة ؛ تصف الأطلال والآثار ، والحنين والشوق إلى المنازل والديار ، ووصف الراحلة بقوة الجَلَد والاحتمال . وتشكّل مجموعةٌ ثانيةٌ لوحةَ النسيب ، وفيها يشبّب الشاعر بمحاسن حبيبته ، ويتغزّل فيها بمفاتنها وجمالها ، ثم يذكُر ما يجدُه من معاناة ، وحرقة ، وشوق ؛ بسبب فراقها له أو بعدها عنه ، ولا ينسى الشاعر حينذاك أن يتمدّح بمناقبه من كرم وشجاعة وبيان ؛ من أجل أن يبلغ بذلك إلى جذْب حبيبته إليه ، وسحرها بمعسول الكلام ، ثم يمضي بعد ذلك إلى الغرَض الرئيسيّ من قصيدته كالفخر بانتصارٍ في ميدان ، أو المديح لأحد كرام الناس ، أو الهجاء لعدوّ ، أو لأيّ غرَض آخر ، ولا أدلّ على هذا النهج من المعلّقات [1] . أما قصائد الرثاء ومقطّعاته عند شاعرات الجاهلية فهي لموضوع الرثاء وحدَه ، دون أن يشركه موضوع آخر ممّا ذُكر ؛ فجل القصائدأو المقطعات من أولها إلى منتهاها تستأثر بغرض الرثاء

1- انظر : الزوزني:شرح المعلقات السبع . مفيد قميحة : شرح المعلقات العشر . أحمد عبد الله فرهود وآخر : المعلقات العشر .

ذاته [1] ، ولا تحيد عنه إلى موضوع آخر ؛ فما إنْ تبدأ الشاعرة رثاءها حتى تضعنا ــ مباشرة ــ في جوّ الحدَث ؛ جوّ المباشـــرة بالبكاء والعويل وتظلّ فيه دون أن تنقلنا إلى موضوع آخر يخرجنا عن دائرة الرثاء ، ويظلّ الجـــوّ النفسي العامّ للمرثية ينتظم جميع أبيات النَّصّ الرثائيّ الشعريّ سواء أمدحت الشاعرة فيه الميّت بمناقبه ، أم فخرَت بشجاعته وبطولته ، أم هجت أعـــداءه ، فإنّ ذلك لا يخرج عن دائرة موضوع الرثاء ؛ لأنّ مجموعة أفكار الـــنصّ ورؤاه تصبّ في مجرىً واحدٍ دون انقطاع سببيّ ــ غالبـــا ــ بيـــن أبيـــات المرثية ، ودون أن تكون هناك قابلية إلى فصله إلـــى عـــدة موضـــوعات ، فالمرثية ــ كما يظهر ــ ذات شريحة واحدة ، تنأى عن تقليد ما مـــضتْ عليه سُنّة كثير من قصائد الشعر الجاهليّ ، ولعلّ طبيعة الحدَث الطارئ هـــو الذي فرَض وَحْدة الموضـــوع هذا ، فأيُّ حدَث أقسى من حـــدَث المـــوت ؟ وهل هناك موضوع آخر يمكن أن يجاوره ، أو يزاحمه بالحديث عند نزولـــه ؟ " ويمكن أن ترجع هذه الظاهرة ــ في جانب من جوانبها ــ إلى الموقـــف والوقت وخاصّـــة عند الشعراء الذين استوت قصائدهم أعمالا فنيّة رائعـــة ، ونعني بالموقف أن هذه القصائد كانت من بنات الساعـــة ، ونعني بالوقت أن

1- انظر : مخيمر صالح موسى : رثاء الأبناء في الشعر العربـــي إلـــى نهايـــة القـــرن الخامس الهجري ، ص136 . محمد إبراهيم حور : رثاء الأبناء في الشعر العربي حتـــى نهاية العصر الأموي ، ص72 . رغداء ماريني : شواعر الجاهلية ، ص188 .

الشاعر كثيرا ما كان يُسرع للتعبير عن نشوة النصر والظفر [1] " أو الفقْد والثكل ؛ فصار من أقوى الاحتمالات أن يتفرد الرثاء بذاته ، بل يكون من فتور العاطفة ، وبرودة المشاعر أن يقوم موضوع الرثاء إلى جانب موضوع سواه ، ولا يعدّ حينذاك ــ في نظري ــ إيجابية تحسب للقصيدة ، بل هي سلبية يؤاخذ عليها ، وتنتقص منه بقدر ما يضاف إلى قصيدة الرثاء من موضوعات أُخر ، لا سيما إذا كانت غزلية ؛ فإنه لا يحسن أن يقرن بالرثاء ، بل يعدّ ذلك شاذا عن الموقف الطبيعي ، شذوذَ أن يجتمع حاملو جنازة بموكب عرس في ظرف واحد ، فذلك ما لا يحمد أبدا ، إلا إذا تنكّر القول للفطرة الإنسانية السويّة ، التي تميّز الشعور بالحزن عن الشعور بالفرح ولا يجمع بينهما بسبب ، غير أن الحسّ الجاهليّ المرهف عند شاعرة الرثاء في الجاهليّة أبى إلاّ أن يكون فنّ الرثاء موضوعا قائما بذاته ولذاته ، ولو كان موضوع الشراكة بين الرثاء وغيره ممكنا لصحّ أن تبدأ المرثية بالمقدمة الطللية ؛ لأنّ الحديث عن الطلل والوقوف على الآثار والدِّمَن وتذكّر الأحباب ومعاهد الصِّبا مما يُشجي النفوس ، ويستدعي ماء العيون .

1- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، ط2 ، دار الجيل ، بيروت ــ لبنان ، 1408هـ ــ 1987م ، ص111 .

ويفسّر لنا عدمَ اقتران موضوع الرثاء بغيره غلبةُ شعرِ المقطّعات في هذا الفنّ على شعر المطوّلات ؛ لأنّ المادّة التي وصلتْ إلينا في قالب مصفّى من القِطَع الموضوعية الأُخر ، " وفيها نجد التجارب الشعورية الكاملة ، والصّوَر الصادقة للحياة الجاهليّة ، وأصداء أمينة لخفقان قلب الشاعر ، وترجمانا لعواطفه وأحاسيسه ؛ ذلك لأنها قصائد أصيلة ، لم تصدرْ عن صناعة ، أو تكلّف ، وتتمثّل في هذه القصائد وحدة الموضوع [1] " الأمر الذي جعل مادة المرثية تبدو متزاحمة الأجزاء ، متصلة البناء ، متدفّقة العاطفة ، مزامنة للحدَث ، وترتجِل له ما يناسب مقامه الطارئ من مقطّعات الشعر ، فلا سبيل إلى الإطالة ؛ لأنها تحتاج إلى نفَسٍ شعريّ طويل ، وهذا ما يتعذّر حصولُه في وقْتٍ تخنق الحسراتُ صاحبَها ، ويمسك فيه اللسان عن كثير الكلام ، وتكون الغلبة للوقار والسكون ، على الخفّة والحركة ، كما أن عامل اللغة الرثائيّة الذي يكون منبثّا في بِنية المرثية يجعل مادتها ذاتَ وَحدة موضوعية ، وتظلّ أغلبُ دوالّ المرثية مُوحيةً بذلك الشجن الرثائيّ من مطلع المرثية إلى خاتمتها .

1- يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، ط9 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ لبنان ، 1422هـ ــ 2001م ، ص241 .

المطلـــع :

تجري العادة أنْ يَتخيّر الشاعر مطلعا لقصيدته يناسب موضـــوعها و " يحترز في أشعاره ومُفتتح أقواله ممّا يُتطيّر به ، أو يُستجفى مـــن الكـــلام والمخاطبات كذكر البكاء ، ووصف إقفار الديار وتـــشتّت الألاّف ، ونعـــي الشباب وذمّ الزمان ، لا سيما في القصائد التي تُضمّن المـــدائح أو التهـــاني ، ويستعمل هذه المعاني في المراثي ، ووصف الخطـــوب الحادثـــة [1] " ، إذن فالاستهلال بالبكاء وما شاكله يناسب مقام الرثاء ، ويظهر من أوّل وهلـــة [2] على موضوع الرثاء ، دون أن يلجأ الشاعر إلى مقدّمات تقليديّة غيرِ رثائيّـــة يتصف بها قسْم آخرُ من الشعر يُعنى به عن قـــصدْ فـــي مطولاتـــه ، عنـــد استقرار الحال ، واطمئنان البال ، وإعمال الفكر في النظـــر إلـــى بـــواطن الأمور بروية وتمعُّن ، بينما هذا لا يتفق مع واقع الحال المشبوبة بـــالحزن ، والمسكونة بالعاطفة الوثّابة الثائرة ؛ لذا فـــإنّ صـــاحبها يـــدخل إلـــى جـــوّ الموضوع مباشرة ، ويظهر ذلك جليّا في لغة المطـــالع ، أو مـــا يجـــوز أن نسميّه مطالعَ على ظنّ أنّ كثيرا من المطالع الحقيقيّة للمراثي قـــد تعرّضـــتْ

1- ابـــن طباطبـــا ، أبو الحســـن ، محمد بن أحمد ، (ت322هـــ) : عيـــار الشعـــر ، د.ط ، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلـــوم ، 1405هـــ ـــ 1985م ، ص204 .

2- انظر : ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، ص218 .

لبتر الزمان ، ونسيان بعض الرواة لهـا ، فمّمـا وصـل إلينـا مـن تلـك الاستهلالات ما يبدو على أشكال مختلفة ومنها النـداء ، ومـن صـوره أن تخاطب الراثية عينها ، نجد ذلك في مستهلّ رثاء خالدة بنت هاشـم أباهـا ، تقول [1] :

عيـنُ جـودي بعبـرة وسجـوم واسفحي الدمع للجـواد الكريـم

عين واستعبري وسحّـي وجمّـي لأبـيـك المسـوّد المـعـلـوم

قولها " عين "، أي ياعين ؛ فحذفت يا النداء وهذا مشهور معـروف. وكذلك نجد مثل هذا الاستهلال عند عمرة بنت شداد ترثي أخاها ، تقول [2] :

يـا عينُ بكّـي لمسعود بـن شدّاد بكـاءَ ذي عبـراتٍ حزنُـهُ بـادِ .

ويظهر من هذا أن الغرض من نداء الشاعرة عينَها إنما هـو شـيء يلتصق بالتعبير عن حالتها النفسية خاصّة عند الصّدْمة الأولـى لهـا بخبـر موت فقيدها ، وليس تعبيرا عن ذات غيرها إزاءَ ذلـك الحـدَث ، ويكـون غرضها من استخدام أسلوب النداء في مطلع مرثيتهـا هـو التنبيـه ولفْـت الأنظار إلى خطر الحدَث ، ومنزلة الفقيد ، ومدى تأثّر الراثية بموته .

1- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

2- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، (ضمن نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص228 .

ومن صور النداء أيضا في المطالع أن تنادي الراثية فقيدها ؛ كنداء أخت عمرو ذي الكلب أخاها ، تقول [1] :

يا مَنْ بمقتلِهِ زُهى الدّهرُ قد كان فيك تضاءلَ البدْرُ

أو أن تنادي عاذلها ، نجد صورة هذا الاستهلال عند الخرنق بنت بدر ، تقول [2] :

أعاذلتي على رُزْءٍ أفيقي فقد أشرقْتِني بالعذْلِ ريقي

وتتكرّر هذه الصورة الندائية عند جليلة بنت مرّة الشيبانية ، تقول [3]:

يا ابنةَ الأقوامِ إنْ لُمْتِ فلا تعجلي باللّوْمِ حتّى تسألي .

ومن أشكال المطالع أيضا أن تبدأ الراثية مرثيتها بالقسم ، وغرضها منه تأكيد الحدث ، أو الموقف ؛ كقول عمرة بنت دريد ترثي أباها [4] :

لعمرك ما خشيت على دريد ببطن سميرة جيش العناق

ومن أشكاله التي تفيد التوكيد الصريح قول ريطة بنت عاصية [5] :

إن ابن عاصية البهزي مصرعه خلى عليك فجاج كان يحميها

1- المرزباني : أشعار النساء ، ص127 .

2- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص26 .

3- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص128 .

4- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج2 ،ج4 ، ص75 .

5- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص564 .

ويجتمع التأكيد والتحقيق معا في مطلع عمرة الخثعمية [1] :

لقـد زعمـوا أني جزعت عليهما وهـل جـزع إن قلـت وابأباهما

وفي ظني أنها احتاجت إلى التأكيد والتحقيق معا بـ " لقـد " لكـي تصف واقع زعمهم ، الذي أثبتته ، ودافعت عن نفسها بتسبيب موقفها .

وتبدو لنا حاجة الشاعرة الملحّة في مشاركة غيرها حزنها وأسـاها ؛ إذ تطلب ذلك صراحة بلام الأمر ممّن تخاطبهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء [2] :

ليبكك أبـا الجدعـاء ضيف معيل وأرملـة تغشـى النـدي فترمـل

وإذا كانت شاعرتنا هذه قد طلبت من صنفين اثنـين مـن النـاس مشاركتها البكاء على فقيدها فإن ليلى بنت الأحوص لتطلب من قبيلة كاملـة البكاء على فقيدها ، تقول [3] :

ليبك ابن ذي الجدين بكرُ بن وائـل فقد بـان منها زينها وجمالهـا .

ومن المطالع ما تبدو لنا منها المباشرة بوصف الحدث ، وهو ما يؤكّد لنا أن هذا الصنف من الشعر يزامن وقوع الحدث ، ويعايش لحظاته الطارئة

1- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1082 .

2- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص103 .

3- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص616 .

كقول دختنوس بنت لقيط [1] :

بـكـر الـنـعـيّ بخـيـر خِـنْـدف كهلـهـا وشـبـابـهـا

وقول أم السليك [2] :

طـاف يـبـغـي نـجـوة مـن هـلاك فـهـلـك

وقول أخت عمرو ذي الكلب [3] :

سـألـت بعمـرو أخـي صحبـه فأفظعنـي حـيـن ردّوا السّـؤالا

وقول رائطة بنت شيظم [4] :

لـهـفـي عـلـى الأخـويـن كالأسـديـن مسـعـود وحاتـم

وقول أميمة بنت عبد شمس [5] :

أبـى لـيـلـك لا يـذهـب ونـسـيـط السطـرف بالـكـوكـب

1- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج1 ، ص251 .

2- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ل أبي تمام ، ج1 ، ص579 .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

4- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

5- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص525 .

أما تماضر بنت الشريد فإنها تلجأ في مطلع مرثاتها إلى التشبيه مقربة لنا صورة معاناتها أول وقوع خبر مقتل ابنها عليها ، تقول [1] :

كأن العين خالطها قذاها لحزن واقع أفنى كراها

الاستطراد :

وكما غابت المقدّمات بأشكالها عن الظهور في قصيدة الرثاء عند شاعرات الجاهلية ، فقد غاب عنها أيضا ما يسمى الاستطرادَ أو الخروج أو التخلّص ، وهو " ما تخلّص فيه الشاعر من معنى إلى معنى [2] " ؛ كأن يستطرد في موضوع ، ثم يخرُج منه إلى غيره ، وكان العرب " يقولون عند فراغهم من نعْت الإبل ، وذكْر القِفار وما هم بسبيله : " دعْ ذا " و " عدِّ عن ذا " ... ، ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة : " إلى فلان قصدت " و " حتى نزلت بفِناء فلان " وما شاكل ذلك [3] " ؛ كقول النابغة الذبياني فبعدما وقَف على الأطلال أخذَ في وصْف الناقة ، يقول [4] :

1- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 .

2- ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، ص237 .

3- المصدر السابق ، ج1 ، ص239 .

4- النابغة الذبياني : ديوانه ، ط1 ، شرح : علي أبو ملحم ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ــ لبنان ، 1991م ، ص28 .

فعـدّ عمّـا ترى إذ لا ارتجاعَ لـهُ وانْمِ القُتُودَ [1] على عَيْرانةٍ [2] أُجُدِ [3]

وهكذا تستطرد القصيدة من موضوع إلى غيره ، ويحاول الشاعر أثناء ذلك أن يوجد سببا يواشج بين الموضوعات جميعا إن استطاع .

ولمّا كانت قصيدة الرثاء عند شاعرات الجاهلية تتصف بوحدتها الموضوعية ، فقد استغنت بعض الشاعرات عن هذا الاستطراد ؛ لأنه يرتبط بتعدّد الأغراض في القصيدة الواحدة ، واكتفين بالمطالع والخواتم ؛ أيْ بما يتّصل بأوّل المرثاة ونهايتها وهما من الأهمية ما يجعلهما مصدريْ تأثير على المتلقي ؛ فالمطلع " أوّل ما يقرَع السمع وبه يستدلّ على ما عندَه من أوّل وهلة [4] " ، أمّا الخاتمة فهي " قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون مُحْكما ، لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعدَه أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له ، وجَب أن يكون الآخِر قفلا عليه [5] " ، وقد اتخذتْ خواتم بعض قصائد الرثاء صُورا متباينة ؛ منها ما يتصل بحال المرثيّ، ومنها ما يتّصل بأثر موت المرثي على الشاعرة أو على قوم الفقيد

1- وانم القتود : جمع قتد : خشب الرحل ، وانم القتود : أي ارفع خشب الرحل . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قتد) .

2- عيرانة : الناقة الصلبة ، تشبيها بعير الوحش ، والألف والنون زائدتان . المصدر السابق ، مادة (عير) .

3- أجد : ناقة أجد : أي قوية موثقة الخلق . المصدر نفسه ، مادة (أجد) .

4- ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، ص218 .

5- ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، ص239 .

، وقد تنتهي هذه المراثي بذمّ أولئك الذين كانوا سبباً في مـــوت الفقيـــد ، أو إسلامه للموت في ميدان القتال ، وعدم نُصرته يومَ أعْوَرَ الأمر إلى ذلك .

فأمّا ما يتصل بحال المرثيّ فنجد فيه اطّراد تَعدَاد الراثية لمناقبـــه ، وغالباً ما تكون أسمى تلك المناقب هي آخر ما تختتم به مرثيتهـــا ؛ كقـــول عمرة بنت دريد وكان أبوها فارسا قائدا يقود الخيل من نصْر إلـــى نـــصر ، تقول [1] :

عَفَـــتْ آثـــارُ خيلِـــكَ بـــعْـــدَ أَيْـــنٍ بـــذي بـــقَـــرٍ إلى فيْـــفِ النُّهـــاق

وقول ابنة وثيمة في أبيها وكان فصيحا يلجم ببلاغته وفصْل خطابـــه أفواه منافريه [2] :

أَلْـــجَـــمَـــتـــهـــمْ بـــعْـــدَ الـــتَّـــدافُـــعِ والـــتـــجـــاذُبِ في الـــحـــكـــومـــة

وقول خالدة بنت هاشم بن عبد مناف ، وقد اتّـــصف أبوهـــا بكـــريم المَحْتِد ، وشريف النسب ، وأعالي الأمور [3] :

غـــالـــبـــيّ مُـــشـــمّـــر أحـــوذيٌّ باســـق المجـــدِ مُصرخـــيٌّ حليـــمِ

1- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج2 ، ج4 ، ص75 .

2- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص183 .

3- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

وقول أخت عمرو ذي الكلب ترثيه ، وقد كان شجاعا كثيرَ الغـارة ، مظفّرا فيها [1] :

وكـلُّ قَـبـيـلٍ وإنْ لـمْ تـكـنْ أردتَهـمُ مـنـكَ بـاتـوا وِجـالا

وقـول أميمة بنت عبد شمس ترثي قومها من قريش وكانوا سـادة تحج العرب إلى بيتهم ، وتحتكم في أدبها إليهم ، وتمتار من أسواقهم [2] :

وكـمْ مـنْ جـحـفـلٍ فـيـهـمْ عـظـيـمِ الـنـارِ والـمـوْكِـبْ

وكـمْ مـنْ خِـضْـرِمٍ فـيـهـمْ نـجـيـبٍ مـاجـدٍ مُـنْـجِـبْ

وقول عمرة بنت شداد وهي تدعو لأخيها بالبقاء ، تقول [3] :

أبـا زُرارةَ لا تَبْعُـدْ فـكـلُّ فتـىً يومـاً رهيـنُ صَفيحاتٍ وأعـوادِ

و أروع خاتمـة ــ كما أحسب ــ تجلّيها هذه الدراسة هـي خاتمـة أخت عمرو ذي الكلب ، ترثيه ، ولعلّـه نفْـس الأمر الذي حدا أبا العبّـاس المبرّد أن يقول عنها [4] : " وهذا من أحسن المعاني وألطفها " ، تقول [5] :

ما زالَ يحسُدُ بطْنُ أرضِكَ ظهرَهـا إذْ تـمَ أمـرُكَ واستـوى الـقَـدْرُ

حتـّى حلَلْـتَ بأرضِهـا فتقدّستْ فالـيـومَ يحسُـدُ بطنَهـا الظهْـرُ

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص586 .

2- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص526 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص75 .

4- المبرد : الفاضل ، ص60 .

5- المصدر السابق ، ص60 .

وأمّـا مـا يتصـل بأثـر موت المرثيّ على الشاعرة أو قوم الفقيد ، فهو قول ابنة أبي الجدعاء [1] :

لقـد فَجعتْ شيبانُ قومي بفـارسٍ مُحـامٍ علـى عوراتِهم ليس يَنْكُلُ

وجدتمْ بني شيبانَ مُـرّاً لقاؤهـمْ وكانـت بنـو شيبانَ ذلك تفعـلُ

فهي تختتم ببيان أثر مقتل الفقيد ، وتسم ذلك الحدث باسم الفجيعـة ، وتحطُّ من مكانة بني شيبان وإن انتصروا على قومها ، وفجعوها بأخيهـا إلا أنهم وجدوا الانتصار على قومها مرّاً ؛ لاستبسالهم في الذّوْد عن حِياضهم .

وقول عمرة الخثعمية ترثي ابنيها مصورة موتهما بخاتمـة سـقوط عرشين كانت الشاعرة وقومها يعيشان في كنفهما [2] :

ولـنْ يلبـثَ العرشانِ يُستلُّ منهما خِيـارُ الأواسـي أنْ يميلَ غَماهما

وفي خاتمة مرثية ليلى بنت الأحوص لابنها بسطام بن قيس ، تُوسع دائرة المُصاب به حتى يشمل طيرَ السماء ، تقول [3] :

أُصيبتْ بـهِ شيبـانُ والحيُّ يَشْكُرٌ وطيـرٌ يُـرى أرسالُهـا وحبالُهـا

وقول رائطة بنت شيظم تبكي أخويها مُبينة حالها بعدهما [1] :

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص104 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1087 .

3- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص617 .

فـالـيـومَ أخـضـعُ لـلـذّلـيـلِ ولـلـمُـحـارِبِ والمسـالِـمْ

ويبلغ الأسى في خاتمة الخرنق مبلغا يصوّر حالتها النفسية ؛ فتشعر بالخوف والهلع إلى درجةٍ لا ينساغ لها ريق ؛ بسبب فقدها زوجها ، تقول [2] :

هـمُ جدعـوا الأنـوفَ وأوْعَبوها فمـا ينسـاغُ لي مـنْ بعدُ ريقـي

وتدعو جليلة بنت مرّة الشيباني في خاتمة رثائها زوجها لنفسها بالراحة ، وكأنها تريد من الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يتوفّاها ؛ لِعِظَمِ مُصابها ، تقول [3] :

إنّـنـي قـاتـلـةٌ مـقـتـولـةٌ ولـعـلّ اللـهَ أنْ يـرتـاحَ لـي

وتتمنى سعدى بنت الشمردل في خاتمة رثائها أخاها لو قُبِلَتْ به فدية ضنّاً بأخيها عن الموت ، تقول [4] :

فـودِدتُ لـوْ قُبلـتْ بأسعدَ فديـةٌ ممّا يَضَنُّ بـه المُصـابُ المُوجَـعُ

غادرتُـهُ يـومَ الرُّصـافِ مُجَـدّلاً خبَـرٌ لعمـرُكَ يـومَ ذلـك أشنـعُ

ويبلغ التمني ذروته في خاتمة رثاء أم السليك ابنها السليك ؛ تقول [5] :

1- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص449 .

2- الخرنق بنت بدر بن هفان : ديوانها ، ص25 .

3- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص129 .

4- الأصمعي : الأصمعيات ، ص104 .

5- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص581 .

لـيْـتَ نـفـســـي قُـدِّمَـــتْ لـلـمـــنـــايـــا بـــدلَـــكْ

وأما ما يتصل بذمّ اللذين كانوا سببا في موت الفقيد ، أو تعريـضه للموت ، وعدم نُصرته فهو قول دختنوس بنت لقيط [1] :

وهـــوازنٌ أصـحـــابـُكـــمْ كـالـــفـــأرِ في أذنـــابِـــهـــا

وقولهـا أيضا تذمّ مَن فرّ عن نُصرة أحلافهم ، وتمـدح الـصابرين على الموت في ميدان القتال [2] :

لقـدْ صبَرَتْ للموتِ كعْبٌ وحافظتْ كِلابٌ وما أنتمْ هنـاك لمـنْ رَأى

1- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص252 .

2- المصدر السابق ، ج2 ، 251 .

الفصل الثاني

الخصائص المعنوية

يولد الشاعر في بيئة من البيئات ، ثم ينظر إلى السماء ، فيرى منها ما يقع عليه نظره من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأجرام أُخر ، ويلتفت حولَه فيرى ويشعر بما تغنى به بيئته من مفردات طبيعية مختلفة من مياه وجبال وسهول ، وأشجار وحيوان وطير ، وهواء وغيرها ، ويعيش مع أخيه الإنسان فيكتشف الصلات التي تربطهما معا ، والعلاقات التي تجمعهما ،أو تفرّقهما ، وهكذا ولدت الشاعرة العربية في العصر الجاهلي بين بيئات عربيّة متنوّعة [1] ،يوحّد بينها الامتداد الجغرافيّ الطبيعيّ ، واللّسان العربيّ المبين ، والأحداث التاريخية المشتركة ، وبعض العلاقات الإنسانية المختلفة ؛ التجارية والزراعية والثقافية وغيرها ، وبعض الأمور الأخرى كالدين والعادات والأعراف ؛ فرأت بيئتها كما هي بيئة جبلية ، أو سهلية ، أو بحرية ، أو برية ، بكلّ أبعادها وأشكالها وأجزائها ودقائقها ، ورأت السكان حضَرهم وباديتهم ؛ فأثّر ذلك كله على معاني شعرها . هذا بشكلٍ عامّ على سائر أغراض شعرها ، أما تأثير هذه البيئة بشكل خاصّ على فنّ الرّثاء فهو الذي تسعى إليه هذه الدراسة التي تحاول أن تميّز بين نوعين من المعاني في إطار الخصائص المعنوية لفنّ الرّثاء ، وهي الخصائص المعنويّة

1- انظر للمزيد حول تنوع البيئات العربية : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، ص1 ــ 5 .

العامـــّة لسائـــر اتجاهاته،والخصائص المعنويّة الخاصّة بكلّ اتجـــاه علـــى حِدَه.

أولا : الخصائص المعنويّة العامّة :

أول ما يُلاحظ على سائر اتجاهات الرثاء أنّ الشاعرات قد قَـــصَرْنَ شعرَهن على رثاء الرجال دون النساء ؛ فلم تقع الدراسة علـــى قـــصيدة أو مقطعة لا تختلف فيها الروايات ترثي بها الشاعرة أمّا أو بنتـــا أو أيّ امـــرأة أخرى ، وإنما كان الرثاء كلّه علـــى مـــوت أب أو ابـــن أو أخ أو زوج أو شريف ، وقد يكون سبب هذا راجعا إلى طبيعة العادات الجاهلية التي تُعلـــي من منزلة الرجال ، وتحطّ من منزلة النساء ؛ بدليل أنّ الوأد في الجاهلية لـــم يكن إلا للبنات دون البنين إنْ أقدم عليه بعض الآباء ؛ خشيةَ الفقر ، وتلافيـــا للعار الذي يمكن أن تلحقه البنت بشرف أهلها ، هذا من جهة ، ومن جهـــة أخرى أنّ جلّ الأعمال الخطيرة يبقى ذكرها ، وينتشر خبرها كانت منوطـــة بالرجال كأمور الملك وشؤون الإمارة وقيادة الجيوش ، وهذه أعمال تتـــصف بعموم تأثيرها على سائر أفراد المجتمع ، ويبقى ذكرهـــا مقرونـــا بمواقـــف رجالها ، بدليل أنْ جلّ ما وصل إلينا من شعر النساء الجاهليات كان عن أيام حروبهم .

ومما يلاحظ على معاني هذا الرثاء وضوحها وسهولة فهمها ؛ فليس فيها تكلّف أو مبالغة في خيال ، فالشاعرة تستوحي ذلك ممّا أحاط بهـا مـن بيئة الجزيرة العربية ، ذات الصحاري الواضحة الممتدة ؛ فحاولت أن ترسم رثاءها بما يناسب واقع الحال الذي تعيشه ، ثم تعكسه لنـا بمـرآة صـقيلة تتجلى فيها " المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تسرد سردا ، وقلّما شابَه الخيال إلا ليزيدَها إمعانا في الوضوح والجلاء [1] " ، نجد هذا الوضوح غاية في الإبانة عندما تتحدث الراثية عن فـضائل المتـوفى ، وكأنها بذلك تقصد عمْدا إلى مزيد من إشهاره ؛ فأيّ لَبْس فـي معنـى مـن المعاني يقتضي ألا تبلغ هدفها من إبلاغ لشهرة الفقيد ، أو اكتساب مـشاركة في حزن أو أسى ، وكلاهما لديها ذو خطر ؛ فالأول واجـب ، يلزمهـا أنْ تؤدّيَه إكراما لذكرى فقيدها ، والآخر هَمٌّ يحسُن بها أن تتسلّى عنه باستمالـة غيرهـا إليها بلطيف المعاني ، ورقيق الألفاظ . نجد مثال هذا الوضوح لدى خالدة بنت هاشم ترثي أباها ، تقول [2] :

هاشم الخير ذي الجـلال والحمـد وذي البـاع والـنـدى والصميـم

وربـيـع للمجـتـديـن وحـرز ولـزاز لـكـلّ أمـر جـسـيـم

1- شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ط16 ، دار المعارف ، القاهرة ــ مصر ، د.ت ، ص220 .

2- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 ــ 234 .

إلى أن تنتهي بقولها :

غـــالـــبـــيّ مـــشـــمّـــر أحـــوذيّ باســـق المجـــد مصرخـــيّ حليـــم

والحقيقة أن مرثيتها كلّها لا يعدو أن يمرّ بيت واحد إلاّ وتمدح فيـــه فضيلة من فضائل أبيها ، دون أن تتغلغل إلى معانٍ غامـــضة تحتـــاج إلـــى إمعان الفكر ، أو إدامة النظر لاكتشاف خفايا ما تحمل من دلالة ذات عمق ، بل تأتي هذه المعاني على شكْل يسهل فهمُه ، أو تفسيره بالرجوع إلى معاجم اللغة .

ونجـد مـن أمثلـة هـذا الوضـوح في المعاني لـــدى رائطـــة بنت شيظم تبكي أخويها ، تقول [1] :

الـــسـيـديـن الـمـانـعـيـن الذائـديـن عـن الـمـحـارم

الـفـاتـقـيـن الـراتـقـيـن السابـقـيـن إلى الـمـكـارم

الضاربـيـن جماجـم الأبـطـال بـالـبـيـض الـصـوارم

والطاعـنـيـن بـكـل مـارنـة وقـاصـمـة وقـاصـم

ويظهر أنها صفات لم تخرج معانيها عن دائرة ما هو مشهور بـين العرب ، ممدوح بينهم من ذوْد عن المحارم ومسابقة إلى المكارم ، وضرب

1- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

بالبيض على جماجم الأبطال ، وطعن بالرماح في صفوف الأعـداء ، وقـد ترى بعض الراثيات أن يلبسن المرثيين لباسا يـزدان بالمبالغة على وزن (أفعل) ؛ إجلالا لهم ، وتوقيرا لمقامهم ، لا سيَّما إذا كـان تلـك المحامـد مجردة كالحلم ، تقول زينب بنت مالك [1] :

سأبكـي يزيد بـن عبـد المـدان عـلـى أنـه الأحـلـم الأكـبـر

أو ما يكون على وزن (فعول) كقول آمنة بنت عتيبة ترثي أباها [2] :

ضـروبـا للكـمـي إذا اشمعلّـت عـوان الحـرب لا ورعـا هيوبا

ومنها ما يكون على وزن (فعّال) وأكثر من استخدمت ذلك عمـرة بنـت شداد راثية أخاها على نمط ما رثت الخنساء به أخاها صخرا ، تقول [3] :

شهـاد أنـديـة ، رفـاع أبنيـة شـداد ألويـة ، فتـاح أسـداد

نحـار راغيـة ، قتـال طاغيـة حـلال رابيـة ، فـكـاك أقيـاد

قـوال محكمة ، نقـاض مبرمـة فـراج مبهمـة ، حبـاس أوراد

حلال ممرعـة ، حمـال مضلعـة فـراج مفظعـة ، طـلاع أنجـاد

وتشعرنا هذه المبالغة التي تخلعها على المرثي بحركة المعنى وعدم جموده عند حدّ معين لا يتجاوزه ، بل تشعرنا أن المعنى يتَّسع إلى التكـرار

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص16 .

2- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص250 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص74 .

ويقبل المزيد ، كما يمكن أن تقودنا هذه الصيغة إلى إيقاع موسيقيّ تستعذبه الشاعرة ؛ فترى فيه قالبا تسكب فيه آهاتها الحزينة .

ويلاحظ أن أغلب معانيهن تصوّر الفقيد مثلا أعلى يحتذى بمكارمه وصفاته ، وأن خسارته لتؤثر على سائر أفراد قبيلته ؛ لذلك تسبغ عليه ما تستطيعه من صفات جميلة تجعله ذلك الرمز الذي تريده لغيرها .

ومن مظاهر تأثر معاني الرثاء بالبيئة ورود أسماء الأماكن في كثير من قصائده ومقطعاته ، لا سيما أسماء أيام العرب ووقائعهم التي كانت باعثا مهما على ظهور الرثاء ؛ فقد لعبت فيها المرأة دورا بارزا يقوم على استنهاض الهمم وتعداد مناقب الفقيد ، والتحريض على الأخذ بالثأر ، والانتقاص من العدو ، وناهيك بتأثير انتقاص امرأة لرجال من الأعداء ، كيف تحط من معنوياتهم ، وتستنزل من أقدارهم ؛ من أجل هذا وقفت المرأة بجانب الرجل في المعركة بالرأي والكلمة ، فسجلت لنا أسماء كثيرمن تلك الوقائع أو الأماكن ؛ تقول عمرة بنت دريد وقد قتل أبوها بسُميرة [1] :

لعمرك ما خشيت على دريد (ببطن سُميرة) جيش العَناق

1- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج2 ، ج4 ، ص75

وكقول ابنة مالك بن بدر [1] :

إذا سجعـــت (بالرقمتين) حمامـــة أو (الـــرّسّ) تبكي فارس الكتفان

وقول بنت بجير بن عبد الله [2] :

ونَحْلُهُـــمُ يناديـــهـــم مـــقـــيـــمـــا لـــدى (الكَـــدَّام) طـــلاَّب الذُّحُـــول

وقول ابنة فروة بن مسعود [3] :

(بعيـــن أُبـــاغ) قاسمنـــا المنايـــا فكـــان قسيمهـــا خـــيـــر القسيـــم

وقول ريطة بنت العباس [4] :

وكانـــت إذا مـــا لم تطارد (بعاقل) و(بالرأس) خيلا طاردتها (بعيهما)

وقول أم تأبط شرا [5] :

فتـــى فـــهـــم جميـــعـــا غـــادروه مقيما (بالحُريضة) مـــن (نُمار)

وقولها [6] :

ويـــلُ امِّ طِرْف غادروا (برَخمان) بثابـــت بـــن جابـــر بـــن سفيان

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص145 .

2- المرزباني : أشعار النساء ، ص64 .

3- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص562 .

4- البكري : معجم ما استعجم ، مج1 ، ج1 ، ص293 .

5- الأصفهاني : الأغاني ، ج21 ، ص124 .

6- المصدر السابق ، ج21 ، ص124 .

وقول الكندية [1] :

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعــوا (بجيشان) من أسباب مجد تصرما

وقول أخت حاجز الأزدي [2] :

أحــي حاجــز أم لــيــس حــيــا فيسلك بين (جَنْــدَف) و (البَهيم)

ويشرب شربة من (مــاء تــرْج) فيصــدر مِشيــة السبُــع الكليــم

وقول مية بنت ضرار الضبية [3] :

لتجــرِ الحــوادثُ بــعــد امــرئ (بــوادي أشائــيــن) إذلالَــهــا

وقول الفارعة القشيرية [4] :

شفــى اللــه نفســي من معشــر أضاعــوا قدامة (يــوم النِّســار)

وقول سارة القريظية [5] :

بنفســي أمــة لــم تــغــن شيئــا (بــذي حُــرُض) تُعفِّيها الريــاح

وقول ذئب بنت نشبة [6] :

1- المبرد : التعازي والمراثي ، ص26 و 164 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج13 ، ص151 .

3- ابن منظور : لسان العرب ، مادتا (زهف) و (أشر) .

4- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص540 .

5- الأصفهاني : الأغاني ، ج22 ، ص80 .

6- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 .

ألا إن يــوم الشر يوم (بصُــورةٍ) ويوم فناء الدمــع لو كــان فانيــا

ومن صور الاستعانة بعناصر الطبيعة واتخاذها وسيلة للتعبير هي أن ترمــز الراثية لنفسها بالحمامة ، والقُمريّ ، والطّير ؛ تقول ابنة مالك بن بدر [1] :

إذا سجعــت بالرقمتيــن (حمامة) أو الرّسّ تبكــي فــارس الكَتِفَــان

وتصف رائطة بنت شيظم حالها بعد فقد أخيها بــالطير المقــصّص ريــش جناحيه ؛ تقول [2] :

فــبقــيــت كــ(الــطــيــر) الــمــقــصّــص ريــشُــهُ واهــي القــوادم

وتقول أم عمرو بنت المكدم [3] :

فســوف أبكيك ما ناحت (مطوّقة) وما سريتُ مــع الساري على ساق

وتقول فاطمة بنت الأجحم [4] :

وإذا دعــت (قُمريــّةٌ) شجنا لهــا يوما علــى فنَنٍ دعــوت صباحــي

وترمز دختنوس بنت لقيط بالنَّعام على جُبْن مَن غدروا بأبيها ، تقول [5] :

غدرتــم ولكن كنتم مثل (خُضَّبٍ) أصاب لها القنّاص من جانب الشَّرى

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص145 .

2- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص449 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص307 .

4- القالي : الأمالي ، ج2 ، ص1ــ2 .

5- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج1 ، ص250 .

ويستعِـنّ كذلك لإبراز معانيهن بالحيـوان مـن خيـل وإبـل وكلـب ونمر ، تقول ابنة أبي الجدعاء [1] :

ولو شاء نجّاه من الخيل (سابح) جموم على الساقين والسوط مفضل

وتقول أخت مسعود بن شداد [2] :

نحّـار (راغية) ، قتّال طاغيـة حـلاّل رابيـة ، فكّـاك أقـيـاد

ويتكرّر المعنى عند ذئب بنت نُشبة ، تقول [3] :

قُروما يَكُبُّون (المَخاض) على الذُّرى ويُوفـون بالشَّحْـم القدورَ الغواليا

وتذكر ريطة بنت عاصية الكلب في معرِض رثائها ، تقول [4] :

لا ينبح (الكلب) فيها غيـرَ واحدة مـن القريـس ولا تسري أفاعيها

كما تذكر أخت عمرو ذي الكلب (نمرين) قتلا أخاها عمرا ، تقول [5] :

أتيـح لـه (نـمـرا) أجـبـلٍ فنـالا لعمـرك مـنـه مـنـالا

ويشبِّهن بالقرود وبالفئران أعداءهن؛ تقبيحا لأفعالهم وتصغيرا لشؤونهم ، إذ

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص96 .

2- ابن حبيب : أسماء المغتالين ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص228 .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 .

4- المصدر السابق ، ج2 ، ص864 .

5- المصدر نفسه ، ج2 ، ص583 .

إنهم هم الخذلة لأقوامهن وقتَ الحاجة الملحّة إليهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء[1]:

ولكن دعا أشباه نبت كأنهم (قرودٌ) على خيل تخبُّ وتركُلُ

ويتكرّر مثل هذا المعنى عند دختنوس بنت لقيط ، تقول [2] :

وهوازنٌ أصحابُكم كـ (الفأرِ) في أذنابها

ويلاحظ أنهن وظّفن من مظاهر الطبيعة كذلك الكوكب والنجوم والهلال والقمر والدُّجى والنهار والشمس والسماء ، واستخدمنها في تشبيهاتهن حيث وجدن في هذه الآيات العظمى متنفّسا رحْبا يعبّر عن وجدانهن بوضوح متناهٍ في الدلالة ؛ تقول دختنوس بنت لقيط ترثي أباها [3] :

كـ(الكوكب) الدريّ في الظلماء لا يخفى بها

وتقول ليلى بنت الأحوص في ابنها [4] :

إذا ما غدا فيهم غدَوْا وكأنهم (نجومُ سماءٍ) بينهنّ (هلالُها)

وتقول صفية الباهلية [5] :

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص96 .

2- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص252 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص252 .

4- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص616 .

5- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج2 ، ج3 ، ص75 .

كنا كـــ (أنجم ليل) وسطنا (قمرٌ) يجلو (الدجى) فهوى من بيننا (القمرُ)

وتقول أخت عمرو ذي الكلب ترثيه [1] :

فكنـــتَ (النهارَ) بـــه (شمسَه) وكنتَ (دجى الليلِ) فيـــه (هلالا)

وتقول ذئب بنت نشبة ترثي قومها [2] :

قتلتم (نجوما) لا يُحـــوّل ضيفُهـــم ولا يذخـــرون اللحـــم أخضر ذاويا

عمادُ (سمائي) أصبحت قد تهدّمتْ فخِرّي (سمائي) لا أرى لك بانيـــا

ولا تتوقف معانيهن على هذا القدْر من الآيات الطبيعية ، بل تمتدّ إلى ذِكْـــر الرياح والربيع والبرق ، تقول أم مَعدان الشيبانية [3] :

مـــعـــدانُ مـــَـــن لـــلـــحـــــيٍّ إذ هـــبـــَتْ (شآمـــيـــةٌ) فـــجـــورا

وتقول أخت عمرو ذي الكلب [4] :

بأنـــك كنـــتَ (الربيعَ) المغيـــث لمـــن يعتريـــك وكنـــت الشـــمـــالا

وتقول أخت مسعود بن شداد [5] :

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

2- المصدر السابق ، ج2 ، ص849 .

3- المرزباني : أشعار النساء ، ص127 .

4- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

5- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص228 .

يا مَن رأى (بارقا) قد بِـتُّ أرمقه جودا على الحرّة السوداء بالوادي

وممّا يلاحظ على معاني رثائهن أيضا أنهـن يكثرن من ذكر العـين ودموعها ، والرأس وشيبه ، والنعي وشق الجيـوب ، والبكـاء والجـزع ، واللهف والفجيعة ، والحوادث والمنون ، ويرجع هذا إلى طبيعـة المـرأة الأنثويـة ؛ لأنهـا أقوى عاطفة وتأثرا من الرجال ، مثال هذا قـول خالـدة بنت هاشم ترثي أباها [1] :

(عين) جودي (بعبرة) وسجوم واسفحي (الدمع) للجواد الكريـم

(عين) واستعبري وسحّي وجمّي لأبـيـك الـمـسـوّد المعلـوم

وقول ابنة قيس بن جابر [2] :

تطاول ليلـي للهمـوم الحواضـر (وشيّب رأسي) يوم قيس بن جابر

وقول آمنة بنت عتيبة [3] :

علـى مثـل ابـن ميـّة فأنعَيـاهُ (بشـقّ نواعـم البَشَـر الجيوبا)

وقول ناجية أخت هرِم بن ضمضم [4] :

يا (لهف) نفسي (لهفة المفجوع) ألا أرى هـرِمـا علـى مَـوْدوع

1- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

2- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص241 .

3- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص250 .

4- الأصفهاني : الأغاني ، ج14 ، ص146 .

ولعلّ من أكثر المراثي التي زخرت بهذه المعاني هي مرثية سُعدى بنت الشَّمَرْدَل لأخيها ، تقول [1] :

أمن الحوادث (والمنون) أروع وأبيت ليلي كله (لا أهجع)

وأبيت مخلية (أبكي) أسعدا ولمثله (تبكي العيون وتهمع)

وتبين (العين الطليحة) أنها (تبكي) من (الجزع الدخيل وتدمع)

ويلاحظ أنهن أبرزن في أشعارهن مجموعة من العادات الجاهلية ، وأشهرهن الأخذ بالثأر ، وتعليق التمائم ، وشق الجيوب عند المصيبة ، وإقامة المآتم ، واجتماع النسوة الثكلى بعضهن ببعض ؛ لأن " الثكلى تحبّ الثكلى [2] " طمعا في أن يخفّ مصابها إذا رأت من يشاركها البكاء والجزع ؛ فممّا يدلّنا على عادة الأخذ بالثأر قول دختنوس بنت لقيط [3] :

فما (ثأره) فيكم ولكن (ثأره)شريح ، وأردته الأسنة إذ هوى

فإن تُعقبِ الأيامُ من عامر يكن عليهم حريقا لا يُرام إذا سما

وقول ابنة بُجير [4] :

فما كعبٌ بكعبٍ إن أقامتْ ولم تثأرْ بفارسها القتيلِ

1- الأصمعي : الأصمعيات ، ص101 .

2- الميداني : مجمع الأمثال ، ج1 ، ص153 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص251 .

4- المرزباني : أشعار النساء ، ص64 .

وقول عاصية البولانيّة [1] :

صبرنا لما يأتي به الدهـر عامـدا ولكنمـا (أثآرنـا) في مُحـارب

ومما يدلّنا على عادة تعليق التمائم قول الخنساء أخت زهير [2] :

ومـا يُغنـي توقّـي الموت شيئـا ولا (عَقْـد التميـم ولا الغُضار)

أما شقّ الجيوب نجد شاهدا عليه عند آمنة بنت عُتيبة [3] :

علـى مثـل ابـن ميـّة فانْعَيَـاه (بشـقّ نواعـم البَشـر الجيوبا)

ويُظهر البيتان التاليان عادة إقامة المآتم الحزينة ؛ تقول رائطة بنت شيظم[4] :

مـع كـل رنّـة (مـأتـم) لـي (مأتـم) وعلـي (ماتـم)

وتقول ريطة بنت عاصم [5] :

وقفـت فأبكتني بـدار عشيرتـي على رزئهـن الباكيـات الحواسـر

تصف ببيتها هذا مأتما بدار عشيرتها تظهر فيه النساء باكيات حاسرات ؛ أي كاشفات عن رؤوسهن ووجوههن .

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج2 ، ص921 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج10 ، ص244 .

3- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج5 ، ص250 .

4- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

5- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1100 .

ومن خصائص رثائهن أيضا ندرة الحكمة فيه ويرجع ذلك إلى " أنهن ينصرفن إلى النواح ، ويستغرقن في الرثاء ، لا يلوين على غيره ؛ فلا يلحق به سواه ، كما كان الرجال يفعلون [1] " ، وترجع هذه الندرة أيضا إلى مباغتة الحدث الذي يصل خبره إليهن فجأة بغير مقدمات ؛ فتضج عواطفهن بالصراخ ، وترتفع الحكمة حينذاك إلا عن قلة منهن يستطعن تمالك أنفسهن مفسحات للحكمة أن تأخذهن إلى المجرى الحيويّ الطبيعيّ المحكوم بالعقل ، والتصرّف إزاءَ الحدث برزانة وانضباط ؛ مثال ذلك قول سُعدى بنت الشمردل [2] :

إن الحوادث والمنون كليهما ... لا يَعتبان ولو بكى من يجزع

ولقد علمت بأن كل مؤخر ... يوما سبيل الأولين سيتبع

ولقد علمت لو ان علما نافع ... أن كلّ حيّ ذاهب فمسودع

أفليس فيمن قد مضى لي عبرة ... هلكوا وقد أيقنت أن لن يرجعوا

وقول أم السليك بن السلكة ترثيه [3] :

كلّ شيءٍ قاتلٌ ... حينَ تلقى أجلَك

1- أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ــ مصر ، 1382هـ ــ 1963م ، ص625 .

2- الأصمعي : الأصمعيات ، ص101 .

3- التبريزي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، ج1 ، ص579 .

وتتصل ندرة الحكمة بما هو أندر في رثائهن وهو المثل ؛ إذ تقع الدراسة على مثل واحد من أشعارهن الرثائيّة قد عدّه الميدانيّ أحدَ الأمثال وهو " ثكلتك أمُّك أيَّ جَرْدٍ ترقع [1] " ، والمثل جزء من بيت لسعدى بنت الشمردل ترثي أخاها أسعد ، تقول [2] :

أجعلتَ أسعدَ للرماحِ دريئةً (هبلتْك أمُّك أيَّ جرْد ترقع)

وقد فسّر الميدانيُّ معنى لفظ (الجَرْد) بالثوب الخلَق ، غير أنه لم يرفع المثل إلى قائله ، ونحن نجد أنّ المطابقة بين المثل والبيت حاصلة تماما لولا الاختلاف بين كلمتي (هبلتك) في البيت و (ثكلتك) في المثل ، وهو لا يغيّر في الواقع كثيرَ معنى ، ومثل هذا الاختلاف كثير بين الرّوايات .

ثانيا : الخصائص المعنوية الخاصة :

وهي ما تخصّ كلّ اتجاه من اتجاهات فنّ الرثاء على حدة ؛ ففي رثاء الآباء تكثر الراثية من امتداح أبيها امتداحا تلبسه به أجلّ صفات الأبوّة من شرف في النسب وكرم في الطباع ، وحلم ومروءة وإحسان على

1- الميداني : مجمع الأمثال ، ج1 ، ص155 .

2- الأصمعي : الأصمعيات ، ص101 .

الأرامل والأيتام ، يوجد ذلك في قصيدة خالدة بنت هاشم في أبيها ، فقد أسبغتْ عليه مديحا في كلّ أبيات القصيدة ، ومنها [1] :

شيظمي مهذّب ذي فضول أبطحيّ مثل القناة وسيم

صادق البأس في المواطن شهم ماجد الجدّ غير نكْس ذميم

ونفهم من رثاء أروى بنت الحُباب أباها بأنّه كان محسنا للأرامل واليتامى محافظا على الأحساب ، تقول [2] :

قل للأرامل واليتامى قد ثوى فلتبك أعينها لفقْد حُباب

وتقول :

أودى ابنُ كلّ مُخاطرٍ بتلادِهِ وبنفسه بُقيا على الأحساب

وتصف دختنوس أباها بالرئيس ، وهذه الصفة من أجلّ ما يتّصف به الأب ؛ لأنه يمثّل سيادة أوّلية على البيت ، فإذا قرنها برئاسة القبيلة صارت الصفة عليه حينذاك ألصق وأشهر ، تقول [3] :

ورئيسها عند الملوك وزَيْن يوم خطابها

وفي رثاء الأبناء أول ما يلاحظ أن الأم ترفض قبول الدِّيَة ، بينما

1- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

2- البحتري : الحماسة ، ص275 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ج2 ، ص251 .

الأب يرضى بها ، نعرف هذا من عِتاب أمّ قِرفة لزوجها [1] :

أيقتـل قرفـةً قـيـسٌ فترضـى ... بـأنـعـامٍ ونـوقٍ سـارحـات

أما تخشـى إذا قـال الأعـادي : ... حذيفـة قلبـه قـلـب البـنـات

فخـذ ثـأرا بأطـراف العوالـي ... وبالبـيـض الحـداد المرهفـات

وإلا خلّـنـي أبـكـي نـهـاري ... وليلـي بالدمـوع الـجـاريـات

لـعـلّ منيتـي تـأتـي سريعـا ... وترمينـي سهـام الـحـادثـات

فـذاك أحـبّ مـن بعْـل جبـان ... تـكـون حياتـه أردا الـحـيـاة

ونعـرف كذلك أنّ الأمّ تتمنى أن تفـديَ ابنها بنفسها مـن المـوت لو استطاعت ؛ تقول أم السليك [2] :

لـيـت نـفـسـي قُـدِّمـتْ ... لـلـمـنـايـا بـدَلَـكْ

أما ما يتعلّق بصفات الفقيد ، فهي ترى ابنها الكامل فـي نظرهـا ، وتراه زين الناس جميعـا ، وهاتـان الصفتـان نفتقدهما في الاتجاهـات الأُخـرَ مـن الرثاء هـذا ، تقـول أمّ عمرِو بن عَديّ في رثاء ابنها [3] :

1- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص62 .

2- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص579 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص44 .

ويـــح عمـــرو بن عـــدي من رجل حان يوما بعدمـــا قيـــل (كمـــل)

وتقول تماضر بنت الشريد [1] :

علـــى ولـــد و (زين الناس طرّا) إذا ما النار لـــم تـــرَ مَـــن صَلاها

ويُظهر لنا هذا اللونُ من الرثاء حديثَ الأمِّ عن عُنوسة الزوجة إذا مات عنها الزوج قبل أن يَبني بها ؛ تقول عمرة الخثعمية [2] :

لقد ساءني أنْ عنّســتْ زوجتاهما وأن عُرِّيتْ بعـــد الوجـــى فرساهما

وفي رثاء الإخوان تشبّه الشاعرة أخاها باليدين ؛ تقول رائطة بنـــت شيظم [3] :

كـــانـــــا يـــــديّ فـــشـــلّـــتـــــا بالســـاعـــديـــن وبالمـــعـــاصـــم

ونرى في رثاء الإخـــوان تركيز الشاعرات على صفتي الـــشجاعة والفروسية ، وهما صفتان تتصـــلان بـــروح الـــشباب ، وعاطفـــة الأخـــوة المحامية عن حمى الأهل والقبيلة ؛ لأنّ القوة تكون في الـــشباب ، وأغلـــب قصائد ومقطعات هذا الاتجاه لم تغبْ عن هذه الروح الشابّة .

1- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1082 .

3- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

وفي معرض تفدية الشاعرة أخاها ، نجد أنها تحاول أن تفدي أخاهـا بكل ما تملك ؛ تقول أم عمرو بن مكدم [1] :

أو كـان يُفـدى لكان الأهلُ كلّهـم ومـا أثمّـر مـن مـال لـه واق

وتقول سعدى بنت الشمردل [2] :

فوددت لـو قُبلـت بأسعـد فديـة مما يضن بـه المصـاب الموجـع

ويلفت النظر في هذا الجنس من الرثاء التباهي والمفاضلة بين النساء بإخوانهن ، على غرار مباهاة بعضهن بعضا بما يملكن من حلي ؛ تقـول أم عمرو بن مكدم أيضا [3] :

فتـى هـو خيـر من أخيكن مالك إذا احمرّ أطراف الرماح من الـدم

ولا ترى أخت عمرو ذي الكلب ندا لأخيها تثأر منه ؛ لأن أخاها في نظرهـا الأفضل على الإطلاق ؛ تقول [4] :

والـلـه لـو بـك لـم أدع أحـدا إلا قـتـلـت لفاتـنـي الـوتـر

1- أبو عبيدة : أسام العرب ، ج2 ، ص307 .

2- الأصمعي : الأصمعيات ، ص102 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص137 .

4- المبرد : الفاضل ، ص60 .

وفي رثـــاء الأزواج تنعت الشاعرة زوجها بالأنف ؛ فترفع من شأنه تشبيها له بالأنف المرتفـــع على كثير مـــن أعضاء الجسم وفي هـــذا كنايـــة عـــن سيادته على البيـــت ، أو القبيل ، أو على كليهما ؛ تقـــول الخرنـــق بنت بدر [1] :

هـــم جدعوا (الأنوف) وأوعبوها فما ينساغ لـــي مـــن بعـــد ريقـــي

وتصف فاطمة بنت الأجحم زوجها بالجبل ؛ تقول [2] :

قـــد كنـــت لي (جبلا) ألوذ بظلـــه فتركتني أضحـــى بأجـــرد ضاحـــي

وتصف زينب الشكرية زوجها وصفا مطابقا للحالة الزوجية التي يكون فيها الزوجان متآلفين في حياة تسودها المودّة والدَّعة؛ لذلك تصفه بالإلف؛ تقول [3]

أراني كسرب حيـــل عنـــه (أليفه) قوافزه في مهمـــه الخبـــت ضلّـــت

وطبيعيٌّ أن تذكر الشاعرة الليل ؛ لأنـــه ــ غالبـــا ــ الوقـــت الـــذي يمثـــل خصوصية لقاء الزوجين معا ؛ تقول سُهيَّة زوج شدّاد العبْسي [4] :

جفانـــي الكرى وأنـــا في (الغسق) وساعدنـــي الدمـــع لمـــا انـــدفـــق

1- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، ص26 .

2- القالي : الأمالي ، ج2 ، ص1 .

3- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص61 .

4- ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص159 .

ويتّسم هذا الاتجاه كذلك بذكر البيت ؛ لأنه عُشُّ الزوجية ، ومكـــان الولادة ؛ تقول جليلة زوج كليب [1] :

يـــا قتيـــلا قـــوضـــت صرعـــتـــه سقـــف (بيتيّ) جميعا مـــن عـــل

قوضت (بيتي) الذي استحدثتـــه وانثنـــت في هـــدم (بيتـــي) الأول

وفي الرثاء القبلي نجد أن الرثاء لدى الشاعرات لم يتوقف عند رثاء المقربين منهن حسب ، بـــل تجاوزهم حتى شمل سواهـــم من قبائل شـــتى ، مهما كان بين قبيلة الشاعرة وقبيلة المرثي من عـــداوة أو بغـــضاء ؛ تقـــول زينب بنت مالك ، وقد عاتبها أهلها على رثاء يزيد ابن عبد المدان [2] :

ألا أيهـــا الـــزاري علـــي بأننـــي نزاريـــة أبكـــي كـــريمـــا يمانيـــا

وتعلل لقومها سبب رثائها له :

ومـــا لـــي لا أبكي يزيـــد وردنـــي أجـــرّ جديـــدا مدرعـــي ورداثيـــا

بل هناك ما هو أعجب من هذا ؛ هو أن تدعو الشاعرة على ابنها إن كان قاتلا من أحسن إليهما على السواء ؛ تقول أم ناشرة [3] :

لقـــد عيّـــل الأيتـــام طعنة ناشره أناشـــر لا زالـــت يمينـــك آشـــره

1- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص129 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص16 .

3- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص147 .

ويُظهر لنا الرثاء القبلي لديهن كذلك جانب المساواة بين فرسان القبيلة الواحدة ؛ تقول الخرنق بنت بدر في قومها [1] :

والخالطين نحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقر

كما يُجلّي لنا هذا الاتجاه حديث الشاعرة عن التماسك والجلَد لأبناء القبيلة عند نزول الشدائد عليهم كنتيجة طبيعية لاتحاد أفراد القبيلة وتعاضدهم ؛ مثال ذلك قول ريطة بنت عاصم [2] :

ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا لَهُدّتْ ولكن تحمل الرزءَ عامرُ

1- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، (تحقيق : يسري عبد الغني) ، ص43 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1100 .

الفصل الثالث

الخصائص اللفظية

يجب أن يُفهم بداية ذي بدء أن لغة الشعر لا تتوقّف عند المعاني الحسيّة المعجمية القريبة ، بل تتجاوز هذا الحدّ إلى المعاني المجرَّدة ، ذات العمق الدّلالي البعيد ؛ فهي لغة الانزياح من المألوف إلى غير المألوف ، وكلّما كانت الدلالة أعمق وأخصب يكون النص الشعري قد تمتّع بما يميّزه من الجمال ، ويغذّيه بالنبض والحركة ؛ فلغة الشعر " هي لغة فنية ينبغي لها أن تصل إلى معانٍ ذات خصوصيّات لُغويّة [1] " .

ولإيجاد هذه الخصوصية يسعى هذا الفصل إلى تجلية العلاقة المشتركة بين موضوع الرثاء وما يتصل به من ألفاظ وأساليب ؛ يقول القرطاجنّي [2] : " وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل ، مبكي المعاني ، مثيرا للتباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة ؛ سهلة في وزن متناسب ملذوذ ، وأن يُستفتح فيه بالدلالة على المقصد " .

وهذا ما يُلمس على ألفاظ الرثاء لدى شاعرات الجاهلية ، وملاءمة الألفاظ للمعاني ؛ فما إن تستهلّ الشاعرة رثاءها حتى يتعالى نغم

1- إبراهيم السامرائي : في لغة الشعر ، د.ط ، دار الفكر ، عمان ــ الأردن ، د.ت ، ص3 .

2- القرطاجني ، أبو الحسن حازم ، (ت684هـ) : منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، د.ط ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، د.ت ، ص351 .

البنية الصوتية الدالة على معانٍ تفسّر ــ غالبا ــ بأنهـا ذات دلالـة رثائيـة حسيّة ، أو مجرّدة .

وحقيقٌ أنْ يُفهم أيضا بأن هناك سلطانا يحكم سيرورة البنيـة اللفظيـة في النص الشعري هو سلطان الموسيقى ؛ فلا يسمح للفظ أن يأتي عفْوا بلا توجيه ، بل يجب أن يكون الشاعر ضابطا ومسيّرا للفظ بحيث يكون منسجما مع الوزن والقافية ، ومع الدلالة ، وعندئذ يكون العمل الشعريّ قائما علـى ثلاث أثافي هي اللفظ ، والمعنى ، والموسيقى . وأي سـقوط لواحـدة منهـا ينكفئ بسببه قِدْر هذه الصنعة الفنية على نارها فتخمد ! .

ويتبيّن لنا أن جُلّ الألفاظ في بنية المرثية لدى الشاعرات الجاهليـات تشي لنا بمعاني الحزن والكآبة ؛ يظهر ذلك في ألفاظ مثل : لِيبـْكِكْ ، أرملة ، فجعت ، هُلكه ، الحنف ، عفَتْ ، اليتامى ، شيّب ، النعي ، المنايا ، قتلنـا ، عقيرة ، الموت ، الرزايا ، القتيل ، الدمع ، العين ، بكي ، آسـى ، لهـف ، حسرتي ، بؤس ، أفجعتني ، حنظل ، جزَع ، وأودى . وإلـى غيـر هـذه الألفاظ الحزينة الباكية ؛ وهي من الكثرة ما يجعلها ساكنةً في كلّ بيت من أبيات قصيدة أو مقطّعة ؛ مثال ذلك قول خالدة بنت هاشم [1] :

بكـتْ عينـي وحـقّ لهـا بُكاهـا وعاودهـا إذا تمسـي قـذاهـا

1- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

أُبكّي خيـــر مـــن ركـــب المطايـــا ومـــن لبـــس النعـــال ومن حذاها

أبكّـــي هاشمـــا وبـــنـــي أبـــيـــه فعيـــل الصبـــر إذ مُنعـــت كراهـــا

وكـــنـــت غـــداة أذكرهـــم أراهـــا شديـــدا سقمهـــا بـــاد جـــواهـــا

فلو كانـــت نفـــوس القـــوم تفـــدى فديتهـــم وحـــقّ لـــهـــا فـــداهـــا

فإذا حاولنا أن نعُـــدَّ شيئا منها وجدناهـــا كالتالـــي : بكت عينـــي ، بكاها ، قذاها ، أبكي ، فعيـــل الصبر ، منعت كراها ، شديدا ســـقمها ، بـــاد جواها . ويضاعف من العجب بكثرتها عندما نتبيّن أنها وقعـــت في مقطّعـــة من خمسة أبيات ، بل هناك ما هو أكثر من هذا ، تقول الكندية [1] :

أبـــوا أن يفـــروا والقنا في نحورهم فماتوا وأطراف القنا تقطـــر الدمـــا

ولو أنهـــم فـــرّوا لكانـــوا أعـــزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعـــوا بجيشان من أسباب مجـــد تصرما

نُبصرُ معظم هذه الألفاظ والتراكيب قد جاءت حزينةً مثل قولهـــا : " القنا في نحورهم ، فماتوا ، أطراف القنا تقطر الدما ، صبرا على المـــوت ، هوت أمهم ، مجد تصرما " .

ولا يخفى امتزاج الألفاظ ذات المعاني الحسيّة بالألفاظ ذات المعـــاني المجرّدة ؛ ففي المقطعة الأولى نرى الألفاظ الحسيّة ، مثل : بكـــت عينـــي ،

1- المبرد : التعازي والمراثي ، ص26 .

وأبكي ، وأبكي هاشما . ونجد أيضا التراكيب المجردة ، مثل : " عاودها إذا تمسي قذاها " ، و " فعيل الصبر " . وتكاد تكون جميع ألفاظ وتراكيب المقطعة الأخرى ذات معان مجردة ، مثل : " القنا في نحورهم " ، و " هوت أمهم " ، و " مجد تصرما " .

وتشترك معظم الشاعرات في استخدام ألفاظ بعينها ، كلفظ (الموت) وما يدلّ عليه من ألفاظ أُخر ؛ مثل : الهلاك والحتف ، والمنايا ؛ ويرجع هذا إلى اعتبار الموت قُطْبا يدور حولَه موضوع الرثاء ؛ فلا ريب أن يكثر ذكرُه وتتعدّد ألفاظه في أشعارهن ؛ تقول أم الصريح الكندية :

ولو أنهم فرّوا لكانوا أعزةً ولكن رأوا صبْرا على(الموت) أكرما

وتقول حارثة بنت كلمن [1] :

كلمنُ هدّمَ ركني (هُلْكُهُ) وسطَ المحلّه

وتقول الأزدية [2] :

لا أرى مثلَ سامةَ بنِ لُؤَيٍّ حملتْ (حتفَه) إليه الناقة

وتقول أم السُّليك [3] :

و (المنايا) رصَدٌ للفتى حيثُ سلَكْ

1- المسعودي : مروج الذهب ، ج2 ، ص149 .

2- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (فوق) .

3- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج1 ، ص579 .

ويُعَدُّ التكـــرار اللفظي من خصائص رثائهن ؛ لأن الشاعرة تؤكد به موقفها إزاء الحدث ، وتراه أسلوبا يُعرب عن قصدها فـــي الإفاضـــة عـــن صفات المرثي ؛ تستثير به مزيدا من كوامن عواطفها نتيجة امتلاكها لـــذلك الإيقاع المتناغم الذي تَبني عليه جديدا من التراكيب الدالة على مناقب الفقيد ؛ فتكرّر ألفاظا وتراكيب مثل : ألا هلك ، وأبكي ، وربّ ، ولقد علمت ، وأُتيح ، فنالا لعمرك منه . مثال ذلك تقول امرأة من حنيفة [1] :

ألا هـــلـــك ابـــن قـــرّان الحميـــد أخـــو الجُلّـــى أبـــو عـــمرو يزيد
ألا هـــلـــك امـــرؤ هلكـــت رجـــال فلـــم تُفقـــدْ وكـــان لـــه الفُقـــود
ألا هـــلـــك امـــرؤ حبّـــاس مـــالٍ علـــى العِـــلاّت مِتـــلاف مُفيـــد
ألا هـــلـــك امـــرؤ ضلّـــت عليـــه بشـــطِّ عُنيـــزةٍ بقـــرٌ هُـــجـــود

وتقول عمرة بنت دريد [2] :

فـــربّ عظيمـــةٍ دافـــعـــتَ عنهـــم وقـــد بلـــغـــت نفوسهـــمُ التراقـــي
وربّ كـــريـــمـــة أعتقـــتَ منهـــم وأخرى قـــد فككـــتَ مـــن الوَثـــاق
وربّ مُـــنـــوّهٍ بـــك مـــن سُليـــمٍ أجبـــتَ وقـــد دعـــاك بـــلا رمـــاق

1- المفضل الضبي : المفضليات ، ص273 .

2- ابن هشام : السيرة النبوية ، مج2 ، ج4 ، ص75 .

وتقول سعدى بنت الشمردل [1] :

ولقد علمتُ بأنّ كلّ مُؤخّرٍ يوما سبيلَ الأولين سيتبعُ

ولقد علمت لو انّ علماً نافعٌ أنْ كلّ حيٍّ ذاهبٌ فمودّعُ

وتقول أخت عمرو ذي الكلب [2] :

أتيحَ له نَمُرا أجْبُلٍ فنالا لعمرُك منه مَنالا

أتيحا لوقتِ حِمامِ المنونِ فنالا لعمرُك منه ونالا

وتتخذ الأساليب في لغتها أشكالا عديدة ؛ كالنداء والاستفهام والحوار والتمني والنهي والطلب والدعاء . وأغلب ما تلحق هذه الأساليب بمطالع وخواتم القصائد ، وقد عرضت الدراسة لأكثرها بالأمثلة في معرض الكلام عن بنية المرثية (القصيدة)في الفصل الأول من الباب الثاني ، وما بقي إلا عرْضُ نفس الأساليب التي ورد استخدامها في المقطعات ، ومن ذلك أسلوب النداء ، نجد مثاله في مقطعة فاطمة بنت الأجحم ؛ تقول [3] :

إخوتي لا تَبْعَدوا وبلى واللّهِ قد بَعَدُوا

فقولها " إخوتي " ؛ أي يا إخوتي .

1- الأصمعي : الأصمعيات ، ص101 .

2- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

3- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ج1 ، ص578 .

ونجد أسلوب الاستفهام مثلا في مقطعة أم عمرو بن عدي ؛ تقول [1] :

أيُّهمْ دلاّك عمرٌو للردى وقديما حيّن المرءَ الأجلْ

فـ (أيُّ) في قولها " أيهم " استفهامية تفيد الإنكار ، وكأن موت ابنها باغتها ، فلم تحتمل تصديق الخبر ؛ فعمدت إلى الاستفهام الإنكاري .

ونرى مثل هذا الاستفهام الإنكاري عند أم قيس الضبية ؛ تقول [2] :

مَن للخصوم إذا جدَّ الضَّجاج بهم بعد ابنِ سعدٍ ومن للضمّر القُودِ

إلا أن الأولى تستفهم منكرة ورود ابنها على الهلاك ، والأخرى تستفهم منكرة أن يقوم أحد بما كان يقوم به ابنها من قتال للخصوم ، وقيادة للخيل .

ويُلاحظ أنّ أسلوب الحوار في بعض المراثي يستدرج السامع ؛ فيدخله في جوّ الحدَث إدخالا لطيفا ؛ لاعتماده على الحكاية التي فيها قال وقلت ، وسأل وسألت ، وهي ألفاظ قصصية يَطْرَب السمع إليها ، وتشوق النفوس إلى معرفة ما وراءها من أنباء ؛ تقول عمرة بنت دريد [3] :

قالوا : قتلنا دريدا ، قلت قد صدقوا فظلّ دمعي على السِّربال ينحدرُ

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص44 .

2- المرزوقي : شرح ديوان حماسة أبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1059 .

3- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج2 ، ج3 ، ص75

وتقول أخت ذي الكلب [1] :

سألتُ بعمرٍو أخي صحبَهُ فأفظعني حين ردّوا السؤالا

فقالوا أُتيحَ له نائماً أعزُّ السِّباع عليه أحالا

ويُلاحظ أيضا على مراثيهن أسلوب التمنّي ؛ وهو أسلوب مَن لا طاقةَ له على استعادة ما فَقَدَ ، واسترجاع ما فات ، وهو بهذا الوصف يناسب موضوع الرثاء ؛ تقول ابنة مالك بن بدر في مقطعتها [2] :

(فليتهما) لم يشربا قطُّ شَربةً (وليتهما) لم يُرسلا لرهان

ويمثّل أسلوبَ النّهي قولُ فاطمة بنت الأجحم في إخوتها [3] :

إخوتي (لا تبعدوا) أبدا وبلى واللّه قد بعدوا

ويبدو أنّ الغاية منه هي بيان حرص الشاعرة على فقيدها ؛ حرص الأمّ على ابنها ، فتنهاه مبصّرة له بما يجب أن يأتيه وعما ينتهي عنه.

ويكثر أسلوب الطلب في ثنايا المراثي قصائدِها ومقطعاتها ، وهو أسلوب يلائم الرثاء ؛ لأنه يؤكد فقْر الإنسان إلى غيره ، وعدم استغنائه بذاته

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج17 ، ص145 .

3- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص578 .

عند نزول القضاء الذي يضعُف الإنسان أمامَه فتبدو حاجته إلى من يُسرِّي عنه مصابَه ، ويشاركه أحزانه ؛ تقول أروى بنت الحُباب [1] :

(قل) للأرامل واليتامى قد ثوى (فلتبك) أعينُها لفقْد حُبابِ

وقد تُوَجِّه الراثية طلبَها إلى جامدٍ غيرِ عاقل ، تشخِّص بذلك شيئاً من الطبيعة تجعله ينسجم مع امتدادِ حزنها ؛ تقول ذئب بنت نشبة [2] :

عمادُ سمائي أصبحتْ قد تهدَّمتْ (فخرِّي) سمائي لا أرى لك بانيا

وقد يُخاطب بالأسلوب نفسه الفقيد ؛ تقول أمّ عمرو بن المُكدَّم [3] :

(فاذهبْ) فلا يَبْعَدنْك الله من رجلٍ لاقى الذي كلّ حيٍّ مثلَه لاق

ويأتي أسلوب الدعاء ، منسجماً مع لغة الرثاء ؛ لأنه في الوقت الذي تعجز فيه الشاعرة عن دفع الموت عن فقيدها الغالي ، لا تملك وسيلة إلا أن تدعو للفقيد ؛ الأمر الذي يقرِّبنا من عقيدة الشاعرة ، ويقِفُنا على نوع معبودها ، على أن الدعاء ينقسم إلى أقسام ؛ قسمٍ تدعو في الشاعرة للفقيد ، وقسمٍ تدعو فيه على العدو ، وقسمٍ آخرَ تدعو فيه لنفسها . وقد سبق الحديث عنه في خواتم المراثي في بنية المرثية ، بالفصل الأول ،

1- البحتري : الحماسة ، ص275 .

2- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص307 .

من الباب الثاني ، فلا داعي للإعادة إلا لما ورد منه في المقطعات ، ومثال ذلك تقول ابنة قيس بن جابر داعيةً على حيّ الأراقم [1] :

(فلا يهنئن) حيَّ الأراقمِ فقدُهُ فكلُّ امرئٍ رهْنٌ لريبِ المقادرِ

ويبلغ الدعاءُ ذروتَه عندما تدعو الأمُّ على ابنها ؛ لأنه قتَل مَن أحسنَ إليهما ؛ تقول أم ناشرة [2] :

لقد عيَّل الأيتامَ طعنةُ ناشرهْ أناشرُ (لا زالتْ يمينك آشرهْ)

ومن صُوَر الدعاء أيضا أنْ تدعوَ الشاعرة لقبر فقيدها بالسُّقيا ؛ تقول عمرة بنت شدّاد [3] :

أسقي بسه قبرَ مَن أعني وحُبَّ به قبْراً إليَّ ولو لمْ يَفْدِهِ فادِ

وتَقِلُّ المحسِّناتُ البديعية في الرثاء عندهن ، حالهن في ذلك حال معظم الشعراء الجاهليين الذين "يَجْرُون مع طبائعهم فيسجِّلون كلَّ ما تُمليه عليهم شياطينهم ، أو تجود به قرائحهم ، دون مراجعةٍ طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم ، وإصابتها هدفهم ، صارفين النظر عن

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص241 .

2- ابن حبيب : أسماء المغتالين ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص147 .

3- المصدر السابق ، ج2 ، ص228 .

الزخارف اللفظية ، والمعاني الغريبة [1] " ، وتقل كذلك المحسنات في رثائهن نتيجة ارتجال الرثاء ، ومباغتة الحدث ؛ فيأتي عفْوا بدون تزيين ، أو تنميق ، وإنما يفعل ذلك مَن لم يُفاجأ بخبر يحزنه ،وكان في ترَفٍ من وقته وعيشه ، فيمضي إلى اصطياد الألفاظ المتآلفة ، والمعاني المتعانقة ، فيجانس بين لفظين أو يطابق بينهما ؛ إظهارا لقوَّة تمكُّنِه في صَنعته ، وتنويعا في جَرَس ألفاظه ؛ فيطرب لها السامع ، وهذا ما لا تحتاج إليه الراثية ؛ لأنها في موقف باكٍ غير مُطرب ، ولم تكن ألفاظ الرثاء يوما مطربةً لأحد ، بل كانت دائما مُشجية للأفئدة ، بيدَ أنَّ شيئا مِن الجناس أو الطباق قد جاء بغير تكلّف ؛ فمثل جزءا أصيلا فيها .

ومن أمثلة ما جاء على الجناس ؛ تقول ابنة فروة بن مسعود [2] :

بعين أباغ (قاسمنا) المنايا فكان (قسيمُها) خيرَ (القسيم)

فألفاظها : " قاسمنا " ، " قسيمها " ، " القسيم " ، تشترك في معظم الحروف ، غير أنها تفترق في المعاني . ومثل هذا عند أم السُّليك بن السُّلَكة ؛ تقول [3] :

1- محمد عبد العزيز الكفراوي : الشعر العربي بين الجمود والتطور ، د.ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ــ مصر ، د.ت ، ص4 .

2- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص562 .

3- المصدر السابق ، ج1، ص579 .

طـــاف يـبـغـــي نـجـــوةً مـن (هـــلاكٍ) فـ (هَـلَـكْ)

وتقول أيضا :

أيُّ شـــــيءٍ حـــــســـــنٍ لفتـىً لـمْ (يـَـكُ) (لَـــكْ)

وتقول زينب بنت مالك [1] :

شريـك الملـوك ومن (فضلـه) (يفضل) في المجـد (أفضالهـا)

أما عن الطباق فمن أمثلته ؛ تقول الخرنق بنت بدر [2] :

والخالطين (نحيتَهم) (بنُضارِهم) وذوي (الغنى) منهم بذي (الفقْرِ)

فالفرق واضح بين النَّحيت والنُضار ، وبين الغنى والفقر ؛ فأحد اللفظين لا يرادف الآخر ، بل يُخالفه في المعنى ؛ مُخالفة النهار لليل في رثاء أخت عمرو ذي الكلب ؛ تقول [3] :

فكنتَ (النهارَ) بـه شمسَهُ وكنتَ دُجى (الليلِ) فيه هلالا

وتقول :

إذن نبَّهـا لـيْـث عِـرِّيـسـةٍ (مُفيداً) (مُفيتاً) نفوساً ومالا

فالطباق ظاهر ما بين " مفيدا " و " مفيتا " ظهورا يُبصِّرنا كذلك بالجناس الآنف الذكر ، ولعلَّ هذا الجمال اللفظيَّ في هذين البيتين هو ممَّا حدا

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص16 .

2- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، تحقيق : يسري عبد الغني ، ص45 .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

بالعسكري أن يقول [1] : " ومثال ذلك من الكلام المستلائم الأجزاء ، غير المتنافر الأطراز قول أخت عمرو ذي الكلب " .

ومثال على الطباق أيضا ؛ تقول رائطة بنت شيظم [2] :

(الفاتقين)(الراتقين) السابقين إلى المكارمْ

فـ " الفتق " و " الرتق " ضدّان تصف بهما الراثية أخويها ؛ لأنهما ذوا قدرة على إنجاز كلا الأمرين كلّما دعتِ الحاجة إلى أحدهما أو كليهما .

2- العسكري : الصناعتين ، ص142 .

3- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

الفصل الرابع

الصدق في الرثاء

يقول الأصمعيّ [1] : " قلت لأعرابيٍّ : ما بال المراثي أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنّا نقولها وقلوبنا مُحترقة " ، هذا لأنها تصدر عن عاطفة صادقة ، يؤجّجها مكانُ الفقيد من الراثي ، إذا كان المرثيُّ أبا أو عمّا ، أو ابنا أو أخا ، أو ذا صلة قبَليّة بالراثي ، أو ذا يدِ إحسانٍ ومعروفٍ عليه ، كما هو الحال في الرثاء عند شاعرات الجاهلية ؛ فلم يتعدَّ رثاؤهن ــ حسْب علمي ــ هذه الاتجاهات ؛ فوصل إلينا مُفعما بخصوصية الصدق ؛ فمن ذاق مرارة فقْد الأحباب ، واكتوى بألم المصاب ، وعانى الحرمان ممن تقرّ به عينُه ، وتطمئنّ به سريرته ، كان من أصدق الناس تعبيرا عن شجَنه ، وأدقهم وصفا لحاله ؛ يقول أرسطو [2] : " والحق أنّ أقدر الناس تعبيرا عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه " ؛ ولا سبيل حينذاك إلى كتمه أو كظمه ؛ لأنّ حرارته قد يذوب منها الفؤاد ، وزفراتِه تضيق بها الضلوع ، فلا مكان له بينها ، إلا أن يُنفث به إلى خارج النفس ، فهو الوضع الطبيعيّ الصحيّ لعافية الحزين ، أمّا أن يبقى حزنه معتلجا بخلجات النفس في شهيقها

1- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج3 ، ص228 .

2- طاليس، أرسطو : فن الشعر ، د.ط ، ترجمه وشرحه وحققه : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ــ لبنان ، د.ت ، ص48 .

وزفيرها ؛ فإن ذلك ممّا يَضُرّ بها ، قيل [1] : " إنّ امرأة مات ولدها ، فأمسكت نفسها صبرا واحتسابا ؛ فخرج الدَّمُ من ثديها ؛ وذلك لما ورد عليها من شدة الحزن مع الامتناع من البكاء " وليس هذا ببعيد ؛ لأنّ هناك ما يؤكِّده من قصَص القرآن العظيم ، فسيدنا يعقوب ــ عليه السلام ــ حزِن على ابنه يوسفَ عندما افتقده حزنا ابيضّتْ منه عيناه ؛ يقول تعالى [2] :

(وتولّى عنْهم وقال يا أسفا على يوسفَ وابيضَّتْ عيناهُ من الحزْنِ فهو كَظيمٌ) ، ومرجِع هذا إلى صدق العاطفة ، وقوتها التي قد تصل بصاحبها إلى حالٍ يوقّرها الاعترافُ بواقع المصيبة ، أو إلى حال يزيّنها الرفق بالنفس ، وهُما ــ كما أحسب ــ حالتان ممكنتان تتفاعلان مع الحدث بما يوازيه من قوّة نفسيّة " فنادبة تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجْد من رقدته ، بصوت كترجيع الطير ، تقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدْعا في القلوب الجلامد ، ونادبةٌ تخفض من نشيجها ، وتقصد في تحبيبها ، وتذهب مذهب الصبر والاستسلام [3] " .

إذن ،فمكانة المرثي ، ونوع الراثي ، ومعايشة الحدث ، عناصر تخلق الصدق في فنّ الرثاء ، ويمكن أن تُحدّد بؤرُ هذا الصدق بوساطة

1- العسكري : الصناعتين ، ص125 .

2- سورة يوسف ، الآية 84 .

3- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج3 ، ص228 .

تعيين نقاطِ الانفعال والتوتّر النفسيّ في بعض المراثي ، والاستدلال عليها بألفاظ خاصّة ، وبجمل انفعالية ــ غالبا ــ تعكس صدق العاطفة مقرونا بالزمان ، الذي يمثّل " لحظة سماع النعي صدمة عنيفة لمتلقيه ، وتختلف استجابات المتلقين ،وتأثيراتها حسب الصلة بالفقيد ، أو ما يتركه من الفراغ في نفس الشاعر ، ولكنها لحظة تبعث على اليأس والتشاؤم ، وتفتح باب الحزن والألم الذي يجدّد الأسى كلّما هاجتِ الذكرى [1] " ، نتبيّن ذلك في مُستهل رثاء الفقيد ؛ لأنه يمثّل الواجهة الأولى لمأساة الشاعرة ، وفي ختام رثائها كذلك ، الذي قد يمثّل صعودا بالعاطفة فيسمو صدقها ، أو نزولا فيفتر صدقها ، ونرى كيف تصف أثر موت الفقيد عليها ؟ وكيف تشمت بأعدائه وتحرّض على الأخذ بثأره ؟ .

يصل إلى حارثة بنت كلمن نبأ موت أبيها ؛ فتصرخ باسمه عاليا في مستهلّ رثائها ؛ تقول [2] :

كلمنُ هدّمَ ركني هُلكُهُ وسْطَ المحلّهْ

1- سناء جميل عطا جبر (1999): فن الرثاء في الشعر الأموي ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ص139 .

2- المسعودي : مروج الذهب ، ج2 ، ص150 .

تدخل في جوّ الحدث مباشرة بغير مقدّمات ، فهناك فقيد تترتب على فقده خسارة تُعبِّر عنها الشاعرة مبالغة بالفعل " هَدَمَ " وليس بهَدَمَ ؛ لأنّ الفقيد أبٌ لها ، وسيدٌ لقومها ، وبه عزتها ومنعتها . وفي ختام رثائها يتعاظم عليها المصاب ؛ فتقول :

كـوّنـــتْ نـــاراً وأضـــحـــتْ دارُ قـومـــي مُـضـمـحـلّـــةْ

ممّا يدلّ على تأجج عاطفتها بداية من قولها : " هدّم ركني " وهـو وصـف خاصّ لحالتها إلى أن تنتهـي إلى قولها : " دار قـومي مـضمحلة " وهـو وصف عامّ يعبّر عـن شمولية حزنهـا الذي عمّ دار القوم جميعا .

أما ابنة قيس بن جابر فتعبّر عن صدق عاطفتها تجاه أبيها بقولها [1] :

تطـاول ليلـي للهمـوم الحواضـر وشيّـب رأسي يومُ قيسِ بـن جابرِ

أيضا تذكـر اسم أبيهـا " قيس بن جابر " ، وتنظمه بجانب كلمـاتٍ حزينة : " تطاول " على وزن (تفاعل) دليـل على مزيـد مـن الطـول . و " ليلـي " و " للهموم الحواضر " و " شيب رأسـي " ، وهـي كلمـات عاطفةٍ صادقة تعبّر بعفْوية تامّة عن الحدث ، بغير تنميقٍ للصنعة ، ثم تختـتم بالدعاء على قتلة أبيها :

فـلا يهنئـن حـيَّ الأراقم فقـدُهُ فكل امرئ رهـنٌ لريـبِ المقـادرِ

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص241 .

فخاتمـــة رثائها ليست بأقلَّ انفعالا مـــن مستهلّها ؛ فقـــد اســـتخدمتْ أسلوبَ الدعاء تعبيرا عن عاطفـــةٍ ناقمةٍ تتوقع لهم عدمَ الهناء في قادم الأيام طالما هناك قوّة تجتاح الأعمار وإن طالت ، يُسمى " ريب المقادر " .

ويصل دختنوسَ بنت لقيط نبأُ مقتل أبيها ؛ فتنفجر غضبا على قاتليـــه ؛ تقول [1] :

ألا يا لها الويلاتُ ويلاتُ مَن بكى لضرْب بني عبْس لقيطاً وقد قضى

تغضب على بني عبس ؛ فتقذف الويلاتِ المترادفةَ عليهم متوعّدةً إياهم :

فإنْ تُعقـــبِ الأيامُ مِن عامرٍ يكـــنْ عليهـــمْ حريقـــاً لا يُرام إذا سَمـــا

فيتّضح الصدق في عاطفتها بدليل : " الويلات " ، " الـــويلات " ، " علـــيهم حريقا " ، " لا يُرام " وهي ألفاظ تعبّر عن العاطفة المتوتّرة الشديدة الانزعاج ، ولا يفوتها في ختام قصيدتها من الشماتة بهم :

لقـــد صبـــرتْ للموتِ كعْبٌ وحافظتْ كِلابٌ (وما أنتم هناك لمن رأى) ؛

فالكلمات في آخر عجز البيت الأخير تعبيرٌ فاضـــح ، يـــدلُّ علـــى جُبـــنهم وفرارهم عن مشاركة الفرسان ساحاتِ الوغى .

وتترحّم أمّ عمرو بن عديّ في مُستهلّ أبياتها على ابنها ؛ تقول [2] :

1- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص250 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص44 .

ويــحَ عمــرِو بــنِ عديٍّ مِنْ رجلْ حــانَ يومــاً بعدمــا قِيــلَ كَمَــلْ

كــان لا يعــقــلُ حــتّــى مــا إذا جــاء يــومٌ يأكــلُ النــاسَ عَقَــلْ

فقولها " ويح " دعاء له بالرّحمة ، ثم نداؤها بإعلان اسمه دليلٌ على استعذاب التلفُّظ باسم فقيدها ، ويَظهر انفعالها في استخدام الفعــل المــضارع " يأكل " مشخِّصةً له فاعلا " يوم " والمفعول به هو " الناس " ، تُريــد بهــم جميعا (ابنها) فهو جزءٌ عن كــلٍّ ؛ واحدٌ عن أمّة ، ثم إن الجملة الفعلية " يأكل الناس " التي استخدمتها تعبّر عن استمرارية فقدها الــذي لا يعوِّضــها عنه شيء ، ولا يقوم مقامَه رِبْحٌ يُوازيه ؛ فهي في ثكْل مستمرٌ دائم .

ويبلغ بها الأسى مبلغا يصرفها عن حقيقة أنّ كلّ من مــات فــات ؛ فتظلّ تنتظر إيابَه ، معلِّلةً نفسَها بالأمل :

قــد تــنــظّــرنــا لــغــادٍ أوْبــةً كــان لو أغنى عــن المرءِ الأمــلْ

فلا يخفــى أنها استخدمت " قد " لتحقيق انتظارِ رجوع ابنها الّــذي دلّتْ عليه بالفعل المضارع المضعّــف للمبالغــة " تنظّرنا " إشــــارة إلــى كثرة الانتظار ؛ ممّا يَسِمُ رثاءَها بالصدق من حيثُ كــونِ المرثيِّ ابنــاً لهــا وهي أمٌّ له ، ومن حيث نعته بأحسن ما تُريد الأم لابنها في قولها : " كَمَــل " ، وتعليلها النفس بانتظار إيابه .

وفي مطلع رثاء أخت ذي الكلب أخاها تناديه ، ولكنها لا تعلن اسمه ، واكتفتْ بالاسم الموصول " مَن " بمعنى الّذي ؛ فهو في نظرها أجلّ من أن يُسْمَى لشهرته بالشجاعة والفروسية ؛ تقول [1] :

يا مَن بمقتله زُهي الدّهرُ قد كان فيك تضاءلَ البدْرُ

ثم تُقسِم بعد أبيات من هذا البيت :

واللهِ لوْ بكَ لسْ أدعْ أحداً إلا قتلتُ لفاتني الوِتْرُ

وتختتم بوصف قبره بالقدسيّة ، وحسَدِ ظهر الأرضِ لباطنها يومَ نزل فيها :

حتى حللتَ بأرضها فتقدّستْ فاليومَ يحسُدُ بطنَها الظهرُ

نجد صدقها واضحا من ندائها أخاها ميتا ، لا يُحير جوابا ، ولكنها تُحْيِيه ؛ لتوهمَ نفسها بوجوده ، وهذا موضعُ توتُّرٍ يُنافي الواقع ، ثم أنها تُقسِم وهو موضعٌ ثانٍ للتوتّر يُخيّل لسامعها أنها تقف مُغضبة ، محمرّة العينين ، عاليا صوتها بالقسم ، رافعة أصبعها متهدّدةً عدوها بالثأر لأخيها ، ثم تختتم بانفعال آخر هو إضفاء القدسيّة على أخيها ، وهذا قمة المبالغة في تأبين إنسان لا يعدم من الهنات ، وإن كان نبيًا .

1- المبرد : الفاضل ، ص59 .

ويمكـــن أنْ نلمس صدق الرثاء في بيان تأثير مـــوت الفقيـــد علـــى الشاعرة ؛ كيف تصف الراثية ذلك الوضـــع الذي ستؤول إليه بعد فقيـــدها ؟ مثال ذلك نجده عند رائطة بنت شيظم ، بعد مقتل أخويها ؛ تقول [1] :

فبقيـــتُ كالـــطـــيـــرِ المقـــصّـــــصِ ريـــشُـــهُ واهـــــي الـــقـــــوادمْ

لا أســـتـــطـــيـــــعُ ، ولا أطـــيـــــقُ أردُّ عـــنّـــي كـــــفَّ ظـــالـــــمْ

مـــعْ كـــلِّ رنّـــــةِ مـــأتـــــمٍ لـــي مأتـــــمٌ وعلـــيَّ ماتـــــمْ

فـــالـــيـــومَ أخـــضـــعُ لـــلـــذلـــيـــــلِ وللمحـــــاربِ والمســـالـــــمْ

تقول " فبقيت " ؛ أي عُقيب مقتلهما مباشرة ، كيـــف بقيـــتْ ؟ علـــى أربعةِ أحوالٍ مجتمعة في حالٍ واحدٍ هي : ضـــعيفةٌ كطيـــر بـــلا ريـــش ، مهضومةالحقّ بغير نصير ، حزينةٌ ذات مأتم ، خاضـــعةٌ مُجاملـــةٌ ؛ لتتقـــيَ الأشرار بعدما عَدِمتِ المحامي عنها . وهي بهذا تكشف لنا صدق رثائهـــا إذ تُبيّن لنا حقيقةَ واقعها ، الذي يفرضه عليها القضاء .

نَضرِب مثالا على معاناة الشاعرة بعد موت فقيـــدها بـــسعدى بنـــت الشمردل التي يروّعها موت أخيها ، وتبيت ليلها ساهرة الطـــرف ؛ لا يغفـــو

1- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

لها جفن ، ولا تهجع لها نفس ، وحيدةً بعد أُنس ، باكيةً بعد فـرح ، بعـين طليحة أعياها الحزن وكدّها السهر ؛ تقول [1] :

أمِـنَ الـحـوادثِ والمنـونِ أروّعُ وأبيـتُ ليلـي كلّـهُ لا أهـجـعُ

وأبيـتُ مُخليـةً أبكّـي أسـعـدًا ولمثلِـهِ تبكـي العيـونُ وتهمـعُ

وتبيـّنُ العيـنُ الطّليحـةُ أنّهـا تبكي مِـنَ الجزَعِ الدّخيـلِ وتدمعُ

ونتبين أنموذجا آخر لأثر موت الفقيد على الشاعرة ؛ هـو أنمـوذج فقدان الشاعرة زوجَها ؛ تقول جليلة بنت مرّة [2] :

يـا قتيـلاً قـوّضـتْ صرعتـُهُ سقْفَ بيتـيَ جميعـاً مِـنْ عَـلِ

قوّضـتْ بيتـي الّذي استحدثتُـهُ وانثـنـتْ في هـدْمِ بيتـي الأوّلِ

ورمـانـي قتـلُـهُ مِـنْ كَـثَـبٍ رميـةَ المُصمى بـه المستأصَـلِ

وتقول أيضا :

خصتنـي قـتـلُ كُليـبٍ بلـظـى مِـن ورائـي ولظـى مُستقبِلـي

تعبّر بكلّ صدق عن أثر مقتله ؛ فبسببه رأى الدهر فرصته لـنقْض وهدْم سقْف بيتيها ؛ بيتِ أخيها القاتل ، وبيتِ زوجها المقتول ، ورماها رميةً

1- الأصمعي : الأصمعيات ، ص101 .

2- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص129 .

تُصيبها ، بل تقتلعها من جذورها ؛ أي من حالها الناعمة التي كانت عليها إلى حالٍ تلازمها بنارِ الثكل ، ولا مَحيصَ لها عنها من وراء ولا من أمام .

وأنموذج أخير نتمثّل به الصدق في الرثاء القبَلي ، وأثر مقتل الجماعة على الشاعرة ؛ تقول ذئب بنت نُشْبة [1] :

عمادُ سمائي أصبحتْ قدْ تهدّمتْ فخِرّي سمائي لا أرى لك بانيا

تصفهم بالعماد ؛ لأنهم يمثلون القوّة الّتي ترفع القبيلة ، وهي سماءٌ في نظرها تحيا الشاعرة تحت سقفها ،وفي كنَفها ، فإذا مات قومها تهاوتِ الأعمدة ، وإذا ضعفت القبيلة خرّتِ السماء ؛ فوقعت الخسارة والضَّعَة في مَن بقيَ من أفراد القبيلة ؛ وبهذا يتحقّق صدقها في رثائها إيّاهم ، إذ تُمسي بلا حمايةٍ تقيها هوانَ الأسْر ، وخدْشَ الحياء .

وموضعٌ آخرُ يُمكن أنْ نكتشف به صدق الرثاء ؛ هو الموضع الذي تَشْمَتُ فيه الشاعرة بقاتلي فقيدها ، أو مُسلموه في حَوْمة الوَغى للأعداء ، وعدْم نُصرته عندما يجِب ذلك عليهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء ترثي أباها ، وتذمّ قومه الّذين خذلوه في المعركة [2] :

وغابتْ بنو ميثاءَ عنه ولم يكنْ نعيمُ بن شيطانٍ هناك وجرولُ

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 .

2- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1، ص96 .

ولكنْ دعـــا أشبـــاهَ نبْـــتٍ كأنّهـــمْ قرودٌ على خيـــلٍ تَخُـــبُّ وتركُـــلُ

نرى كيف تشبّههم بالقرود على خيل ذات حِرانٍ متمرّدة ، لا سيطرةَ لهم عليها ؛ لعدم أهليّتهم للفروسيّة ونبلِها ، التي تقتضي منهم لو كانوا فرسانا بِجِدِّ نجْدةَ الملهوف ، وفكّ الأسار .

وتدعو تماضر بنت الشريد على قاتل ابنها [1] :

حُذيفـــةُ لا سُقيـــتَ مـــن الغوادي ولا روّتـــكْ هـــاطـــلـــةٌ نـــداهـــا

كمـــا أفجعتنـــي بفـــتـــىً كـــريـــمٍ إذا وزنـــت بنـــو عبْـــس وفاهـــا

تدعو عليه بعدم السُّقيا ؛ أي أن يموتَ عطَشاً ، وربطتْ دعاءها عليه بالسبب " كما أفجعتنـــي بفتى كريـــم " ، بفتاها الشّابّ الّـــذي إذا وزن كـــان مضنة الوفاء بالرجحان والتفوّق على سواه .

وممّا يدلّ على الصدق في الرثاء لـــدى الـــشاعرات ذلـــك التعبيـــر المتواتر في قصائدهن ومقطوعاتهن عن العين والدمع ، والبكاء والنحيـــب ، والحزن والجزع ، وما يُشبه هذا من الألفاظ ، وقد وقف عليه البحـــث فـــي معرِض حديثه عن الخصائص اللفظية .

1- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 .

الفصل الخامس

الصورة الشعرية

تحتــلّ الصّورة الشّعريّة في نسيج النّصّ الشّعــريّ المكان الإبداعي الدّالّ على قُدرات الشّاعر ومواهبه في رسْم الأشياء ، بما يُوتيه من استخدامٍ مُحكمٍ للدّوالّ في التّصوير والتّجسيد ؛ لأنّ الشّعــر " جِنْسٌ مِن التّصوير [1] " يُحاول جاهدا أنْ يَجعل الصُّورة المجرَّدة صورةً قريبةً من الواقع ، بوســاطةِ تشكيلٍ لُغويٍّ خاصٍّ يُكْثِر فيه من استخدام المجاز ، ويَنْفُث فيه الشّاعر شــيئا من خياله وروحه ؛ فنشاركه الوجــدان ، ونعايشه اللّحظة . والاتجــاهُ معــه إلى هذه الوجهة " يعني الاتجاهَ إلى رُوح الشعر [2] " فــيُحكم لــــه أو عليــه بقــدر تأثير تلك الــرُّوح علينا ؛ فإمّا أنْ يُقــدِّم صورةً مُفعمةً بالحياة وثّابــةً بالحركة ، فحينئذٍ يُحكم له ، أو أنْ تصل إلينا صُوَرُه على غير هذه الحــال ؛ فيُحكم له عندئذ بحُكْمٍ دون الأول .

وترتبط الصورة الشعرية في فنّ الرثاء عنــد شــاعرات الجاهليــة ارتباطا وثيقا بالموضوع ؛ لأنه في الأصل يرتبط بموقفٍ مأســاويٍّ ، تُعبــر فيه الروح عن فقْد روحٍ أخــرى بذاتيــــّة الإحــساس الإنــسانيّ ، ومــدى انعكــاس ذلك التأثُّــر على الروح الحيّــة التي ــ بلا شكٍّ ــ ستدرك يومــا أنْ يَنزل بها نفس القضاء النازل على غيرها ؛ فيذهب بهــا الخيــال مــذهبا

1- الجاحظ : الحيوان ، ج3 ، ص132 .

2- إحسان عباس : فن الشعر ، ط1 ، دار الــشروق ، عمــان ــ الأردن ، 1996م ، ص200 .

يَنسج لها من الصور المتبدّدة صورةً جامعةً للموت الرهيب ؛ " ومن الصواب القول بأنّ الصورة تتطابق مع الشعور تطابق هُوية ؛ لأنّ الخيال الناسج للصُّوَر إنما يمتح مادتَه الخامَّ من أعماق الذّات [1] " .

وعلى هذا فقد كانت الصورة الشعريّة لدى الشاعرات ترتكز على موضوع الحدَث ، وهو الموت ، والشعور تجاهَه برسم صورتِه ، وصورةِ الفقيد ، وصورةِ الشاعرة قبلَ الحدَث وبعدَه .

ولم يكنِ الموت يوما على ما أُوتي من رهبة جسما يُمكِن لإنسانٍ أن ينعته نعتا يصيب منه شكلا ، أو لونا ، أو رائحة ، وإنما كان شيئا مجرّدا ، يعتقد الإنسان بوجوده ، ويرى تأثيره فيما يخلّفه من قدرة تُحيل الحركة إلى سكون ، والحياة إلى بِلى ؛ لذلك نرى اختلاف الشاعرات في تصويره بأشكال وهميّةٍ أو حسيّة ؛ تقول حارثة بنت كلمن مصورة الموت نارا [2] :

سيّدُ القومِ أتاهُ الحَتْفُ (ناراً) تحتَ ظُلَّهْ

1- يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، ص195 .

2- المسعودي : مروج الذهب ، ج2 ، ص149 .

فالموت كما تراه مادّةً ملتهبةً ذاتَ حرارةٍ متوهّجةٍ وبألوانٍ مختلفة : فيها الأحمر والأصفر والأزرق ، وهي مادّةٌ حِسيّة لها قدرة على الحرْق ، لا تأتي على شيءٍ إلا أكلته .

وبمثل هذه الصورة تعبّر العَوراء بنت سُبَيْع [1] :

أَبكي لعبدِ اللّهِ إذْ حُشَّتْ قُبيلَ الصُّبْحِ (نارُهْ)

أي أنه قد مات قبيل الصبح ؛ فصوّرتْ موته بإشعال النار كنايةً عمّا يُوقده مصابها بأخيها من نار الثكْل في نفسها .

وتصوّر أمُّ السُّليك الموتَ رصَداً ؛ أي هو شيء يترقّب الإنسان على الطّريق ، فما إنْ يصل إليه حتى ينقضَ عليه ، وهذا الرَّصَد لا تُقدِّم له الشاعرة نعْتا يُقرِّبه إلى الفهْم ، الأمرُ الّذي يجعله في نظرنا مَخوفا أكثرَ ؛ لأنه يُباغت الإنسان من حيث يجهل له شيئا يحذر به منه ؛ تقول [2] :

والمنايا (رَصَدٌ) لِلْفَتى حيثُ سَلَكْ

والموت عند أُميمةَ بنتِ عبدِ شمْسٍ هو الدَّهر متجسّدا في صورة حيوانٍ مُفترسٍ له نابٌ ومِخْلَب ؛ تقول [3] :

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1105 .

2- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص579 .

3- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص525 .

أحـــالَ عـلـيـهـــمُ (دهْـــرٌ حـديـدُ الـنّـاب والـمِـخْـلَـبْ)

وتتكرّر نفْسُ الصورة عند جليلة بنت مُرّة [1] :

يـا قتيلاً قـوّضَ (الـدّهـرُ) بهِ سقْـفَ بَيْتَـيَّ جميعـاً مِـنْ عَـلِ

إلاّ أنّه عندَها دهرٌ يهدِم البيوت ، كنايةً عن انهدام الحيـاة الزوجيّـة بالموت ، باعتبـار " أنّ الزمـن قـوة تدميريّة لا يصمـد أمامَها شـيءٌ مهما يكن حصينا ومنيعا [2] " ، تقول صَفيّة الباهليّة [3] :

أَخْنَى على واحدي رَيْبُ الزّمانِ وما يُبْقي الزّمانُ على شيءٍ ولا يـذَرُ

وهو في نظَر ابنةِ فَرْوَةَ بنِ مسعودٍ شريكٌ أنانيّ يـستأثر بـالأرواح لِقِسْمَتِه ؛ تقول [4] :

بعـيـنِ أبـاغَ قاسَمنـا المنايـا فكـانَ قسيمُهـا خـيـرَ القَسيـمِ

وتُصوِّره أمُّ عمرِو بنت مُكَدَّمٍ أداةً حربيّـةً نافذةً تنطلق بقـوّة حتـى تصيب ، ولا دواءَ ولا رُقْيَة لعلاجه ؛ تقول [5] :

1- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص128 .

2- يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، ص360 .

3- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج2 ، ج3 ، ص75 .

4- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص562 .

5- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص307 .

لكــنْ سهــامُ المنايا مَنْ نُصِبْنَ لهُ لــمْ يَنْجِــهِ طِــبٌ ذي طِــبٌ ولا راق

وهو عند عَمْرة بنت دُرَيْدٍ قوّةٌ قاهرة ، لا تُقاوم ، ولا تُدفع ؛ تقول [1] :

لــولا الّــذي قهَــرَ الأقــوامَ كلَّهــمُ رأتْ سُليــمٌ وكعْــبٌ كيــف تأتمِــرُ

تتعدّد صُور الفقيد في هذه الدّراسة ؛ بتعدّد ذي قرابتهم من الــشّاعرة ؛ فالفقيد أبٌ أو ابنٌ أو أخٌ أو زوجٌ أو آخرُ نَهَدَتْ إليه أرْيحيّة شاعرة بالرّثاء لصنيعٍ له معها أو مع أهلها .

صورة الفقيد (الأب) :

تُحاول الشاعرة وهي ترسم صورة والدها أنْ تُلبسه صفاتٍ جليلةً من السيادة والإمارة على قومه ؛ تقول حارثة بنت كَلْمَن [2] :

(سـيّـدُ الـقــومِ) أتــاهُ الــحَــتْــفُ نــــاراً تــحْــــتَ ظُــلَّـــهْ

وتقول خالدة بنت هاشم [3] :

عيْــنُ واسْتعبــري وسَحّي وجَمّي لأبــيــكِ المُــسَــوَّدِ المعــلــومِ

وتقول دَخْتَنُوس بنت لَقِيط [4] :

1- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج2 ، ج3 ، ص75

2- المسعودي : مروج الذهب ، ج2 ، ص149 .

3- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

4- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص251 .

بَـكَـرَ الـنَّـعِـيُّ بِـخَـيـرِ خِـنْـدِفَ كـهـلِـهـا وشـبـابِـهـا

إلى أن تقول :

و(رئـيـسِـهـا) عـنـدَ الـمـلـوكِ وزَيـنِ يـومِ خِـطـابِـهـا

ولم تكن صورة الأب الرئيس تقتصر على كرسيِّ الحُكم ؛ لإصدار الأوامـر والنواهي ، بل نرى صورته تتمثّل أيضا في مَيدان المعركـــة ؛ إذ يتقـدّم صفوفَ قومِه فارسا محاميا عـن الأحساب ؛ تقول أُرْوى بنت الحُباب [1] :

أُوْدَى ابـنُ كلِّ مُخاطـرٍ بِتِـلادِهِ وبنفسِـهِ يُقيـا علـى الأَحْسـابِ

وتقول ابنة أبي الْجَدْعاء [2] :

لقدْ فَجَعَتْ شيبانُ قومـي بفـارسٍ مُحـامٍ على عوراتِهمْ ليـسَ يَنْكـلُ

وتقول ابنة قيس بن جابر [3] :

بأنَّ أبي قدْ كـانَ فـارسَ قومِـهِ بهِ تتَّقي حـدَّ الرِّمـاحِ الشَّواجِـرِ

وتصوّر الشاعرة أباها كذلك كريما ذا حَدَبٍ على الأيتام والأرامـل ، وهي صورة تلمسها الشاعرة في أبيها عن مُعايشة له في البيـت بمـا تلقـاه

1- البحتري : الحماسة ، ص275 .

2- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص96 .

3- المصدر السابق ، ج1 ، ص241 .

وأفرادَ أسرتها من حِرْصه على قُوتِهم وتوفير حاجاتهم ؛ تقول ابنة أبي الجدعاء [1] :

لِيبكِ أبا الجدعاءِ ضيْفٌ مُعَيِّلٌ وأرملةٌ تغشى النّدِيَّ فترْمُلُ

وتتّخِذ أروى بنت الحُباب هذه الصِّفة في الوالد سببا يُبكى عليه به ؛ تقول [2] :

قُلْ للأرامِلِ واليتامى قدْ ثوَى فلتبْكِ أعينُها لِفقْد حُبابِ

وتبدو صورة الأب عند بنت مُلاعب الأسنَّة غيثاً ينزل على المُجْدِبين الفقراءِ الجائعين من الجَدْب والقَحْط ؛ تقول [3] :

كانَ غياثَ المُرْمِلِ المُلتاحِ وعِصْمةً في الزّمَنِ الكَلاحِ

والصورة نفسها تتكرّر عند ابنةِ وَثيمةَ في رثاء أبيها ؛ تقول مُصوِّرةً الجَدْبَ [4]

واحْمَرَّ آفاقُ السَّماءِ ولَمْ تَقَعْ في الأرضِ دِيمَهْ

ثم تنتهي إلى قولها :

أَلْفَيْتَهُ مَأْوى الأرامِلِ والمُدَفَّعَةِ الْيَتيمَهْ

1- المصدر نفسه ، ج1 ، ص96 .

2- البحتري : الحماسة ، ص275 .

3- ابن الشجري : الحماسة الشجرية ، ج1 ، ص329 .

4- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص183 .

ونرى صورة الأب عند دختنوس كوكباً دُرِّيّاً بعدما أفاضتْ عليه من صـــفات الرئاسة والفروسيّة والخِطابة ، وطهارة النَّسَب ؛ تقول [1] :

كـــالـــكـــوكـــــبِ الـــــدُرِّيِّ فـــي سِـيـــمـــــاءَ لا يـــَخْـــفَـــى بِـــهـــا

وهي صورة تُشبِّه بها أباها بالكوكب الدرّي رفعةً وألَقاً ، وشُهرةً ، وهِدايةً .

صورة الفقيد (الابن) :

تنزع الشاعرة في رثاء ابنها إلى تصويره بـــ " الكمال " ، وهو مطلب نفسيّ لا يَبرَح نفوسَ الأمّهات ؛ إذ إنّهن يأمُلْن أنْ يَرِيْن أولادهن على أكمل صورة ، وأجمل منظر ؛ لذا نرى تعبير الشاعرة الجاهلية يُطابق هذا المَنـــزع لـــدى الأمّهات ؛ تقول أمّ عمرِو بن عديّ [2] :

وَيْحَ عمـــرِو بنِ عَدِيٍّ مِـــنْ رَجُـــلْ حانَ يوْمـــاً بعدَما قيلَ : (كَمَـــلْ)

وتقول تماضر بنت الشَّريد [3] :

على ولدٍ (وزَيِـــنِ النّاسِ طُـــرّاً) إذا مـــا النّـــارُ لـــمْ تَرَ مَنْ صَلاها

وتقول أمُّ بِسْطام [4] :

لِيبكِ ابنَ ذي الجدّينِ بكرُ بنُ وائـــلٍ فقـــدْ بانَ منها (زَيْنُهـــا وجمالُها)

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص44 .

2- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص251 .

3- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 .

4- ابن الأثير : الكامل ، ج1 ، ص616 .

علـــى أنّ صـــورة الكمـــال التي تنـــزع إليهـــا الأمُّ الشاعرةُ لهـــا نـــورٌ وسناءٌ ، يبـــدو نورُها عند أمِّ بِسْطام أيضا [1] :

إذا مـــا غـــدا فيهمْ غَدَوْا و كأنّهـــمْ نـــجـــومُ سمـــاءٍ بينَهـــنَّ هلالُهـــا

تُشبِّه ابنَها بالهلالِ الّذي يَرْتَقِبُهُ النّاس في مُستهلِّ كلِّ شـــهر ، كنايـــةً عن وقوفه في مُقَدَّمَة قومِه للإتمام به ، وهم نجوم في شهرتهم ببطـــولاتهم ، وسطَ سماء ، أي عزّة ورِفعة ، والوقت الّذي يظهر فيه الهلال والنجوم معًا هو الليل ؛ وهو معروف لدينا ضِمْناً ؛ لذلك لم تذكُرْ الشاعرة لفظَـــه بـــسبب ذكرِها ما يدلُّ عليه ، وكذلك يتبادر إلينا أنَّ معنى الليل عندئـــذٍ هـــو الـــشِّدَّة والبلاء .

وتبدو لنا صورة الكمال ذات السّناء عند عَمْرَة الخَثْعَميّة في أخويها [2] :

شهابانِ منّـــا أُوقِـــدا ثُـــمَّ أُخْمِـــدا وكان سَنـــاً للمُدلجيـــنَ سَناهمـــا

فَنَعُدُّ لها أربعةَ ألفاظٍ تتضمّن معنى السّناء : شهابان ، وأُوقدا ، وسنا ، وسناهما ، وقد وَرَدَت جميعـــا في بيْت واحـــد ، و الألفـــاظ تُنبـــئ عـــن نورانيّة الصـــورة المتوهّجـــة الّتي ما لَبِثَتْ أنْ خَمَدَتْ كما يدلُّنا علـــى ذلـــك لفظُها " ثم أُخْمِدا " ، ثـــم تنتقل إلى صـــورة أخرى لهما يكونان فيها علـــى

1- المصدر السابق ، ج1 ، ص616 .

2- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ص1082 .

هيئةِ أسطوانةٍ أو ساريةٍ ترفع سقف العرشين ، ولعلّهما أرادتْ بالعرشين سيادتَهما على قبيلتهما ؛ تقول :

ولنْ يلبثَ العرشانِ يُسْتَلُّ منهما خيارُ الأواسي أنْ يَميلَ غَماهُما

صورة الفقيد (الأخ) :

يكون الأخُ ــ غالباً ــ أكثرَ مُعايشةً لأخيه ؛ لتقارب الأعمار ، أو اتفاقهما إنْ كانوا توآم ، أو أبناءَ ضرائر ؛ مِنْ أجلِ هذا نجد الأخ إذا افتقَدَ أخاه يذكر أيامَ صِباه معه ، ومرحلةَ طفولته الّتي يكون فيها الصغيُر كالغصنِ نماءً ونضارة ؛ تقول صفيّة الباهليّة [1] :

كنّا كغصنينِ في جُرثومةٍ سمَوَا حيْناً بأحسنَ ما تسمُو لهُ الشَّجَرُ

حتّى إذا قِيلَ قدْ طالتْ فروعُهما وطابَ قِنواهُما واسْتُنْظِرَ الثَّمَرُ

أخنَى على واحدي ريْبُ الّزمانِ ولا يُبقي الّزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

تُمثّل الصورةُ الأخَ وأختَه معاً في مرحلة عُمْرية واحدة ، تُعبّر عنها الأخت بـ " غصنين " نابتين من أصلٍ واحد ؛ أي من أسرةٍ واحدة من الأب والأم ، ويستمرّ نموُّهما على أحسنِ حال ، وأرغدِ عيش ، حتّى إذا أصبحا في مرحلة الشباب ، وقد طالت قامتاهما ، ورُجِيَ منهما ما

1- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، مج2 ، ج3 ، ص75 .

يُرجى من الشباب عطاءً وبذلاً ، مـــالَ الزّمانُ بقوّةٍ مدمّرة علـــى أحدِهمـــــا فأهلكه ! .

ثم تطلُع علينا صورةٌ ثانيةٌ للأخِ فارساً محاميًا عن الحِمَى ، مـــدافعا عن الأعراض ، دفاعَ الأسد عن عَرينه ؛ تقول رائطة بنت شَيْظَم [1] :

لـــهْـــفـــي عـــلـــى الأخـــويـــنِ كـــ (الأسديـــنِ) مسعـــودٍ وحـــاتـــمْ

والصورةُ نفسُها لدى أخت ذي الكلب [2] :

فأقسمـــتُ يـــا عمـــروُ لـــوْ نبّهاك إذاً نبّهـــا منـــكَ أمـــراً عُـــضـــالا

إذاً نبّها (لَـــيْـــثَ) عِـــرِّيـــسَـــةٍ مُفيـــداً مُفيتـــاً نفـــوســـاً ومـــالا؛

ولأنّ الفارس أحوج ما يَحتاج إلى يديه اللّتين يبطش بهمـــا ، ويقـــود بهما زمام فرسه ، ويملك بهما خصمه ، تُصوِّر رائطة بنت شـــيظم أخويهـــا تارةً أخرى باليدين ، تقول [3] :

كـــانـــا (يـــديّ) فـــشـــلّـــتـــا بالسّـــاعـــديـــنِ وبالمـــعـــاصـــمْ

ولا يُمكن أنْ تفسّر (اليدان) هنا بيدي الكرم والعطاء ؛ بدليل قـــول الشاعرة عقب هذا :

1- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

2- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص583 .

3- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص448 .

لا أستطيعُ ، ولا أُطيقُ أردُّ عنِّي كَفَّ ظالمْ

فالظالم لا يُردّ إلاّ بقوّة اليد العادلة ؛ لأنّ يدَ الكرم لا تَرُدّ الظالم اللئيم .

ولكونِ الأخ مُحامياً عن الأعراض ، تُلصق به الأختُ صفاتٍ أُخر ، منها العِفّة والكرم لتبدوَ صورتُه أكثرَ جذْباً وجمالاً ؛ تقول العَوْراء بنت سُبَيْع [1] :

طَيّانَ طاوي الْكَشْحِ لا يُرْخَى لِمُظْلِمَةٍ إزارُهْ

يَعْصي البخيلَ إذا أرادَ المجْدَ مَخلوعاً عِذارُهْ

فقد استعارتِ الإزار ؛ للدّلالة على عِفّتِه ، وأرادت بـ " يَعصي البخيل " مخالفتَه في السَّجيّة ، وتتّسع هذه الصورةُ عند حَمْدَة بنت ضِرار ، لتجعلَ صورة أخيها صورةَ رجلٍ زِمّيتٍ مَهيبٍ لا يجرؤ أحدٌ على الكلامِ المَعيبِ في مجلسِه ؛ تقول [2] :

لا تقرَبُ الكَلِمُ العُورانُ مجلسَهُ ولا يذوقُ طعاماً وهو مستورُ

وناهيك بصورة " الكَلِمِ العُوران " من صورةٍ مُوحيَةٍ بالجمال ؛ إذ شخّصتْ الكلامَ المَعيبَ بالرّجل الأعور ،الشّنيع المنظر، الّذي لا يَهتدي سبيلاً ، وبينما يكون الأخ هكذا في موقف الكلام الرّصين نراه لا يتوعّر من

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1105 .

2- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص255 .

الأكل مع سواه ، تواضعًا وكرماً ، وكأنّ الشاعرة تريد بذلك أنْ تجعل أخاها كما قالت رَيْطة بنت عاصية [1] :

حُلْوٌ ومُرٌّ جميـــعُ الأمـــرِ مُجتمـــعٌ مَـــأوى أراملَ لمْ تُعقصْ عَقاريهـــا

فهو حلوٌ عند الفضائل ، مُرّ على النقائص ، بل هو كما تصوّره عَمْرة بنـــت شدّاد [2] :

جمّاعُ كلّ خِصالِ الخيرِ قـــدْ علِمـــوا زَيْـــنُ القريـــنِ وخَطْمُ الظالم العادي

وتظلّ صورة الأخ في عينِ الأختِ الشاعرةِ تستكمل أجملَ العناصـــر حتـــى تصلَ بها إلى البهاءِ الّذي يتمثّل في سُطوع الشمس ، وتَمام البدر ، ووجه الهلال ؛ تقول أخت عمرو ذي الكلب [3] :

فكنـــتَ النهـــارَ بـــه شـــمـــسَـــهُ وكنـــتَ دُجـــى اللّيـــلِ فيـــه هلالا

فقيمة صورتِه بالنّهار ، كقيمتِها باللّيل ؛ فهو الشمسُ نهاراً ، إشراقا وبهجـــة ؛ لليقظة ، وهو الهلال في الليل ، نورا للسامرين ، وهداية للمسافرين.

وصورة الأخ عندَها أيضا قبل أنْ ترفعه بها إلى صفحة السماء تمرّ بصورة قبْليّة مُمَهّدة للصّورة السّماويّة الكُلّيّة الجامعة ؛ تقول [4] :

1- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص864 .

2- ابن حبيب : أسماء المغتالين ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ج2 ، ص228 .

3- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص83 .

4- المبرد : الفاضل ، ص59 ــ 60 .

كـنـتَ المُجيـرَ علـيـه تقهـرُهُ فـإذا سـطـوتَ سـطـا القهْـرُ

وإذا سـكـتَّ فـإنـّهـا عِـدّة وإذا نـطـقْـتَ تـدفّـقَ الـبحْـرُ

وإذا نـظـرْتَ إلـى أخـي عـدَمٍ أثـرى وزالَ بلحـظِـكَ الـفـقْـرُ

وإذا رقـدتَ فـأنـتَ مُنـتـبِـهٌ وإذا بـدوْتَ فـوجـهُـكَ الـبـدْرُ

فهو القهر ، والبحر ، والغنى ؛ صُورٌ ستجعلها الشاعرة تلتقي بـ (البدر) في السماء الذي تختتم به أبياتَها دَلالـةً علـى شُـموليّة الـصورة العظمى لأخيها .

صورة الفقيد (الزوج) :

يُلاحظ للزوج صورتان إحداهما في إطار الأسرة ، والأخـرى فـي إطار مجتمع الفقيد وبيئته ؛ فأمّا الأولىترسمها جليلة بنت مـرّة فـي رثـاء زوجها كليب ؛ إذ تقول [1] :

يـا قتيـلاً قـوّضـتْ صرعتـُهُ سقْفَ بيتـيَّ جميعـاً مِـنْ عَـلِ

قوّضَـتْ بيتـي الّذي استحدثتُـهُ وانْثَـنَـتْ في هَـدْمِ بيتـي الأوّلِ

1- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص 129 .

تبدو صورةُ زوجها مُمَثَّلةً في البيت الذي استحدثَتْه ؛ فزوجُها نفسُه هو البيت بما يَحويه من سكَن ومودَّة ورحمة ، وهو أحد أهمِّ أسبابِ النَّسْل ، وبموتِه ينهدم البيت .

ويتجلّى الزّوج جَبَلاً كما تُصوِّره فاطمة بنت الأجْحَم ، تحتمي بحماه ، وتلوذ بظلِّه آمنةً ، مُعتصمةً برفعته من الضَّيْم حينا ، وحينا يكون لها في دفء مشاعره وحدَبه عليها جناحا ناعمَ الخوافي يَقيها البرد ، ويَدفع عنها العينَ والرّيح ، حبّا فيها ، وحِرْصا على سلامتها .

وأمّا الصّورة الأخرى للزوج في إطار المجتمع ؛ فتوسِّعها له الخِرْنق بنت بدر حيث يكون في ميدان المعركة الفارسَ القائد الخائض لغمار الحرب التي تنجلي بموت القائد وابنه وجماعةٍ من قومهما ، فتبدو صورتهم مأساويّة ؛ أوصالُهم فيها مُقطّعة ، وجماجمهم مفلوقة ، ممدّدين كجذوع نخلٍ محروقة ؛ تقول [1] :

وبعدَ بني ضُبيعةَ حولَ بِشْرٍ كما مالَ الجُذوعُ مِنَ الحريق

إلى أنْ قالت :

فكمْ بقُلابَ مِن أوصالِ خِرْقٍ أخي ثِقَةٍ وجُمجمةٍ فَليق

صورة الفقيد (القبيلة) :

1- الخرنق بنت بدر : ديوانها ، تحقيق : حسين نصار ، ص26 .

تتلــوّن صــورة رثــاء الشاعرة الجاهلية لقبيلتها بلونِ الفروســيّة ؛ مثالُ ذلك قول رَيْطَة ابنة عاصم [1] :

غَــدَوْا كسيوفِ الهندِ وُرادَ حومَــةٍ مِنَ الموتِ أعيا وِردَهنَّ المصادِرُ

فوارِسُ حامَوْا عنْ حَريمٍ وحافظوا بــدارِ المنايــا والقنــا مُتشاجِرُ

وتبدو بعضُ عناصرِ الصورة واضحةً في ألفاظها ؛ " سيوف الهند " ، " القنا " ، كما يبدو مكانُ الصورة جليّــاً مـــــن لفظهــا " حَوْمــة " ؛ أي موضـــع القتال ، وتقترن صورة الفروسية والشجاعــة بصفة الكــرم ممــا يجعلهم نجوماً مشهورين معروفين للضّيفان ؛ تقول ذئْب بنت نُشْبَة [2] :

قَتلتــمْ نُجوماً لا يُحولُ ضيفُهــمْ و لا يَذخُــرونَ اللَّحْــمَ أخضرَ ذاويا

قُرومًا يَكُبُّونَ المَخاضَ على الذُّرَى ويُوفــونَ بالشَّحْــمِ القُدورَ الغواليا

ثم تأتي الصورة المعبِّرة عن رِفعة القبيلة وعِزّتها بهم :

عمادُ سمائــي أصبحتْ قد تهدَّمتْ فخِــرِّي سمائــي لا أرى لك بانيا

فهم عمادُ سماء القبيلة ، تتحقّق بهم العزّة لها ، وبفقــدهم تنهــدّم ولا يرتفع لها بعدَهم شأنٌ أو ذِكْــر .

صورة الفقيد (في الرِّثاء الفرديّ) :

1- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1100 .

2- السكري : شرح أشعار الهذليين ، ج2 ، ص849 .

وهي صورة الفقيد من غير ذي قرابة الشاعرة أو من غير أفراد قبيلتها ، ممّن يكون له على الشاعرة يدُ الإحسان بإكرامها ، أو إطلاقه لأسار أحد ذويها ؛ فها هي امرأة من بني حَنيفة تُؤبّن بصفةِ الكرم يزيدَ بنَ عبدِ المَدان ؛ فتُجلّي صورتَه على أنّه صاحب الأمر العظيم ، وأنّه ممّن يُفتقد ، فيُبكى عليه ، لأنّه حبّاسُ مالٍ على كلّ حال ، جواد مُفيد ؛ تقول [1] :

ألا هلَكَ ابنُ قَرّانُ الحميدُ أخو الجُلّى أبو عمرٍو يزيدُ

ألا هلك امرؤٌ هلكتْ رجالٌ فلمْ تُفقدْ وكانَ لهُ الفُقودُ

ألا هلك امرؤٌ حبّاسُ مالٍ على العِلاّتِ مِتْلافٌ مُفيدُ

ألا هلكَ امرؤٌ ظلّتْ عليهِ بشطِّ عُنيزةٍ بقرٌ هُجودُ

سَمِعْنَ بموتهِ فَظَلَلْنَ نَوْحاً قياماً ما يُحَلُّ لهنَّ عُودُ

وتَجعل زينب بنت مالك صورة الفقيدِ نفسه أفضلَ ؛ إذ تصفه [2] :

سأبكي يزيدَ بنَ عبدِ المَدانِ على أنّهُ الأحْلمُ الأكبرُ

رماحٌ مِنَ العزمِ مَركوزةٌ ملوكٌ إذا بَرزَتْ تَحْكُمُ

1- المفضل الضبي : المفضليات ، ص273 .

2- الأصفهاني : الأغاني ، ج12 ، ص16 .

فهو في نظرها " الأحلم الأكبر" ، وهو ثابت العزم ، وهو ملوكٌ مجموعةٌ في شخْصِ ملكٍ واحدٍ ، يَبْرُزُ للحُكْم بين الناس والفصل بينهم .

صورة الرّاثية (البنت) :

نرى في هذه الصورة ذلك الكمّ الغزيرَ من الدموع الذي تسحّه شؤونُ الراثيةِ عندما يصلها خبَرُ موتِ والدها ؛ تقول خالدة بنت هاشم [1] :

عيْنُ جُودي بعَبْرةٍ وسُجومٍ واسْفَحِي الدَّمْعَ للجوادِ الكريمِ

عيْنُ واسْتَعْبِري وسَحّي وجَمّي لأبيكِ المُسَوّدِ المعْلُومِ

وتقول أيضا [2] :

بكَتْ عيْني وحَقّ لها بُكاها وعاودَها إذا تُمسي قَذاها

ونجد بمحاذاةِ هذه الصورةِ صورةً ثانيةً تُبيِّن أثَرَ فقْدِ الأبِ على الأبناء ؛ تقول عمرة بنت دريد [3] :

فكانَ جزاؤنا منهمْ عُقوقاً وهَمّاً ماعَ منهُ مُسخٌ ساقي

1- ابن طيفور : بلاغات النساء ، ص233 .

2- المصدر السابق ، ص233 .

3- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مج2 ، ج4 ، ص75

فالعقوق والهَمُّ الثقيلُ هما أوّل ما يُعاني منه كثيرٌ من الأبناء بعدَ افتقادهم آباءَهم ؛ لأنَّ الآباء الآخرين يَنصرفون إلى إلاءِ عيالهم نظرتَهم الأولى ، وكثيرٌ منهم مَن يغفل عن النظرة الأخرى للأيتام .

وترسم ابنة قيس بن جابر لنفسها صورةً أخرى ؛ تقول [1] :

تطاول ليلي للهموم الحواضرِ وشيّبَ رأسي يومُ قيسِ بنِ جابرِ

تتكوّن صورتُها مِن ليلٍ ما يزال يتطاول ويتّسع في الطّول ، وهمومٍ حواضرَ لا تُفارقها وبين هذا وذاك تَطِلّ برأسٍ أشيبَ ، ولعلّ بياضَ الرأس مع طُول الظلام يكون أظهَرَ لبيان الشّيْب ، فَجَمَعتْ هذه العناصرَ معاً في صورة واحدة .

صورة الرّاثية (الأمّ) :

نقرأ في صورة الراثية الأمّ تردّدها في استقراء واقع موتِ ابنها ؛ ففي الوقت الذي تنتظر فيه رجوعه إلى الحياة كرجوع المسافر من سفره ، نراها تشكّك في هذا الأمل ، ولا تقطع فيه ؛ لأنها تفتقر إلى الحزْم في

1- الشمشاطي : الأنوار ومحاسن الأشعار ، ج1 ، ص241 .

اتخاذ موقفٍ واضـــحٍ تجاهَ الاعتراف بمـــوت ابنها ؛ لشدةِ حبِّها له ؛ تقـــول أمّ عمرو بن عديّ [1] :

قـــدْ تَـــنَـــظّـــرْنـــا لِغـــادٍ أوْبـــَةً كانَ لوء أغنى عـــنِ المـــرءِ الأمَـــلْ

وتصوّر تَماضُرُ بنتُ الشَّريد تأثيرَ موتِ ابنِها عليهـــا بـــصورةِ الأمِّ الباكيةِ أبداً عليه ؛ تقول [2] :

فدمعـــي بـــعـــدَهُ أبـــداً هَـــطـــولٌ وعيـــنـــي دائـــمٌ أبـــداً بُـــكـــاهـــا

ولا يَخفى ما في " أبدا " و " دائم " و " أبدا " من علاقـــة الـــصورة بالزّمن ؛ إذ تُقدّم لنا صورةً حزينةً باكيةً لا يَبليها مرورُ الزّمن ؛ ممّا يُؤكِّـــد شجَنَ الأمِّ الّذي لا يسليها عن ذكرى ابنها شيء .

وترسم عَمْرَة الخَثعميّة حالَها بعد موت ابنيها عجوزاً ضعيفةً حُرِمتْ جميعَ أهلها بموت ولديها ، فلم ترَ لها معنىً في الإقامة ؛ فـــآثرتِ الظَّعْـــن ؛ تقول [3] :

بُنيـــاّ عجـــوزٍ حـــرَمَ الدّهرُ أهلَها فمـــا إنْ لهـــا إلّا الإلهُ سواهمـــا

1- الأصفهاني : الأغاني ، ج24 ، ص44 .

2- شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص139 .

3- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1082 .

وتختم أمّ السُّليك في رثاء ابنها بصورةٍ تلجُّ فيها بتمنِّي الصّبر ، والموت مكانَ ابنها ، بعدما تُوهِم نفسَها بالتَّعزّي عن قريبٍ ؛ تقول [1] :

سأُعزّي النفْسَ إذْ لمْ تُجْبْ مَنْ سَألَكْ

ليْتَ قلبي ساعةً صبرَهُ عنْكَ مَلَكْ

ليْتَ نفسي قُدِّمَتْ لِلمنايا بَدَلَكْ

صورة الرّاثية (الأخت) :

تُصوِّر الراثيةُ الأختُ نفسَها بعد موت أخيها بصورةِ اليدين المشابهتين لجناحي طائرٍ مُقصّصِ الرِّيش ، كنايةً عن الضَّعْف ؛ لأنَّ جناح الطائر يُمثِّل قوتَه ، فإذا ما أُصيبَ فيه فَقَدَ قوةَ حركتِه ؛ تقول رائطة بنت شَيْظَم بعد فقد أخويها [2] :

كانا يديَّ فَشَلَّتا بالسّاعدينِ وبالمعاصِمْ

فبقيتُ كالطيرِ المُقَصَّصِ ريشُهُ واهي القوادِمْ

لا أستطيعُ ، ولا أطيقُ أردُّ عنِّي كفَّ ظالمْ

وتختم بصراحةٍ واضحةٍ عن أثرِ موتِهما عليها :

1- التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ج1 ، ص581 .

2- ابن منقذ : المنازل والديار ، ص449 .

فـالـيـومَ أخـضـعُ لـلـذَّلـيـلِ وللمحـاربِ والمسـالـمْ

تخضع خضوعَ الطيرِ المَهيضِ الجناح .

وتَعرِض أمُّ عمرِو بن مُكَدَّم إلى تصوير فجيعتهـا بأخيهـا عرْضًـا واضحَ الدّلالة ، صادقَ الإحساس ؛ بتصوير نفسها باكيةً مُستمرةً على الحزْن الّذي تتوقّعُه أنْ يُرجع أخاها حيّاً لو صحّ هذا التوقّعُ لِكَثْرة بكائِها عليه ، لكنّه لا يُجدي شيئا ؛ تقول [1] :

أبكـي على هالِـكٍ أودَى وأورثني بعـدَ التفـرّق حُزْنـاً بعـدَهُ باق

لو كان يُرجعُ ميْتاً وجْدُ ذي رَحِـمٍ أبقى أخي سالماً وجْدي وإشفاقـي

ثم تبدو صورتُها مستسلمةً ليـدِ القضاء الّذي أخـذَ أخاها منها :

فاذهـبْ فلا يَبْعَدَنْـكَ اللهُ مِن رجلٍ لاقـى الّـذي كـلُّ حـيٍّ مثلُهُ لاق

وتُعاهده :

فسـوفَ أبكيـكَ ما ناحتْ مُطوقةٌ وما سَريتُ معَ السَّـاري على ساق

أبكـي لِذَكْرَتِـهِ عَبْـرى مُفَجَّعـةً ما إنْ يجفّ لها مِـن ذِكْـرِهِ آقـي

1- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص307 .

يقول حسين جمعة معلّقاً على هذه الصورة [1] : " فلمّا أيقنتْ أن لا شيء يردّه أو يفديه عاهدته على بكائه ما ناحت حمامة على ابنها " ، متّخذةً من الحمامة رمزاً للبكاء .

صورة الرّاثية (الزّوجة) :

تُصوّر جليلة بنت مرّة حالَها وقد قَتَلَ أخوها زوجَها فأُصيبتْ بالخطْب مِن كِلا الطَّرفين ، بانهدامِ بيتيها معاً ؛ بيتِ زوجها ، وبيتِ أخيها ؛ فلم يعد لها حِمى تحتمي به ، فكأنها قد رُميتْ برمية نافذة استأصلت حياتها ؛ تقول [2] :

يا قتيلاً قوّضتْ صرعتُهُ سقْفَ بيتيّ جميعاً مِنْ عَلِ

قوّضتْ بيتي الّذي استحدثتُهُ وانْثَنَتْ في هدْمِ بيتي الأوّلِ

ورماني قتلُهُ مِنْ كَثَبٍ رَمْيَةَ المُصْمِي بهِ المُستأصلِ

وتتّسع هذه الصورة لتشملَ عنصراً آخرَ يُعبّر عن حرارة كبدها ، وهو عنصر النار ؛ تقول :

خصّني قتْلُ كُليبٍ بلظَى مِنْ ورائي ولظَى مُستقبلي

1- حسين جمعة : قصيدة الرثاء ، جذور وأطوار ، ط1 ، دار النمير ، دمشق – سورية ، 1998 ، ص93 .

2- أبو تمام : الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ص128 .

فهي بين نارين ؛ نارِ الحزن على زوجها ، ونارِ عدْمِ قُدرتها على الثأر له ؛ لأنّ قاتله أخوها الّذي يكون القصاص منه أنكى لجرحها ، وأكبر لخسارتها ؛ من أجلِ هذا تلجأ إلى الله أنْ يُريحها :

إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعلَ اللّهَ أنْ يَرتاحَ لي

أمّا فاطمة بنت الأجْحَم فتصوِّر نفسَها بعد زوجها بالّتي انكشفتْ عن الظّلّ ، وبرزَتْ للشّمس في مكانٍ أملسَ تَزلُّ فيه القَدَم ولا تثْبُت ؛ تقول [1] :

قدْ كنْتَ لي جبَلاً ألوذُ بظلِّهِ فتركتني أضحَى بأجْرَدَ ضاحي

قدْ كنتَ ذاتَ حَميَّةٍ ما عِشْتَ لي أمشي البَرازَ وكنتَ أنتَ جَناحي

ويبلغ تأثيرُ موته عليها إلى أن تَخضع للذّليل ، وتتّقي شرَّه ، وتدفع ظالمها بالمُجاملة :

فاليومَ أخضعُ للذّليلِ وأتّقي منهُ وأدفعُ ظالمي بالرّاحِ

ويدفعها الشّجَنُ إلى مُشاركة الحمامة نَوْحَها :

وإذا دَعَتْ قُمْرِيّةٌ شجَناً لها يوماً على فَنَنٍ دعوتُ صباحِ

وتصل إلى ذروة الضّعف عندما تقول :

وأغُضُّ مِنْ بصري وأعلمُ أنّهُ قدْ بانَ حدُّ فوارسي ورماحي

مُسبِّبَةً غضّ بصرها بفراق الحدّ الذي تُجالد به ، وهو زوجها .

1- القالي : الأمالي ، ج2 ، ص1ـ2 .

وتتمثّل صورة زينب اليَشْكُريّة في فقْدها زوجها في صـــورةِ قطيـــعٍ حيلَ عن إلفه الّذي هو مِن جِنسه ؛ فأمسى ضالاً لا يَهتـدي فـــي صـــحراءَ واسعةٍ ؛ تقول [1] :

أراني كَسِـــرْبٍ حيلَ عنـــهُ أليفُـــهُ قواقِزُهُ في مَهْمَـــهِ الخَبْـتِ ضلّـــتِ

وكأنّ المرض أمسى لباساً تلبسه سُهيّة زوج شدّاد العبْسي ؛ لفقْـــدِها زوجَها ؛ فتبدو شاحبةَ اللّونِ ، مُتغيرةَ الحال ، مُحترقةَ القلب ؛ تقول [2] :

لقدْ صِـــرتُ مِـــن بعـــدِه في ضَنىً وقلبي لأجـــلِ الفِـــراقِ احتَـــرقْ

صورة الرّاثية (لأبناء القبيلة أو لآخرين) :

وتبدو صورة الشاعرة في رثائها أبناء قبيلتهـــا أو غيـــرهم صـــورةً بُكائيةً تُعبّر عن رُزئها بِهِم ؛ تقول سارة القُرَيْظيّة [3] :

رُزِئْـــنـــا والرّزيـــةَ ذاتُ ثِـــقْـــلٍ يَـــمُـــرّ لأهلهـــا المـــاءُ القَـــراحُ

وتُشبِّـــه المصيبةَ بالماء المُرّ ؛ وهو تشبيه يعبّر عن المعانـــاة الّتـــي تعترض الشاعرة ومن معهـــا بدليل قولهـــا : " رُزئنا " ، ويتكـــرّر هـــــذا اللّفظ عند رَيْطة بنت عاصم ، التي تُقابل المصيبةَ بالصّبر ؛ تقول [4] :

1- بشير يموت : شاعرات العرب ، ص61 .

2- الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، ص159 .

3- الأصفهاني : الأغاني ، ج22 ، ص80 .

4- المرزوقي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، مج2 ، ج3 ، ص1102 .

ولو أنَّ سَلمى نالَها مِثْـلُ رُزئِنـا لَهُدَّت[1] ولكـنْ تَحمِلُ الرُزءَ عامِرُ

غيـرَ أنَ الفرق بيـن الرُزئين اليهـوديّ والعربـي يكمـن فـي الاحتمال ؛ فالأول اليهودي " ذات ثِقْل " يُقابله في الآخرِ العربـي " تحمِـل الرُزْءَ عامرُ " .

وتبدو صورة أُميمة بنت عبد شمس ، وهي تبكـي قومَهـا سـاهرةَ الطرف ، مُسامرة للنجوم ، في ليلٍ طويلٍ لا يأتي صُبْحُه ؛ تقول [2] :

أبَـى لـيـلُـكِ لا يـذهـبْ ونِـسـيـطَ الـطـرَّفُ بالـكـوكـبْ

و نـجـمٍ دونَـهُ الأهـوا لُ بـيـنَ الـدَلْـوِ و العـقـربْ

وهـذا الـصُـبـحُ لا يـأتـي ولا يـدنُـو ولا يـقـرُبْ

2- لهُدَّت : الهَدُّ : الهدم الشديد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هدد) .

3- أبو عبيدة : أيام العرب ، ج2 ، ص525 .

الـــخـــاتـــمـــة

بعد عرض هذه الدراسة وتحليلها توصل البحث إلى نتائج تتمثل فيما يلي :

أولا : لاحظ أن المعنى اللغوي للرثاء هو البكاء والرقة ، والإشـــفاق ومـــدح المتوفى ، وهو بالمعنى الاصطلاحي بكاء يصف حدث الموت ، وما يزامنـــه من ارتدادات نفسية . وقد جاورت لفظة الرثاء كلمات يغلب استخدامها عنـــد الموت مثل : البكاء النواح ، العويل النعي ، الندب التأبين والعزاء .

ثانيا : لاحظ أن اتجاهات الرثاء عند الشاعرات الجاهليات قد انحصرت فـــي : رثاء الآباء والأعمام ، والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والقبيلة وبعـــض الأفراد الذين ليسوا من أقارب الشاعرة . ولم تقع الدراسة على شعر شاعرة في رثاء امرأة ؛ أم أو أخت ، أو غيرهما ، أو لرثاء شيء آخر .

ثالثا : لاحظ أثناء جمع المادة الرثائية أن جلّ أشعار الشاعرات الجاهليات قد قيل في غرض الرثاء ، وأن جانبا منه قد ارتبط بأيـــام العـــرب ، وعرّفنـــا ببعض الوقائع الحربية وما دار فيها .

رابعا : لاحظ غلبة عدد المقطّعات على عدد القصائد ، والتزامها بوَحدة الموضوع ، وخلوّها من المقدّمات بكلّ أشكالها .

خامسا : لاحظ تأثير البيئة العربية على بِنية المراثي ، وتمثّل في وضوح معظم ألفاظها ومعانيها ، وعدم الإغراق في الخيال ، واستيحاء الصور والمعاني الحسيّة والمجرّدة من واقع البيئة ، ومعايشة الطبيعة .

سادسا : لاحظ أن الشاعرات قد أكثرن في رثائهن من ألفاظ مثل : العين والدمع ، والخوف والجزع ، والرأس والشيب ، واللهفة والحسرة ،وشق الجيوب ، والحوادث والمنون ؛ وهذه الألفاظ تعبّر عن الطبيعة الأنثوية ، ذات الحساسية الصادقة إزاء الموت .

سابعا : لاحظ قدرة أكثر الشاعرات على التنويع في أساليبهن اللغوية ؛ النداء والاستفهام ، والنهي والطلب ، والتمني والدعاء . وقد ظهر التكرار اللفظي في بعض القصائد والمقطعات .

ثامنا : لاحظ أن القيم الأخلاقية التي تركّز عليها الراثية عند تعداد مناقب الفقيد تتمثل في : الإحسان للأيتام والأرامل ، والشجاعة والكرم ، والحلم والعفة والمروءة ، كما لاحظ الصفات الحسية التي ترثي بها الفقيد مثل : السيادة والقيادة ، والوسامة .

تاسعا : لاحظ أن صدق العاطفة في رثائهن هو أحـــد أهـمّ الخـصائص الشعرية التي تميّز رثاءهن ، وقد انعكس من خلال انفعال المرأة وبكائها عند سماعها خبر موت فقيدها ، ودعائها له ، أو لها ، أو علـى قاتـل فقيـدها ، والشماتة بأعدائه ، وعدم قبولها الدِّية عن ابنها الفقيد .

عاشرا : لاحظ أن صورتها الشعرية للفقيد قد جسَّدتْ فيها مأساتها المتمثلـة بفقد الوالد السيد ، والابن البر ، الكامل في نظرها ، والأخ العضد ، والزوج الجبل والبيت والسقف ، وابن القبيلة المحامـي ، وآخـر ليـس من القبيلـة الكريم الحليم . كما صورت حالها بعد وفاة فقيدها ، ابنة مَجفوَّة ، وأما باكية ، وأختا مكسورة الجناح ، وزوجة بلا بيت ، وابنة قبيلة بلا عماد لـسمائها . وصورت الموت نارا ذات حرق ، ورصدا بلا شكل ، وحيوانـا ذا مخلـب وناب ، ودهرا قاهرا ، وقوة مدمرة .

قائمة المصادر والمراجع

أ . المصادر المطبوعة :

ـ القـــرآن الكريـــــم .

ـ الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى ، (ت370هـ أو 371هـ) . المؤتلف والمختلف ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، د.ت .

ـ ابن الأثيـــر ، عز الديـــن ، أبو الحســـن ، علـــي بن أبـــي الكرم ، محمد بـــن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، الشيباني (ت630هـ) . الكامل في التاريخ ، د.ط . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1402هـ ـ 1982م .

ـ ـــــــ. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ط1 ، (تحقيق الشيخ كامل محمد محمد عويضة) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1419هـ ـ 1998م .

ـ الأصفهاني ، أبو الفـــرج ، علـــي بـــن الحسيـــن ، (ت356هـ) . الأغانـــي ، ط1 ، (تحقيـــق إحســـان عبـــاس ، و إبراهيم السعافين ،

والأستاذ بكر عباس) . دار صادر ، بيروت ــ لبنان ، 1423هـ ــ 2002م .

ــ الأصمعي ، أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، (ت216هـ) . الأصمعيات ، ط7 ،(تحقيق وشرح أحمد محمد شاكروعبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، مصر ، 1993م .

ــ امرؤ القيس . ديوانه ، ط7 ، (شرح حسن السندوبي) . المكتبة الثقافية ،بيروت – لبنان ، 1402هـ ــ 1982م .

ــ ــــــــــ . ديوانه ، د.ط ، (شرح محمد الاسكندراني ، و نهاد رزق) . دار الكتاب العربي , بيروت ــ لبنان ، 1425هـ ــ 2004م .

ــ الأندلسي ، ابن سعيد ، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، (ت685هـ) . نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ط1 ، (تحقيق نصرت عبد الرحمن) . مكتبة الأقصى ، عمان ــ الأردن ، 1402هـ ــ 1982م .

ــ البحتري ، أبو عبادة ، الوليد بن عبيد ، (ت284هـ) . الحماسة ، ط2 ، (اعتنى به الأب لويس شيخو اليسوعي) . دار الكتاب العرب ، بيروت ــ لبنان ، 1967م .

ـ البخاري ، أبو عبدالله ، محمد بن إسماعيل ، (ت256هـ) . صحيح البخاري ، د.ط . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ البصري ، صدر الدين ، علي بن أبي الفرج بن حسن ، (ت656 هـ) . الحماسة البصرية ، ط ، (تحقيق و شرح عادل سليمان جمال) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، 1420هـ ـ 1999م .

ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، (ت1093هـ) . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ط3 ، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، 1409هـ ـ 1989م .

ـ البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي ، (ت487هـ) . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط3 ، (تحقيق مصطفى السقا) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، 1417هـ ـ 1996 .

ـ ـــــ. سمط اللآلئ ، ط1 ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1417هـ ـ 1997م .

ـ ـــــ. فصل المقال ، د.ط ، (تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين),

الخرطوم ـ السودان ، 1958م .

ـ التبريزي ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، (ت502هـ) . شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، ط1 ، (كتب حواشيه غريد الشيخ ، وضع فهارسه العامة أحمد شمس الدين) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1421هـ ـ 2000م .

ـ أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، (ت231هـ أو 232هـ) . الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، ط3 ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) ، زاد في حواشيه محمود محمد شاكر . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ الثعالبي ، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت429هـ) . فقه اللغة وسر العربية ، د.ط . مؤسسة مطبوعاتي ، قم ـ إيران ، د.ت .

ـ الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، (ت255هـ) . البيان والتبيين ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . د.ط ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــ . الحيوان ، د.ط ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ الجمحي ، ابن سلام ، محمد ، (ت231هـ) . طبقات فحول الشعراء ، د.ط ، (قرأه و شرحه محمود محمد شاكر) . دار المدني ، جدة ـ السعودية ، د.ت .

ـ حاتم الطائي ديوانه ، ط2 . دار ومكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، 1406هـ ـ 1986م .

ـ ابن حبيب ، أبو جعفر ، محمد بن حبيب البغدادي ، (ت245هـ) . أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام ، ضمن (نوادر المخطوطات) ، ط1 ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، 1411هـ ـ 1991م .

ـ ـــــــ. أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام ، ط1 ، (تحقيق سيد كسروي حسن) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1422هـ ـ 2001م .

ـ ابن حبيب . المحبر , د.ط ، (اعتنت بتصحيحه ة إيلزه ليختن شتيتر) . جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، 1361هـ ـ 1942م .

ـ ابن حزم ، أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، (ت456هـ).جمهرة أنساب العرب ، ط6 ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، د.ت

ـ الحصـــري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي القيرواني ، (ت 453هـ) . زهر الآداب وثمر الألباب ، ط1 ، (تحقيق و شرح علي محمد البجاوي) . دار إحياء الكتب العربية ، 1372هـ ـ 1953م .

ـ الحطيئة ، جرول بن أوس . ديوانه ، ط1 ، (رواية و شرح ابن السكيت) . دار الفكر العربي ، بيروت ـ لبنان ، 1421هـ ـ 2001م .

ـ الحموي ياقوت ، شهـــاب الديـــن ، أبو عبدالله ، ياقوت بن عبد الله ، (ت626هـ) . معجم البلدان ، د.ط . دار إحياء التراث ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ الخرنق بنت بدر بن هفان . ديوانها ، ط2 ، (تحقيق حسين نصار) . دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ـ مصر ، 1996م .

ـ ـــــ. ديوانها ، ط1 ، (تحقيق و شرح يسري عبد الغني عبدالله) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1410هـ ـ 1990م .

ـ الخليل الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن ، الخليل بـــن أحمد ، (ت175هـ) . كتاب العين ، ط1، (تحقيق مهدي المخزومي ، و إبراهيم السامرائي) . انتشارات أسوة ، قم ـ إيران ، 1414هـ .

ـ الخنساء ، تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد ،(ت24هـ) . ديوانها ، ط1 ، (تحقيق و شرح كرم البستاني) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1377هـ ـ 1985م .

ـ ابن دريد ، أبو بكر ، محمد بن الحسن ، (ت321هـ) . الاشتقاق ، ط2 ، (تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون) . مكتبة المثنى ، بغداد ـ العراق ، 1399ه ـ 1999م .

ـ الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم ، الحسين بن محمد بن المفضل ، (ت502هـ) . محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء ، (تحقيق رياض عبد الحميد مراد) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1425هـ ـ 2004م .

ـ ابـن رشيـق ، أبو علي ، الحسن بن رشيق ، القيرواني ، الأزدي ، (ت456هـ) . العمدة ، ط5 ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، 1401هـ ـ 1981م .

ـ الزَّبيدي ، محب الدين ، أبو الفيض ، السيد محمد مرتضى الحسيني ، الواسطي (ت) . تاج العروس ، ط1 . المطبعة الخيرية ، مصر ، 1306هـ .

ـ الزجاجي ، أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحاق ، (ت340هـ) . الأمالي ، ط2 ،(تحقيق عبد السلام محمد هارون) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، 1407هـ ـ 1987م .

ـ الزمخشري ، أبو القاسم ، جار الله ، محمود بن عمر ، (ت538هـ) . الكشاف ، د.ط . دار الفكر ، دمشق ـ سورية ـ د.ت .

ـ الزوزني ، أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد ، (ت486هـ) . شرح المعلقات السبع ، د.ط ، (تحقيق لجنة التحقيق في الدار العالمية) . الدار العالمية ، بيروت ـ لبنان ، 1413هـ ـ 1993م .

ـ السرّاج ، القارئ ، أبو محمد ، جعفر بن أحمد بن الحسين ، (ت500هـ) . مصارع العشاق ، د.ط . دار بيروت ، بيروت ـ لبنان ، 1400هـ ـ 1980م .

ـ السكري ، أبو سعيد ، الحسن بن الحسين ، (ت275هـ) . شرح أشعار الهذليين ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، راجعه محمود محمد شاكر . دار العروبة ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ السيوطي ، جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت911هـ) . شرح شواهد المغني ، د.ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــــ. المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، د.ط ، (تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم) ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ، (ت542هـ) . الحماسة الشجرية ، د.ط ، (تحقيق عبد المعين الملوحي). دار منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ـ سورية ، 1970م .

ـ الشمشاطي ، أبو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي ، (القرن الرابع الهجري) . الأنوار ومحاسن الأشعار ، د.ط ، (تحقيق السيد محمد يوسف) ، راجعه وزاد في حواشيه عبد الستار أحمد فراج . التراث العربي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، 1977م .

ـ أبو طالب ، المفضل بن سلمة بن عاصم (ت291هـ) . الفاخر ، ط1 ، (تحقيق عبد العليم الطحاوي) ، مراجعة محمد علي النجار . دار إحياء الكتب العربية ، الجمهورية العربية المتحدة ، 1380هـ ـ 1960م .

– طاليس , أرسطو . فن الشعر , د.ط , (ترجمه و شرحه وحققه عبد الرحمن بدوي) . دار الثقافة , بيروت – لبنان , د.ت .

ـ طرفة بن العبد البكري . ديوانه ، ط1 ، (شرح و تحقيق محمد حمود) . دار الفكر اللبناني ، بيروت ـ لبنان ، 1995م .

ـ ابن طيفور ، أبو الفضل ، أحمد بن أبي طاهر ، (ت280هـ) . بلاغات النساء ، ط1 ، (تحقيق يوسف البقاعي) . دار الأضواء ، بيروت ـ لبنان ، 1999م .

ـ ابن عبد ربه ، أبو عمر ، أحمد بن محمد الأندلسي ، (ت327هـ) . العقد الفريد ، د.ط ، (شرح و تحقيق وضبط أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري) . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، 1403هـ ـ 1983م .

ـ أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، (ت209هـ) . أيام العرب قبل الإسلام ، ط1، (جمع و تحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي) . مكتبة النهضة العربية ، 1407هـ ـ 1987م .

ـ ـــــ. الديباج ، ط1 ، (تحقيق عبدالله سليمان الجربوع ، و عبد الرحمن بن سليمان العثيمين) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، 1411هـ ـ 1991م .

ـ العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، (ت 395هـ) . كتاب الصناعتين ، د.ط ، (تحقيق علي محمد البجاوي ، و محمد أبو الفضل إبراهيم) . المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، 1406هـ ـ 1986م .

ـ ـــــــ.جمهرة الأمثال ، ط2 ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيـــم ، وعبد المجيد قطامش) . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .

ـ ـــــــ. ديوان المعاني ، عن نسخة الإمامين الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، مع مقابلة المشكل بنسخة المتحف البريطاني ،د.ط . عالم الكتب ، د.ت .

ـ العسكري ، أبو أحمد ، الحسن بن عبدالله ، (ت382هـ) . المصون في الأدب ، ط2 ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، 1402هـ ـ 1982م .

ـ عنترة بن شداد . ديوانه ، ط1 ، (شرح علي العسيلي) . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان ، 1419هـ ـ 1998م .

ـ ابن فارس ، أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت395هـ) . مقاييس اللغة ، ط2، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) . مكتبة مصطفى البابي ، 1389هـ ـ 1969م .

ـ الفرزدق ، همام بن غالب ، (ت114هـ) . ديوانه ، د.ط . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1404هـ ـ 1984م .

ـ الفيروز آبادي ، مجد الدين ، محمد بن يعقوب ، (ت817هـ) . القاموس المحيط ، ط4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ، 1415هـ ـ 1994م .

ـ القالي أبو علي ، إسماعيل بن القاسم ، البغدادي ، (ت356هـ) . الأمالي ، ط3 . دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ مصر ، 2000م ،

ـ ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد اللـه بن مسلم ، (ت276هـ) . الشعر والشعراء ، د.ط ، (تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر) . دار الحديث ، القاهرة ـ مصر ، 1423هـ ـ 2003م .

ـ ـــــ. عيون الأخبار ، ط1 ، (شرحه وعلق عليه مفيد محمد قميحة) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1406هـ ـ 1986م .

ـ القرشي ، أبو زيد ، محمد بن أبي الخطاب ، (ت170هـ) . جمهرة أشعار العرب ، ط1 . دار المسيرة ، بيروت ـ لبنان ، 1403هـ ـ 1983م .

ـ القرطاجني، أبو الحسن، حازم ، (ت 684 هـ) . منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، د. ط ، (تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة) . دار الكتب الشرقية ، د. ت .

ـ ابـن قيـم الجوزيـة ، شمـس الدين ، أبو عبدالله ، محمد بن بكر الزرعي ، الدمشقي ، (ت751هـ) . أخبار النساء ، د.ط ، (شرح و تحقيق نزار رضا) . مكتبة الحياة ، بيروت ـ لبنان ، 1408هـ ـ 1988م .

ـ ابن الكلبي ، أبو المنذر ، هشام بن محمد بن السائب ، (ت204هـ أو 206هـ) . أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها ، د.ط ، (تحقيق حسين نصار) . مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ـ مصر ، 1424هـ ـ 2003م .

ـ المبـرد ، أبو العباس ، محمد بن يزيد ، (ت286هـ) . التعازي والمراثي، ط2 ، (تحقيق محمد الديباجي) . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1412هـ ـ 1992م .

ـ ـــــ. الفاضل ، د.ط ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) . دار الحرم للتراث ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ المرتضى ، علي بن الحسين ، الموسوي ، العلوي ، (ت436هـ) . أمالي المرتضى وغرر الفوائد ودرر القلائد ، د.ط ،(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، 1998م .

ـ المرزباني ، أبو عبيد الله ، محمد بن عمـــران ، (ت384هـ) . أشعار النســـاء ، ط1 . عالم الكتب ، بيروت ـ لبنان ، 1415هـ ـ 1995م .

ـ ـــــــ، معجم الشعراء ، د.ط ، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ـ مصر ، د.ت .

ـ المرزوقي ، أبو علي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، (ت421هـ) . شرح ديوان حماسة أبي تمام، ط1 . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان ، 1411هـ ـ 1991م .

ـ المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي ، (ت346هـ) . مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط4 ،(تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) .المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1384هـ ـ 1964م .

ـ المعري ، أبو العلاء ، (ت449 هـ) . رسالة الصاهل والشاحج ، (تحقيق ة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ) . دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، 1404هـ ـ 1984م .

ـ المفضل الضبي ، أبو العباس ، المفضل بن محمد ، (ت168هـ) . المفضليات ، ط8 ، (تحقيق و شرح أحمـــد محمد شاكر ، و عبد السلام محمد هارون) . دار المعارف ، القاهرة مصر ، 1993م .

ـ ابـن منظور ، أبو الفضل ، جمال الدين بن مكرم (ت711هـ) . لسان العرب ، ط2 . دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، 1300هـ .

ـ ابن منقذ أسامة ، (ت584هـ) . المنازل والديار، ط2،(تحقيق مصطفى حجازي) . دار سعاد الصباح ، القاهرة ـ مصر ، 1412هـ ـ 1992م .

ـ الميداني ، أبو الفضل ، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، (ت518هـ) . مجمع الأمثال ، د.ط ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) . المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، 1413هـ ـ 1992م .

ـ النابغة الذبياني . ديوانه ، ط1 ، (شرح علي أبو ملحم) . دار ومكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، 1991م .

ـ النويري ، شهاب الدين ، أحمد بن عبد الوهاب ، (ت733هـ) . نهاية الأرب في فنون الأدب ، ط1 ، (تحقيق يحيى الشامي) . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1424هـ ـ 2004م .

ـ ابن هشام ، أبو محمد ، عبد الملك بن هشام الحميري ، (ت218هـ أو 213هـ) . السيرة النبوية ، ط1 ، (تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم

الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي) . دار الخير ، بيروت ــ لبنان ، 1417هـ ــ 1996م .

ـــــــ . السيرة النبوية ، د.ط ، (تحقيق محمد فهمي السرجاني) . دار التوفيقية ، الأزهر ــ مصر ، د.ت .

ــ ابن هشام الأنصاري ، أبو محمد عبدالله،جمال الدين بن يوسف بن أحمد ، (ت761هـ) . شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، (شرح محمد محيي الدين عبد الحميد) ، د.ت .

ــ ـــــــ . قطر الندى وبل الصدى ، د.ط ، (شرح محمد محيي الدين عبد الحميد) . مكتبة الفيروز آبادي ، د.ت .

ــ اليزيدي ، محمد بن العباس ، (ت310هـ) . المراثي ، د.ط ، (تحقيق محمد نبيل طريفي) . دار إحياء التراث العربي ، دمشق ــ سورية ، 1991م .

ب . المراجع الحديثة :

ــ الأسعد , عمر , (1416هـ ــ 1995م) . ديوان رثاء الأزواج ، ط1 ، بيروت – لبنان : دار الرشاد .

ـ الألوسي , السيـد محمود شكري ,(د.ت). بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، د.ط ، (شرح وتصحيح وضبط محمد بهجة الأثري) ، بيروت ـ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـ بابتي , عزيزة فوال , (1998م) . معجم الشعراء الجاهليين ، ط1 ، بيروت لبنان : دار صادر .

ـ بلاشير , (1419هـ ـ 1998م). تاريخ الأدب العربي،(ترجمة إبراهيـم الكيلاني) ، دمشق ـ سورية : دار الفكـر المعاصـر .

ـ حور , محمد إبراهيم , (1401هـ ـ 1981م) . رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي ، د.ط ، أبو ظبي ، العين ـ دولة الإمارات العربية المتحدة : مكتبة المكتبة .

ـ خليف , مي يوسف, (د.ت). الشعـر النسائـي في أدبنـا القديـم ، د.ط ، القاهرة ـ مصر : مكتبـة غريب .

ـ الزركلي ، خير الدين , (1986م) . الأعلام ، ط7 ، بيروت ـ لبنان : دار العلم للملايين.

ـ السالمي , عبدالله بن حميد ,(د.ت) . شرح الجامع الصحيح ؛ مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، د.ط ، مسقط ـ سلطنة عمان: مكتبة الاستقامة .

ـ السامرائي ، فاضل صالح ، (1423هـ ـ 2003م). معاني النحو ، ط2 ، عمان ـ الأردن : دار الفكر .

ـ ، (1388هـ ـ 1968م). شرح ديوان الخنساء ومراثي ستين شاعرة ، د.ط ، بيروت لبنان : دار التراث .

ـ الصابوني ، محمد علي ، (1416هـ ـ 1996م). صفوة التفاسير ، ط1 ، بيروت لبنان : دار الفكر .

ـ صقر ، عبد البديع ، (1387هـ ـ 1967م) . شاعرات العرب ، ط1 ، منشورات المكتب الإسلامي .

ـ ضيف ، شوقي ، د.ت . الرثاء ، د.ط ، القاهرة ـ مصر : دار المعارف

ـ طليمات ، غازي والأستاذ عرفان الأشقر ،(د.ت) . الأدب الجاهلي ، ط1 ، حمص – سورية : دار الإرشاد .

ـ عباس ، إحسان ، (1996م) . فن الشعر ، ط1 ، عمان الأردن : دار الشروق .

ـ عبد الرحمن ، عفيف ، (1998م) . ديوان شعر الأيام ، ط1 ، بيروت ـ لبنان : دار صادر .

ـ ـــــ ، (1417هـ ـ 1996م) . معجم الشعراء الجاهليين ، ط1 ، بيروت ـ لبنان : دار المناهل .

ـ ـــــــ ، (1404هـ ـ 1984م) . الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ط1 ، بيروت ـ لبنان : دار الأندلس .

ـ قميحة ، مفيد ، (1997م) . شرح المعلقات العشر ، د.ط ، بيروت لبنان : دار ومكتبة الهلال .

ـ كحالة ، عمر رضا ، (1402هـ ـ 1982م) . أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، ط4 ، بيروت ـ لبنان : مؤسسة الرسالة .

ـ الكفراوي ، محمد عبد العزيز، (د.ت). الشعر العربي بين الجمود والتطور ، د.ط ، القاهرة ـ مصر : دار نهضة مصر .

ـ ماردیني ،رغداء ، (، 1422هـ ـ 2002م) . شواعر الجاهلية ، ط1 ، دمشق ـ سورية : دار الفكر .

ـ مهنا ، عبد ، (1410هـ ـ 1990م). معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ، ط1 ، بيروت ـ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـ النجار ، أحمد محمد ، (1978م) . شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، د.ط ، دار النهضة العربية .

ـ الوائلي ،عبد الحكيم ، (1421هـ ـ 2001م) . موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين ، ط1 ، عمان ـ الأردن : دار أسامة .

ـ يحيى , مخيمر صالح موسى , (د.ت) . رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ط1 ، الزرقاء ـ الأردن : مكتبة المنار

ـ يموت , بشير , (1419هـ ـ 1998م) . شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ط1 ، (تحقيق عبد القادر محمد مايو) ، حلب ـ سورية : دار القلم العربي .

ـ ـــــ , (1353هـ ـ 1934م) . شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ط1 ، بيروت ـ لبنان : المطبعة الوطنية .

ـ اليوسف , يوسف , (1985م) . مقالات في الشعر الجاهلي ، ط4 ، بيروت – لبنان : دار الحقائق .

الرسائل الجامعية :

ـ يعقوب , أحمد عيسى , (1996م) . شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي . رسالة ماجستير / غير منشورة , جامعة اليرموك ، اربد , الأردن .

ـ جبر , سناء جميل عطا , (1999م) . فن الرثاء في الشعر الأموي ، رسالة ماجستير /غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان الأردن .

الدوريات :

ـــ منصور , حمدي , (2004م). أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، (العدد 67) : ص 126- 138 .

THE SHE-POETS` ELEGIAC POETRY

By

Khamis Bin Majid Bin Khamis Alsabari

ABSTRACT

This Study tackles the She- poets` elegiac poetry of the pre-Islamic period. It follows the induction method to bring about all the subtleties of this art of verse and the main trends of it's development.

The study contains an introduction, two chapters and a conclusion. The introduction talked about the importance of this study and the justification of its choice. The two chapters discussed in detail all aspects of the verse of this type of art and the She-poets with reference to the sources and texts.

The Conclusion asserted the fact that the elegiac poetry of the She-poets ' of the pre-Islamic period was a straight-forward expression of deep sorrow and personal shock and it's language was far from being ornamental .

تم بحمد الله

رقم الإيـــداع : ٢٠١١/٥٧

ثبت المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
التصدير	ب-ت
الملخص بالعربية	ج
المقدمة	4-1
التمهيد	15-5
الباب الأول : اتجاهات فن الرثاء عند شاعرات الجاهلية	18-16
الفصل الأول : رثاء الآباء والأعمام	43-19
الفصل الثاني : رثاء الأبناء	63-44
الفصل الثالث : رثاء الإخوان	107-64
الفصل الرابع : رثاء الأزواج	127-108
الفصل الخامس : الرثاء القبلي	161-128
الباب الثاني : دراسة فنية لشعر الرثاء	162
الفصل الأول : بنية المرثية	179-163
الفصل الثاني : الخصائص المعنوية	204-180
الفصل الثالث : الخصائص اللفظية	218-205
الفصل الرابع : الصدق في الرثاء	230-219
الفصل الخامس : الصورة الشعرية	257-231
الخاتمة	260-258
قائمة المصادر والمراجع	281-261
الملخص باللغة الإنجليزية	282
ثبت المحتويات	283

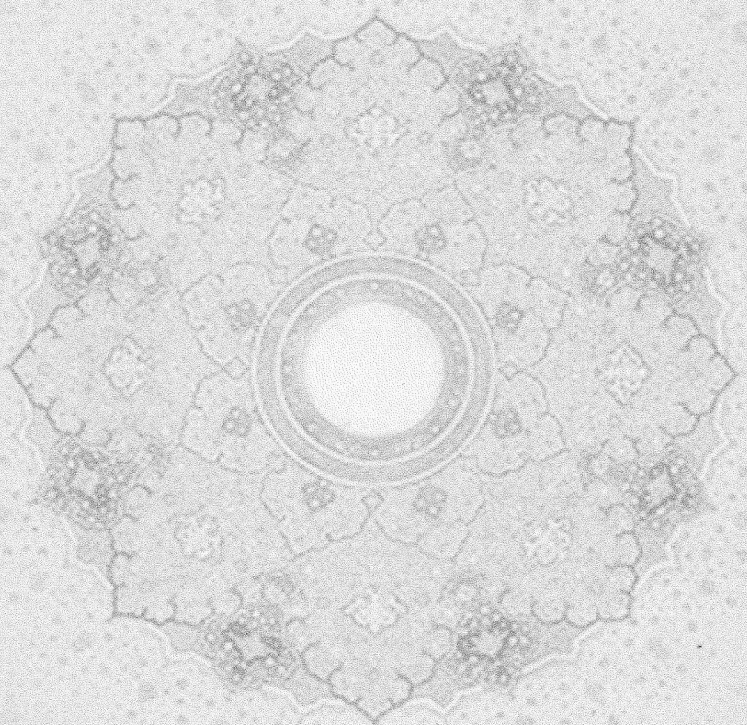

طبع بمطابع النهضة ش.م.م
تليفون: ٢٤٥٦٣١٠٤، anpress@omantel.net.om